جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
فرع إيتاى البارود
قسم البلاغة والنقد

مدخل إلى علم البيان

إعداد
د / سلامة جمعه على داود
مدرس فى قسم البلاغة والنقد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اللهم لك الحمد كله ؛ افتح لنا أبواب رحمتك ، وبصِّرنا بمشارق الأنوار من دلائل الإعجاز فى كتابك المسطور ، وكونك المنظور ، واجعل الصلاة على حبيبك وخير خلقك سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - نوراً يقربنا من نورك ، وعتقا لرقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا من النار .

وبعد

فهذا " مدخل إلى علم البيان " ، لا يتناول مسائله ، ولا يتغلغل فى شعبه وفروعه ، وإنما يفتح الطريق إليه ، ويمهِّد له بالتعريف بفضائله التى تُلْتَمسُ منه ، من خلال طبيعته جملةً ، وطبائع فروعه من التشبيه والمجاز والكناية والتعريض تفصيلا ، ثم من خلال النظر فيما رصد علماء البلاغة من فضائله ، نظراً يستمد من كلامهم الأصول التى قام عليها هذا العلم ، والمناهج التى ينتفع بها فى إحيائه وتجديده .

وكان حرص هذا المدخل على النظر فى كلام علماء البلاغة والاستمداد منه ، كحرصه على النظر فى طبيعة علم البيان ، أو أشد ؛ لما وجد من انصراف أكثر الدارسين عن مقدمات علماء البلاغة لأبواب هذا العلم ورؤوس مسائله ، حتى غدت عندهم كالشريعة المنسوخة ، أو كالصفحات المطوية فى التراث البلاغى ؛ لما وقر فى نفوسهم من أن هذه المداخل والمقدمات مجرد (ثناء) على العلم ، دعا إليه التعصب له ، وترويج بضاعته ، وصرف وجوه الناس إليه ، فانصرفوا عنها ، انصراف الحليم الرشيد ينفر من الثناء والمدح ، ويتورَّع عن سماعه ، فضلا عن النظر فيه ، وتأمله ، واستبصاره ، والاستنباط منه ......

وهكذا أضاع هذه المقدمات والمداخل وَرَعٌ كاذب ، وفكر مضعوف ، وكان مبلغ المنصف منهم أن يقتبس جُملاً من هذه المداخل يزيِّن بهـــا بحثـــه ، أو يُكثِّر (مراجعه) ، أو ينتسب بها إلى شرف المنقول عنه ، وعُلوِّ مكانته فى سماء هذا العلم !!

وهذه المقدمات والمداخل – لو نظروا – جوامع لما تحتــها ، ومفـــاتيح أبوابها ، من دخل من غير سبيلها دخل من طريق غير مشروع ، فلزمه كســـر الأبواب ، وقد أُمِرنا أن نأتى كل شئ من بابه ؛ قال تعالى (وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) [سورة البقرة : ١٨٩] .

ولو نُزعتْ هذه المقدمات ، واستُهلَّت العلوم بقضاياهــا ومســائلها ، لتُركنا نَلُمُّ مفاتيح كل علم وخصائصه من بين أنياب قضاياه ، ونحاول العثـــور على مفتاح كل قضية أو مسألة من ثنايا سطورها وكلماتها .. وكم من العمـــر ننفق فى ذلك ؟

إن هذه المداخل لا تقل فى نفاستها وجلالة قدرها وغرر فوائدها عـــن القضايا والمسائل ؛ فليست من نافلة البحث وحواشيه ، بل هى جزء من متنـــه ، وركن من أهم أركانه .

وفقه كلام علماء البلاغة فى هذه المداخل – وبخاصة كلام الإمام عبـــد القاهر – شاق جدا ؛ لأنه – فى أكثره – مبنى على الرمز والتصوير ، محوج فى الوقوف على حقائقه إلى فك رموزه ، واستجلاء صوره ، ومحـــوج فى تطبيـــق حقائقه وتنـــزيلها على مسائل العلم إلى أضعاف ما يحتاجه فى فك رموزه مـــن مشقة وصبر وأناة ...... ثم تبقى محصلته اجتهاداً فى فقه كلامـــهم ، وتنـــزيله

منازله ، يخطئ ويصيب ، ولعل خطأه يكون فاتحة لصوابه ، أو لصـــواب مـــن يستهدف النظر فيه .

وهذا المدخل خطوة تفتح الطريق إلى تتبع هذا النمط من البحـــث فى شتى أبواب البلاغة ...... والله أسأل ألا يحرمنى ثواب المجتـــهدين ، وأن يتقبـــل صوابه ، ويبصرنا بعيوبنا ، ويتجاوز عن زلاتنا . وصلى الله على الحبيب الشفيع وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه

سلامه جمعه على داود

مدرس فى قسم البلاغة والنقد

وسوق

فى يوم الجمعة ١٤ من ذى الحجة ١٤٢١ هـ

٩ مارس ٢٠٠١ م

علم البيان

واسطة العقد فى علوم البلاغة :

علم البيان هو واسطة العقد فى علوم البلاغـــة كمـــا اســـتقر عليـــها المتأخرون ، فهى عندهم ثلاثة علوم : المعانى ، والبيان ، والبديع .

علم البيان باب الخيال

وهو علم التصوير ، وباب الخيال ، وكنـــز ثمين من كنوز البلاغـــة ، ورافد من روافد الإبداع والإمتاع ......

ومع أن " البيان " واسطة العقد ، فإنه أطلق فى الأطوار الأولى لنشـــأة البلاغة على هذا العلم كله ، ويرى ابن خلدون " أن السبب فى إطلاق " البيان " على الأصناف الثلاثة أنه أول ما تكلم فيه الأقدمون ، ثم تلاحقت مسائل الفـــن واحدة بعد أخرى " [1] ، قال الشيخ عبد العزيز البشرى : " أما إن البيان كـــان أسبق الفنون الثلاثة إلى التدوين ؛ فذلك أن الإمام اللغوى الجليل القـــدر أبـــا عُبَيدة المتوفَّى سنة (٢٠٩ هـــ) قد وضع رسالة فى البحث عن (المجاز فى غريـــب القرآن) . ولا شك فى أن غرضه كان دينيا محضا ؛ فإن تبيُّن الحقيقة من المجاز مما تتأثر به بالضرورة أحكام الشرع الكريم ، وإذا صح أن يُدْعَى هذا تدوينـــا فى علم البيان ؛ فلا نزاع فى أن رسالة أبى عُبَيدة هذه هى أول ما دُوِّن لا فى علـــم البيان فحسب ، بل فى علوم البلاغة على الإطلاق " [2] .

أسبق فنون البلاغة إلى التدوين

الغرض من دراسة علم البيان :

إشارة إلى جهد المتأخرين

لما استتب تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة ، حدد المتأخرون لكل علـــم حدوده ومسائله ، حتى استتب ، وقر على ما حددوا ورسموا . وكـــان فيمـــا صنعوا خير كثير ؛ حفظوا العلم ، وشقوا لـــهم فيه أنهارا سقتهم وسقت مـــن

---

(1) مقدمة ابن خلدون : ص ٥٠١ ، ٥٠٢ مطبعة شقرون .

(2) المختار للشيخ عبد العزيز البشرى : ٢ / ٢٨ بتصرف ، ط . دار المعارف ، ط . رابعة .

بعدهم ، وقربوا فكر الإمام عبد القاهر الجرجانى وذوقه الرفيع إلى عقول جيلهم والأجيال فى عقبهم .

وعرَّفوا علم البيان بأنه " علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه " (١) .

الحلقة المفقودة بين القواعد والملكة

والتعريف على إيجازه جامع لأطراف هذا العلم ، فهو (علم) أى مجموعة من الأصول والقواعد ، إذا تحقق العلم بها وأُشْرِبَتْها النفوس ، حتى صارت ملكة راسخة من طول الدربة والممارسة ، وتفقد الأساليب العالية من آى الذكر الحكيم والحديث النبوى الشريف والشعر و النثر - عَرَفت أن للمعنى الواحد صوراً مختلفة يمكن أن يرد عليها ، وأشكالاً متعددة يتبرج فى صورها ، فهو كقطعة الذهب يمكن أن تظهر فى صورة سِوَار أو خاتم أو قُرْطٍ أو غير ذلك مما يبدعه الصائغ المتقن .

وقد أحسن شراح التلخيص حين فسروا لفظ (علم) بأنه مجموعة القواعد ، أو هو " الملكة " (٢) ، ولابد من العثور على الحلقة المفقودة بين (القواعد) و (الملكة) ، وهى الوسيلة التى تصير بها القواعد فى نفوس المتذوقين (ملكة) ثابتة ، ولا تتحقق هذه الوسيلة إلا بإدمان النظر فى حُرّ الكلام ومعادنه ، وتفقد طرقه وروائعه فى كتاب الله تعالى وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى الشعر والنثر ، ومحاولة نشر قواعد هذا العلم فى آلاف الشواهد تذوقاً وتطبيقا ووعيا بحركات المعانى ، أما معرفة القواعد وحدها دون أن تختبر بمثل

---

(١) الإيضاح للخطيب القزوينى : ٣ / ٢ ، ٣ (بأعلى صحائف البغية) ، ط . مكتبة الآداب ط . خامسة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

(٢) ينظر شروح التلخيص ٣ / ٢٥٧ نشر دار السرور ، والمطول للتفتازانى ص ٢٠٠ مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠ هـ نشر المكتبة الأزهرية .

هذا النظر فإنها لا تعطينا تلك (الملكة) ولا تقربنا منها ؛ ولذا قال ابن يعقوب المغربي : " إن هذا الفن لما ذكرت فيه شروط المقبول من التشبيه والمجاز والكناية وحقيقة كل منها وأقسامه كان فى ذلك تنبيه على فائدته ، وهو أن يطلب من تراكيب البلغاء واستعمالات العرب ما وقع ليقاس عليه غيره مما يراد استعماله ، ويعرف المقبول من ذلك من غيره ، فيصح للإنسان أن يحذو حذوهم وينسج على منوالهم ، فلا يقتضى أن هذا الفن يعرف به ما ذكر ، بل يقتضى أن معرفة هذا الفن ربما كانت سببا لتتبع تراكيب البلغاء "[1] .

السبيل إلى الموهبة

إن السبيل إلى الموهبة وإنشاء الملكات لم يكن قواعد البلاغة ولا أصول النقد ، وإنما العكوف على ما أنتجته المواهب الفذة والقرائح الصافية ، فكان السبيل إلى الشعر رواية الشعر ، فلا يكون الشاعر شاعرا إلا إذا كان راوية لشاعر ومتتبعا لمعالم نبوغه ووحى سليقته ، ووقافا عند معانيه ومبانيه ، حتى إذا استُودِعت روائعُ المعانى لُبَّه وفؤاده ، ثم رام أن ينشئ شعرا أنشأ مؤسِّساً على ما روى ، ومقتفيا أثر شاعره ، ثم ينسلخ منه ، فيكون شعره شعره ، وتكون له موهبته المنفردة .

كان هذا فى العصور الأولى ، عصور رواية الشعر ، وكان نظيره فى عصرنا الحديث ، حين جفت المواهب ونضبت ، فما كان إحياؤها إلا بذلك السبيل الأول ، فراح البارودى يقلب دواوين الشعر فى عصوره الزاهرة ، ويمتع بها قلبه ، حتى إذا جرت منه مجرى الدم فى الجسد ، أو مسرى الروح فى البدن ، جادت عبقريته بما جادت ، فكان منه ما كان ، وكذا كان شوقى وحافظ ، وغيرهم كثير من نوابغ الشعراء فى الجيل الماضى . فهذا هو السبيل إلى الموهبة .

---

[1] مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى ، ضمن شروح التلخيص : ٣ / ٢٦١ .

أما قواعد البلاغة فإنها تنمى الموهبة وتثريها ، ولكنها لا تنشئها ، فليس من شأن البلاغة أن تجعل من العارف بها وبمسائلها شاعرا أو أديبا ، إنما هى أنوار تضئ السبيل إلى الموهبة ، ولكنها لا توجدها ، هى دليل يقود إلى منابعها ويوقفك عليها ، ويكشف أسرارها وأنوارها ، فإذا شربت من النبع وارتويت جادتك الموهبة ووافتك الملكة ، أما إذا أوصلتك البلاغة بأنوارها الهادية إلى نبع البيان الحىّ ، فوقفت أمامه وقوف النظارة (المتفرجين) ولم تغترف منه بيديك ، ولم تنهل بقلبك وعقلك ، لم تحظ بالموهبة ، ولم تؤب بالملكة ، وكانت حال البلاغة معك حال الدليل المرشد الذى وصل بك إلى باب الملك ثم تركك ومضى ، فوقفت حيث تركك ، ولم تطرق الأبواب ، ولم تلتمس الأسباب ، فكنت على أبوب (الموهبة) ولكنك لم تطرقها ، ووقفت على شواطئ (الملكة) ولكنك لم تغترف من أنهارها ؛ فماذا تصنع معك البلاغة أكثر من ذلك ؟ !

قواعد البلاغة تنمى الموهبة ولا تنشئها

ولو كانت البلاغة تنبت الشعراء وتنجب الأدباء ، لكان أمير الشعراء هو الإمام عبد القاهر ، ولكان البلاغيون كلهم هم الشعراء ، ولكن الأمر على خلاف ذلك ؛ لأن الفرق بين الموهبة وما يدل عليها فرق بيّن ، فالموهبة شئ ، وما يدل عليها ويعرّف بها شئ آخر ، وهل يكون الدليل الموصل إلى الشئ هو عين الشئ ؟

فرق بين الموهبة وما يدل عليها

وفى الجيل الماضى أثار هذه الفكرة الشيخان الأديبان مصطفى لطفى المنفلوطى وعبد العزيز البشرى بأسلوبهما البيانى ، وبفكرهما العذب المصفى ، وإن هجم البشرى على المعنى هجوما ، شُبّه للناس أنه (ثورة على علوم البلاغة)[1] ، وهو فى الحقيقة تحرير لهذا الفرق الدقيق بين الموهبة وقواعد علم البلاغة ، أو

المنفلوطى والبشرى يجليان هذه الفكرة

---

(1) عنوان محاضرة ألقاها الشيخ البشرى فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ونشرتها مجلة الهلال فى يناير ١٩٣٦ ، وجعلت عنوانها (ثورة على علوم البلاغة) ، وضمنها الشيخ الجزء الثانى من كتابه (المختار) ص ٢٤-٢٦ ، ولعله لما رأى ما فى العنوان الصحفى من (ثورة) أراد أن يخفف من غلوائه فجعل عنوانه فى كتابه (فى علوم البلاغة) وحذف كلمة (ثورة) !!

كما سماه هو (بين العلم والفن) ، وكشف المنفلوطى عن ذلك الفرق بقلمه السيَّال ، فقال عن البيان : (هو أمر وراء العلم واللغة والمحفوظات والمقروءات والقواعد والحدود ، ولو أن أمراً من ذلك كائن لكان أبرعَ الكتاب وأشعرَ الشعراء ، أغزرُهم مادةً فى العلم ، وأعلمُهم بقواعد اللغة ، أو أجمعُهم لمتونها ، أو أحفظُهم لفصيح القول ورائعة) [1] .

صعوبة إدراك الفروق بين طرق المعنى

والغاية من علم البيان – كما حددها المتأخرون فى تعريفهم – هى البصر بطرق التعبير عن المعنى من حيث وضوحها أو خفاؤها فى الكشف عنه ؛ لأن للمعنى صوراً كثيرة يرتدى أثوابها وحُلاَها ، وله فى كل صورة شيات وخصائص وأحوال ينفرد بها ...... والبصر بذلك ليس من يسيرات الأمور ، بل إن إدراك الفرق بين تشبيهين تواردا على معنى واحد ، أو استعارتين ، أو مجازين مرسلين ، أو كنايتين ، أو تعريضين ، مما يدق ويصعب ويستعصى على غير الراضة المتذوقين ، العارفين بحقائق علم البيان ، المتمرسين بتصاريفه وأفانينه فى لسان العرب .

الطرق المختلفة لا تؤدى إلى معنى واحد إلا بتسامح

ويجب التنبيه هنا إلى أن (الطرق المختلفة) لا تؤدى إلى (معنى واحد) إلا بتسامح كبير يهدر أهم ما فى البيان ؛ لأن المعنى لا يتكرر بكل شياته وأحواله وخصائصه فى عبارتين [2] ، (فإذا نظرت إلى قول المتنبى :

وكلُّ امرئٍ يُولِى الجميلَ مُحبَّبٌ ... وكلُّ مكانٍ يُنْبتُ العِزَّ طَيِّبُ

وجدته ينظر إلى قول البحترى :

وأَحَبُّ آفاقِ البلادِ إلى الفَتى ... أرضٌ يَنالُ بها كريمَ المَطْلَبِ

---

[1] النظرات لمصطفى لطفى المنفلوطى : ١ / ٢٩ نشر مكتبة مصر .

[2] ينظر التصوير البيانى د / محمد أبو موسى : ص ٤٢١ – ٤٣٥ ط . دار التضامن ، ط . ثانية ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، نشر مكتبة وهبه .

فالفرق واضح جدا بين آفاق محبوبة لفتى ينال بها مطلبا كريما ، وبين مكان ترى فيه العز ينبت كما ينبت النبات فى التربة الصالحة) [1] .

ومن الوقفات السديدة فى تحرير المراد بـ (علم البيان) التنبيه على أن (المعنى الواحد) هو المستوفى لما سبق بيانه فى (علم المعانى) من كونه مطابقا لمقتضى الحال مع فصاحة ألفاظه [2] ، وهذا يقتضى أن استيفاء النظر فى (علم المعانى) شرط لصحته فى (علم البيان) ، فالمعنى الواحد الذى يرد بطرق مختلفة لابد – أولاً ، وقبل النظر فى طرقه المختلفة – أن يكون مستوفيا لما ذكره البلاغيون فى (علم المعانى) من مراعاة دواعى التعريف والتنكير والتقديم والتأخير والحذف والذكر والقصر والفصل والوصل إلى آخر ما هو مسطور فى (علم المعانى) ، فإذا أخل بشئ من ذلك لا يكون محلا للنظر فى (علم البيان) ؛ لأنه فقد شرط صحته ، (فإذا كان المخاطب ينكر كون زيد مضيافاً ، فالذى يقتضيه الحال بحسب المقام جملة مفيدة لرد الإنكار ، سواء كان إفادتها إياه بدلالة واضحة أو أوضح ، أو أخفى ، نحو : إن زيدا لمضياف ، أو لكثير الرماد ، أو لمهزول الفصيل ، أو لجبان الكلب ، فإفادتها لذلك المعنى بدلالة المطابقة – كالمثال الأول – من وظيفة علم المعانى ، وإفادتها له بغيرها من وظيفة علم البيان) [3] .

استيفاء النظر فى (علم المعانى) شرط لصحته فى (علم البيان)

وهذا التنبيه يرسى أصلاً عظيما من أصول الإبداع ، جر افتقاده والانحراف عنه فى عصرنا فساداً كبيرا على الأدب واللغة عامة ، حين ظن نفر من المنتسبين إلى أدبائه أن الأدب ليس إلا السباحة فى عالم الخيال ، والتعمق فى

أصل من أصول الإبداع

---

(1) المصدر السابق : ص ٤٢٧ .

(2) ينظر مختصر المعانى للتفتازانى وحاشية الدسوقى عليه (ضمن شروح التلخيص ٣/٢٥٨) .

(3) حاشية الدسوقى على مختصر السعد : ٣ / ٢٥٨ .

اقتناص شوارد الصور ، والولع بذلك ، دون أن يكون وراءه معنى سديد يتطلبه المقام ؛ فلا يهمه المعنى ، ولا يعنيه المقام ، وإنما تعنيه سبحات الخيال ، وتهويمات الإبداع (التهويم : السنة من النوم) ، والإيغال فى الرموز الغامضة والألفاظ التى لا تَحْلَى من ورائها بطائل ، فهى جوفاء خاوية لا ماء فيها ، كأنها السراب يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا !!

قيمة الخيال فيما وراءه من جواهر المعانى

إن قيمة الخيال وأثره الأعظم فيما وراءه من جواهر المعانى ونفائس الخواطر ، (وللخيال الأثر الأعظم فى تكوين هذا المجتمع الإنسانى وتكييفه بالصورة التى يريدها ؛ فلولا خيال الشعر ما هاج الوجد فى قلب العاشق ، ولولا خيال الشرف ما هلك الجندى فى ساحة الحرب ، ولولا خيال الذكرى ما اخترعت المخترعات ، ولا ابتدعت المبتدعات ، ولولا خيال الرحمة ما عطف غنى على فقير ، ولا حنَّ كبير على صغير ...... والخيال غير المرتكز على الحقيقة إنما هو هَبْوَةٌ طائرة من هَبْوَات الجوّ ، لا تهبط أرضا ، ولا تصعد إلى سماء)[1] .

وأكبر ثناء على خيال الشاعر أو الأديب أن يوسم بأن حقائق عقله تقف من وراء صوره وأخيلته ، وودائع نفسه تجود خلف مجازات بيانه ورموز ألفاظه ، وأن خياله الأدبى (ليس تهويمات طائرة فى الفضاء ، كما نرى لدى بعض من يرسمون الصور الباهتة ، دون أن تلفت الأنظار إلى ما وراء الصورة من الحقيقة ، وقد قال النقاد ، وأكثروا القول : بأن وظيفة الخيال تقريب الحقيقة وتدعيمها وتأكيدها ، وليست وظيفة الخيال الشطح البعيد عن الحقائق ، والإغراق فى تصورات تضل ولا تهدى)[2] .

---

(1) النظرات للمنفلوطى : ١ / ٤٠ بتصرف .

(2) من مقال للدكتور محمد رجب البيومى بعنوان (من أكبر الدعاة فى هذا العصر أبو الحسن الندوى) ، مجلة الأزهر ص ٣٨٧ عدد ربيع الأول ١٤٢١ هـ / يونيه ٢٠٠٠ م .

الغرض من علم البيان إذاً هو إيضاح المعنى ، وهذا ما نصوا عليه في التعريف بـ (وضوح الدلالة على المعنى) ؛ لأن (المعاني هي التي تعمر الكلام ، وتستتبع ألفاظه ، وبحسبها يكون ماؤه ورونقه ، وعلى مقدارها وعلى وجه تأديتها ، يكون مقدار الرأي فيه ، ووجه القطع به) [1] .

ومن أجل هذا كان النص على (وضوح الدلالة على المعنى) ركناً مهما من أركان التعريف ؛ لأنه هو الغرض من دراسة علم البيان كله ، وهذا مستنبط من قول الإمام عبد القاهر في بيان غرضه من تأليف كتابه " أسرار البلاغة " :

المتأخرون استنبطوا غرض (علم البيان) من الإمام عبد القاهر

(واعلم أن غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته ، والأساسِ الذي وضعتُه ، أن أتوصل إلى بيان أمر المعاني ، كيف تختلف وتتفق ؟ ومن أين تجتمع وتفترق ؟ وأُفصِّلَ أجناسَها وأنواعَها ، وأتتبعَ خاصَّها ومُشَاعَها ، وأبيِّنَ أحوالها في كرم منصبها من العقل ، وتمكنها في نصابه ، وقُرْب رحمها منه ، أو بُعْدها - حين تُنسَبُ - عنه) [2] .

فالإمام عبد القاهر يصرح بأن غرضه من كتابه هو (بيان أمر المعاني) ، وهذا يعني أن البحث في التشبيه والمجاز والكناية هو في جوهره بحث في (المعاني) من حيث اختلافها واتفاقها ، واجتماعها وافتراقها ... إلخ ، وهذه الحيثيات التي هي محل النظر في أمر المعاني عند الإمام هي التي اعتصرها المتأخرون في (وضوح الدلالة على المعنى) ، وكأنهم لما راموا تلخيص هذه الحيثيات لم يجدوا كلمة

([1]) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعي ص ٢٦٩ ط . دار الفكر العربي ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .

([2]) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني : ص ٢٦ ت . محمود شاكر ، مطبعة المدني ط . أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .

أجمع ولا أوفى بمرادها من (وضوح الدلالة على المعنى) ، ويبقى فى حيثيات الإمام أنها ترسم طريق البحث عن (أمر المعانى) فى علم البيان ، هذا الطريق الذى يُنْظَر فيه إلى المعانى من عدة زوايا .

وقبل بيان هذه الزوايا أشير إلى أن ثمة تشابها كبيراً بين كلام الإمام عبد القاهر فى النص السابق وقول الجاحظ وهو يذكر أصناف الدلالات على المعانى من اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال ، قال : (ولكل واحد من هذه الخمسة صورةٌ بائنة من صورة صاحبتها ، وحِلْيةٌ مخالفة لحِلْية أختها ، وهى التى تكشف لك عن أعيان المعانى فى الجملة ، ثم عن حقائقها فى التفسير ، وعن أجناسها وأقدارها ، وعن خاصها وعامها ، وعن طبقاتها فى السارِّ والضارِّ ، وعما يكون منها لَغْواً بَهْرَجاً ، وساقطا مُطَّرَحاً)[1] ، ففى نص الإمام عبد القاهر أطراف من نص الجاحظ ، كما لا يخفى ، وكلامه من كلامه ، مما يغرى على القول بأن الإمام استنبط جذور هذا الغرض من كلام الجاحظ ، ثم زاد فيه ، وفرع عليه ، وأقام كتابه (أسرار البلاغة) كله على بسط هذا الجذر والتفريع عليه .

والإمام عبد القاهر استنبط جذور هذا (الغرض) من كلام الجاحظ

أما الحيثيات التى ذكرها الإمام عبد القاهر ، وجعلها طرق البحث عن (أمر المعانى) فى علم البيان فيمكن حصرها فى أربعة طرق :

أربعة طرق للبحث عن (أمر المعانى) فى علم البيان

الطريق الأول : أن نتعرف على المعانى (كيف تختلف وتتفق ؟ ومن أن تجتمع وتفترق) فننظر فى التشبيهين – مثلا – حين يتناولان معنى واحدا ، فنعرف الجزئيات التى اتفقا فيها ، والجزئيات التى اختلفا فيها ، كأن يكون

[1] البيان والتبيين للجاحظ : ١ / ٧٦ ت . عبد السلام هارون نشر مكتبة الخانجى ط . خامسة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

أحدهما أتى بالتشبيه مجملا ، والآخر دقق النظر فجاء فيه بتفاصيل لم يأت بها صاحبه ، ومن أبين ذلك وأحسنه ما ذكره الإمام عبد القاهر فى التشبيه المجمل والتشبيه المفصل ، قال : (والمقابلات التى تريك الفرق بين الجملة والتفصيل كثيرة ، ومن اللطيف فى ذلك أن تنظر إلى قوله :

الإجمال والتفصيل فى التشبيه مما تختلف فيه المعانى وتتفق

يُتَابِعُ لا يَبْتغى غيرَهُ ... بابيضَ كالقَبَس الملْتهِبْ

ثم تقابلَ به قولَهَ :

جَمَعْتُ رُدَيْنِياً كانَّ سِنَانَهُ ... سَنَا لَهَبٍ لم يَتَّصِلْ بدُخَانِ

فإنك ترى بينهما من التفاوت فى الفضل ما تراه ، وما ذاك إلا من جهة أن الثانى قصد إلى تفصيل لطيف ، ومرَّ الأولُ على حكم الجمل .

ومعلوم أن هذا التفصيل لا يقع فى الوهم فى أول وهلة ، بل لابد فيه من أن تتثبت وتتوقف وتُرَوِّىَ وتنظر فى حال كل واحد من الفرع والأصل ، حتى يقوم حينئذ فى نفسك أن فى الأصل شيئا يقدح فى حقيقة الشبه ، وهو الدخان الذى يعلو رأس الشعلة ، وأنه ليس فى رأس السنان ما يشبه ذلك . وأنه إذا كان كذلك ، كان التحقيقُ وما يؤدِّى الشئَ كما هو ، أن تستثنى الدخان وتنفى ، وتَقْصِرَ التشبيه على مجرد السَّنا ، وتصور السنان فيه مقطوعا عن الدخان . ولو فرضت أن يقع هذا كله على حد البديهة من غير أن يخطر ببالك ما ذكرتُ لك ، قدرتَ محالاً لا يُتَصَوَّر) [1] .

ففى البيتين السابقين اشترك عنترة وامرؤ القيس فى تشبيه الرمح باللهب ، إلا أن امرأ القيس زاد تفصيلا ليس عند عنترة ، حين نفى أن يكون

(١) أسرار البلاغة ١٦٣ ، ١٦٤ والبيت الأول لعنترة العبسى ، والثانى لامرئ القيس وردينة : اسم امرأة كانت تعمل الرماح ، فنسب إليها ، يقال : رمح رُدَيْنِىٌّ ، وقناة رُدَيْنِيَّةٌ . واللهب : شعلة نار يعلوها دخان (حاشية السيد الشريف على المطول : ص ٣٤٣ ، وينظر لسان العرب : ردن ط . دار المعارف .

للهب دخان ليكون أصفى وأنقى ؛ ولأن الدخان فى رأس الشعلة ليس له ما يشبهه فى سنان الرمح ، فاتفق التشبيهان فى شئ ، واختلفا فى شئ ، فاجتمعا وافترقا .

فالبحث فى التشبيه ينبغى أن يركز على مثل هذه الفروق المعنوية ؛ لأنها تطوى وراءها دقائق فى صنعة البيان ، وفيما بذله فيه أصحابه من جهد وعناية ، فعنترة رصد المعنى بأول بديهة ؛ ومن ثم جاء بالتشبيه مجملا ، أما امرؤ القيس فإنه لما لجأ إلى التفصيل دل على ما قام به من أناة وطول نظر حتى أدرك الفرق بين رأس الشعلة وسنان الرمح ، ووجد فى الأولى دخانا يَفْسُدُ اعتبارهُ فى الثانى فنفاه [1] .

الفرق بين التشبيهين كالفرق بين الرجلين : يقنع أحدهما من الأمر بظاهره الجلى ، ولا يكلف نفسه من الأمر رهقا ، أما الآخر فلا يقنع بالظاهر حتى يغوص على الخفى ، وينضى نفسه ، ويراجع ويدقق حتى يصل من الحقائق إلى لبها .

على أن الإجمال والتفصيل فى البيتين طابق كل منهما موقعه ، وجاء فى حاق موضعه ، فلم يكن تفصيل امرئ القيس ليسد مسد إجمال عنترة ، ولا العكس ، فلكل منهما مقامه الذى هو به أليق ، فسياق تشبيه عنترة – على ما روته حماسة أبى تمام – قوله يصف وَرْدَ بنَ حابسٍ حين طلب نَضْلَةَ الأَسَدِىَّ بوِتْرٍ كان له عنده [2] :

---

(1) ينظر التصوير البيانى د . محمد أبو موسى : ١٤٦ ، ١٤٧ .

(2) ديوان الحماسة لأبى تمام بشرح المرزوقى : ١ / ٤١٨ نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون ط . دار الجيل ط . أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

يُذَبِّبُ وَرْدٌ علـــى إثْرِهِ وأَمْكَنَهُ وَقْعُ مِرْدىً خَشِبْ [1]
يُتَابِعُ لا يَبْتغـــى غَيرَهُ بـأبيـضَ كالقَبسِ المُلْتَهبْ
فمنَ يَكُ فى قتله يَمْتَرى فإنَّ أبا نَوْفَلٍ قد شَجِبْ [2]
وغَادَرْنَ نَضْلَةَ فى مَعْرَكٍ يَجُرُّ الأَسِنَّةَ كالمُحْتَطِبْ [3]

وقد جمع الشاعر لهذه المطاردة كل أدواتها التى تمكنه من درك واتـــره ، أما عن الفارس فهو قوى يذب كل ما يعوقه عنها ، ويتابع المطاردة بلا كلـــل ، ولا يرضى بـــ (نضلة) بدلا ، وأما عن فرسه فهو (مردى خشب) ، وأما عـــن سلاحه فهو (أبيض كالقبس الملتهب) ؛ وبهذه الثلاثة جعل قتل واتـــره محققـــا لا مرية فيه .

والاقتصار فى وصف الرمح على أنه أبيض يشبه النار الملتهبة ، من غـــير أن ينفى عن هذه النار صفة الدخان يناسب حال المطاردة السريعة القوية . ولـــو رام عنترة نفى الدخان لأوهن سياق المطاردة وجافاه ونبا عنه ، وكان تفصيلـــه كالعقبة فى مجرى المطاردة ، توقف السياق الذى يحرص فيه على وصف ورد بأنه يمحو عن سبيله كل عقبة ، فهو (يُذَبِّب) أى يدفع ، ولم يقل (يَذُبّ) مبالغـــة فى

(1) يُذَبِّب : يدفع بشدة . والمِرْدَى : صخرة يكسر بها النوى وغيره . وخشب : خشن ، كـــأن الفـــرس يضرب الأرض بحوافره ضرب الحديد بالمِيقَعة (عن شرح المرزوقى ١ / ٤١٨ ، ٤١٩ بتصرف) .

(2) يقول : من شك فى قتل ورد لنضلة فليزل الشك عن نفسه ، فإنه هالك لا محالة . وأبو نوفل : كنيـــة نضلة . وشجب : هلك (عن المصدر السابق ١ / ٤٢٠ بتصرف) .

(3) يقول : تركته الخيل وهو فى مزدحم الحرب جاراً للأسنة المكسورة فيه عند الطعن ، كأنه جامع حطـــب (السابق) .

الدفع والإزالة ، ثم هو (لا يبتغي غيره) أى يجعله هو غايته وبغيته ، وكذا فرسه يقد الحجارة الصلاب بحوافره قدًّا ، ويميطها عن طريقه لئلا تعوقه [1] .

وأما سياق تشبيه امرئ القيس فهو مشكل ؛ لأن البيت ورد فى ديوانه مفرداً [2] ؛ فليس له بهذا سياق كاشف ، إلا أن الشيخ العلامة عبد الرحيم بن أحمد العباسى (ت٩٦٣ هـ) حين عرض لهذا الشاهد قال : (البيت لامرئ القيس ، من قصيدة من الطويل ، أولها :

لمن طَلَلٌ أبصَرْتُهُ فشَجانى ... كَخَطِّ زَبُورٍ فى عَسِيبِ يَمَانِى

....

وهى طويلة) [3] .

---

(1) من براعة عنترة رميه بهذه المعانى فى بحر المتقارب ، مما جعل وقعها مصورا لوقع المطاردة ، فهو من البحور ذوات التفعيلة المتكررة ، وبناؤه تاماً – كما فى أبيات عنترة – على (فعولن) ثمانى مرات : فى كل شطر أربع تفعيلات ، والتزم عنترة فى عروضه وضربه حذف السبب الخفيف من (فعولن) لتصير (فعو) وهذا يسمى "الحذف" ، وهو لازم فى الضرب دون العروض ، وهذا يعنى أن عنترة التزم فى العروض بما لا يلزم ، فأجرى المقطوعة على الحذف فى العروض والضرب ، هكذا :

فعولن ، فعولن ، فعولن ، فعو ... فعولن ، فعولن ، فعولن ، فعو

وكأنه باختيار هذه التفعيلة المتكررة ، وباختيار "الحذف" فى عروض البحر وضربه جميعا ينقل المطاردة للنظارة نقلا ، ويصور ركض الفرس فى جريه المتتابع ركضا متواتر الأشواط على نسق واحد ، وطريقة واحدة ، لا يخرم منها حرفا ، فلا يضعف ولا يفتر . ولاشك أن تنظيم الجرى وتقسيمه أجدر بطول النفس فيه واستمراره للوصول إلى الغاية على حال أشبه بالحال التى بدئ عليها فى القوة والنشاط . وتسكين الشاعر لحرف الروى (الباء) مما يقوّى هذا الحسّ ويغرى به .

(2) ينظر شرح ديوان امرئ القيس للأستاذ حسن السندوبى ص ٢١٧ برقم ١٩٦ ط . المكتبة الثقافية ط . سابعة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م قال السندوبى : (وله يصف رمحه) وأورد بيت الشاهد مفرداً .

(3) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسى : ٢ / ٩٢ بتصرف ت . محمد محيى الدين عبد الحميد ط . عالم الكتب ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧ م .

وبهذا دلَّ العباسيَّ على القصيدة ، إلا أن البيت ليس فيها ، لا فى شرح السندوبى ولا فى تحقيق أبى الفضل [1] ، وهما أوفى ما بأيدينا من نسخ الديـوان ، والعباسيَّ ثقة [2] .

ومهما يكن الأمر فإن العباسى وضع أيدينا على القصيدة الـتى منـها الشاهد ، وأجدر موضع بهذا البيت – فيما أرى – أن يكون ترتيبه العاشـر ، فينتظم السياق على هذه الصورة :

١- لمن طَلَلٌ أبْصَرْتُه فشَجـانى ... كخَطِّ الزَّبور فى العَسِيبِ اليَمانى [3]

٢- ديارٌ لهِنْـدٍ والرَّبـاب وَفَرْتَنَى ... لياليِنا بالنَّعْفِ مـن بَدْلانِ [4]

٣- ليالىَ يَدْعُونى الـهوى فأُجيبهُ ... وأعْيُنُ من أهْوَى إلـىَّ رَوانِ [5]

٤- وإن أمْسِ مَكْرُوباً فيارُبَّ بُهْمَةٍ ... كَشَفْتُ إذا اسْـودَّ وَجْهُ الجَبانِ [6]

٥- وإن أمْسِ مكروبا فيارُبَّ قَيْنَةٍ ... مُنَعَّمةٍ أعْمَلْتُها بـكِرانِ [7]

---

(١) ينظر شرح ديوانه للسندوبى ص ٢١٠ – ٢١٣ قصيدة رقم ٩٠ والديوان بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم : ص ٨٥ – ٨٨ قصيدة رقم ٨ ط . دار المعارف ، ط . ثانية .

(٢) مما زاد الأمر إلباساً أن المحقق لم يورد ثبتاً بمصادر التحقيق لعجلة الناشر كما ذكر فى آخر صفحة ، واكتفى فى تخريج القصيدة بقوله (اقرأها فى الديوان ١٨٦) ، ولم يحدد أى نسخة اعتمدها ، وإن كنت أرجح أنها نسخة السندوبى ؛ لأن المحقق أورد فى اختلاف رواية الديوان عن رواية المعاهد ما يطابق رواية السندوبى تمام المطابقة ، ولكن لو اعتمدها لبادر بالتصريح بأن البيت ليس من القصيدة ، وهذا هو الآخر ملبس جدا .

(٣) الزبور : الكتاب والعسيب : جريدة من النخل مستقيمة (اللسان : زبر ، عسب) .

(٤) هند والرباب وفرتنا : فتيات كان يشبب بهن . النعف من الأرض : المكان المرتفع . بدلان : موضع (ينظر اللسان : نعف ، وهامش تحقيق السندوبى) .

(٥) روان : من رنا بمعنى : نظر (اللسان : رنا) .

(٦) البهمة بضم الباء : الأمر المشكل الذى لا يُعرفُ له وجهٌ يؤتى منه ، أو الشجاع الذى لا يدرى من أين يؤتى له من شدة بأسه (اللسان : بهم بتصرف) .

(٧) الكِرَانُ : العُودُ ، وقيل : الصَّنْجُ ، والجمع أكْرِنَةٌ (اللسان : كرن) .

٦- لهـا مِزْهَرٌ يَعْلُو الخَمِيسَ بِصَوْتِهِ أَجَشُّ إذا مـــا حَرَّكَتْهُ اليَدَانِ (١)

٧- وإن أمْـــسِ مكروبا فيارُبَّ غارةٍ شَهِدْتُ علـى أقَبَّ رِخْوِ اللَّبانِ (٢)

٨- علـــى رَبِذٍ يَزدَادُ عَفْو ا إذا جَرَ مِسَحٍّ حَثِيـثِ الرَّكْضِ والذَّألانِ (٣)

٩- ويَرْدِي على صُمٍّ صِلابٍ مَلاطِسٍ شَديداتِ عَقْـــدٍ لَيِّناتِ مِثَانِ (٤)

١٠- جَمعـــــتُ رُدَيْنِيًّا كان سِنَانَهُ سَنَا لهبٍ لم يَتَّصِـــلْ بدُخَانِ

١١- وغَيثٍ من الوَسْمِيِّ حُوٍّ تِلاَعُهُ تَبَطَّنْتُهُ بِشَيْظَمٍ صَلَتَـــــانِ (٥)

.... إلى آخر القصيدة (٦)

والوجه فى إيثار هذا الترتيب أن الشاعر يعد الأمور المفرجات للكروب حين تمسى به ، فعد منها أربعة :

الأول : أنوار عقله الراجح ورأيه السديد وقت لا يدرى الناس من أين يؤتى الأمر ولا كيف تنجلي ظلماؤه : (فإن أمس مكروبا فيارب بهمة ... البيت ٤) .

---

(١) المزهر : العود الذى يضرب به . يعلو : يغلب بصوته . الخميس : الجيش اللجب . أجش : فى صوته بحة . اليدان : يريد بهما يدى الجارية (اللسان : زهر وينظر هامش السندوبى) .

(٢) الأقب : الفرس الضامر . رخو اللبان : لين الصدر عتيق (اللسان: قبب ، لبن ، وهامش السندوبى) .

(٣) الرَّبِذُ : الخفيف القوائم فى مشيه . العفو : النشاط فى الجرى . مسح : كثير العرق . حثيث الركض : موالى الجرى . الذَّألانُ : السُّرعة ، وبه سُمِّى الذئبُ ذُؤَالَة (اللسان : ربذ ، ذأل وينظر هامش السندوبى) .

(٤) يَرْدِى : يعدو فيرجم الأرض رجما . صم صلاب : حوافر صلبة مصمتة . مَلاَطِسُ : اللَّطْسُ : الدق والوطء الشديد ، أراد أنه يضرب الأرض بحوافره . شديدات عقد : يريد أن حوافره شديدات عقد الأرساغ . المثانى : مثانى الفرس : رُكْبَتاه ومَرْفِقَاهُ (اللسان : ردى ، لطس ، ثنى وينظر هامش السندوبى) .

(٥) الغيث : يريد الكلأ . الوسمىّ : مطر أول الربيع ؛ لأنه يسم الأرض بالنبات . حوّ تلاعه : خضر مرتفعاته . تبطنته : نزلت إلى بطنه . بشيظم صلتان : بفرس طويل منجرد الشعر (اللسان : وسم ، حوى ، شظم وينظر هامش السندوبى) .

(٦) هذه رواية الديوان بشرح السندوبى : ص ٢١٠ - ٢١٢ ، والقصيدة فى ديوان امرئ القيس بتحقيق أبى الفضل ٨٥ - ٨٨ باختلاف يسير فى الرواية .

والثانى : سماع الغناء من قينة منعمة غريدة ضاربة بعودها على أوتـــار قلبه : (فيارب قينة ... البيتان ٥ ، ٦) .

والثالث : الغارة التى تكون له – لفرط شجاعته وإدلاله بقوته – نزهـة تروح عنه وتذهب همه : (فيارب غارة ... ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠) .

والرابع : المروج الخضر الأنف ، ينعم بها ويتلهى (البيت ١١ وما بعده) .

وبيت الشاهد وثيق الصلة بالأمر الثالث الذى يروح فيه الشاعر عـــن نفسه بالغارات التى جمع لها عدتها من رباطة الجأش وقوة النفس والبدن ، ومـــن فرس ضامر قوى عتيق لين الصدر ، سريع ، واسع الخطو ، متجدد النشـــاط ، حثيث الركض ، كثير العرق ، ذى حوافر صلبة مصمتة كأنها المعاول تكسر مـا تقع عليه من حجر وغيره . وبهذا وصف الشاعر نفسه وفرسه ، وبقى وصفـــه سلاحه ، وهذا ما فصله بيت الشاهد تفصيلاً يلائم ما سبق فى وصـــف نفســه وفرسه ، فأعطاه ذلك فسحة نفى فيها عن المشبه به وهو رأس الشـعلة صفـة الدخان التى لا توجد فى سنان الرمح ؛ لأنه هادئ النفس ، يتنـزه بالغـــارات ويروّح بها عن نفسه .

والطريق الثانى : معرفة أجناس المعانى وأنواعها على جهة التفصيل ، قال الإمام : (وأفصل أجناسها وأنواعها) ، أى : أفصل أجناس المعانى التى انطـوت عليها صور البيان ، والتى تربض من وراء التشبيهات والمجازات والكنايـــات ؛ لأن المعانى هى جوهر هذه الصور ...... ويا ضيعة العمر إذا وقف المثقفون مـــن البيان عند صور ألفاظه ونقوش حروفه ، قال المازنى : (أليس أحدنا بمعـذور إن هو صرخ وبه من سانح اليأس خاطر : " يا ضيعة العمر ! أقص علـــى النـــاس حديث النفس ، وأبثهم وجد القلب ونجوى الفؤاد ، فيقولون : ما أجود لفظــه

تفصيل أجناس المعانى وأنواعها

أو أسخفه ، كأنى إلى اللفظ قصدت !! وأنصب قبل عيونهم مرآة للحياة تريهم – لو تأملوها – نفوسهم بادية فى صقالها فلا ينظرون إلا إلى زخرفها وإلى إطارها ، وهل هو مفضض أم مذهب ، وهل هو مستملح فى الذوق أم مستهجن ؟؟ وأفضى إليهم بما يعيى أحدهم التماسه من حقائق الحياة ، فيقولون : لو قلت كذا بدل كذا لأعيا الناس مكان ندك . ما هم لا يعيبون البحر باعوجاج شطآنه وكثرة صخوره ؟؟ يا ضيعة العمر !!) [1] .

ولكن ما مراد الإمام عبد القاهر بأجناس المعانى وأنواعها ؟ وهل المعلى فى ذلك كالمخلوقات ذوات أجناس ، فيها الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، فيكون من المعانى ما هو شريف مكرَّم تخدمه بقية المعانى كالإنسان تخدمه سائر الأجناس ؟ وأى المعانى الأحق بأن يسمو إلى هذه الرتبة فيكون للمعانى إنسانها الأكرم ، وإمامها الأعظم ؟ أهى المعانى الصريحة السافرة المكشوفة الوجه – كما كان يسميها الإمام عبد القاهر – أم التى ترتدى حُلَى التشبيه والمجاز والكناية ؟ إن كفة الأخيرة فى الميزان أرجح لقول الإمام عنها إنها (أصول كبيرة ، كأن جُلَّ محاسن الكلام – إن لم نقل : كُلَّها – متفرعةٌ عنها ، وراجعةٌ إليها ، وكأنها أقطابٌ تدور عليها المعانى فى متصرَّفاتها ، وأقطارٌ تحيط بها من جهاتها) [2] .

ثم إن الأنواع المتفرعة من شجرة الأجناس بينها – هى الأخرى – تمايز وتفاضل ، فالمعانى التى هى من جنس (الإنسان) يفضل بعضها بعضا كما يفضل بعض الناس بعضا ، ويكون منها الشريف والخسيس ، والكريم والبخيل ، والحسن والقبيح ، والودود العطوف ، والنافر المنبوذ ...... وهكذا فى سائر

---

(1) حصاد الهشيم لإبراهيم عبد القادر المازنى : ص ١٨٢ ، ١٨٣ . ط . الشعب .

(2) أسرار البلاغة : ص ٢٧ ت . شاكر .

الأنواع المتفرعة من كل جنس ، وهو باب لا نهاية لتفصيل شُعبه ، وحصر سماته وخصائصه ، ومن رام ذلك رام أن يحصى كل سمة أودعها الله كل كائن على ظهر البسيطة ، وهذا محال !!

وتقسيم المعانى تحت صور البيان إلى أجناس تتفرع منها أنواع ساقه الإمام عبد القاهر مساق المعلوم الظاهر الذى لا يمارى فيه أحد ، ولذا لم يجتهد فى إثبات أن للمعانى أجناسا وأنواعا ، وإنما اجتهد فى (تفصيل) أجناسها وأنواعها .

ولعل مراد الإمام بأجناس المعانى فى (علم البيان) ما وراء شجرة تقسيماته من أصول وفروع ، فالتشبيه جنس من المعانى له أنواعه المندرجة تحته كالتمثيل وغيره ، والإجمال والتفصيل ، والحسى والعقلى ، وغير ذلك من المسائل المتفرعة تحت التشبيه . وكذلك الاستعارة جنس آخر يختلف عن جنس التشبيه ، فلا يقع الخلط بينهما كما لا يقع بين (الإنسان) و (الحيوان) ، وتحت جنس الاستعارة أنواع كثيرة ، كالتصريحية ، والمكنية ، والتمثيلية ، وكذا يقال فى الكناية فهى جنس أنواعه الكناية عن صفة وعن موصوف وعن نسبة .

ويقوى هذا الفهم أمران :

أولهما : أن الأقسام السابقة هى التى تناولها الإمام عبد القاهر فى كتابه (أسرار البلاغة) ، فهى إذن تحمل تحت مسمياتها أجناس المعانى وأنواعها التى أراد أن يفصلها ، وهذا يعنى أن المعنى فى التشبيه جنس له خصائصه وطبائعه التى ينفرد بها عن المعنى فى الاستعارة ، وهكذا ، فطبيعة المعانى فى التشبيه قائمة على الجمع بين الطرفين (المشبه والمشبه به) مع بقاء كل منهما فى جنسه ، فالذى يقول : " هند كالبدر " ألحق هندا بالبدر فى الحسن كأنها تنير ظلام الحياة

كما ينير البدر دياجى الليل ، ومع هذا الحسن فى التشبيه تبقى هند هى هند ، ويبقى البدر هو البدر . أما الذى يقول فى الاستعارة عن الحسناء : " عشقت بدرا " ، فإنه لم يكتف بتشبيهها بالبدر ، بل استعاره لها ، وجعلها تخرج من جنس البشر إلى جنس آخر ، فجعلنا أمام بدر على الحقيقة ، لا أمام حسناء تشبه البدر .

وابن زيدون حين يقول :

وَلقد قَضَى فيكِ التجلُّدُ نَحْبَهُ ... فثَوَى وأَعْقَبَ زَفْرَةً ونَحيبَا

وأَرَى دموعَ العينِ ليس لفَيضِها ... غَيضٌ إذا ما القلبُ كان قَلِيبا [1]

يغير طبيعة (التجلد) الذى هو معنى عقلى ، وينقله إلى جنس البشر ، فيمثله لنا رجلا قويا صلبا يغالب نار الهجر وألم البين والفراق ، حتى يقضى فى ذلك الجهاد نحبه صادق الحب مخلص الود وفيا بعهد الوصال ، فيواريه التراب فى مثواه ، ويتفجع عليه ، ويؤوب بزفرة وحنين ، ويعيش بعده نهبا للحزن ، دون أن يجد حاميا يذود عنه بعدما مات التجلد ، فسالت العيون أنهارا وما كان لفيضها غيض حتى كان القلب قليبا ، فالبيت الأخير حلقة تالية لسابقه ؛ لأن فيضان الدموع سببه موت التجلد الذى كان سدا منيعا يحجبها .

وفى البيت الثانى شبه غزارة الدموع التى لا تجف بالأنهار الفياضة التى لا يفيض فيضها .

---

(1) ديوان ابن زيدون : ص ٢ ت . محمد سيد كيلانى ، ط . مصطفى الحلبى ط . ثالثة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

فالفرق بين التشبيه والاستعارة فرق فى طبيعة المعنى ، وكـذا الفـرق بينهما وبين المجاز المرسل والكناية ، وقد أحكم العبارة عن تلك الفروق شيخنا العلامة الدكتور محمد أبو موسى أحسن الله إليه وزاده علما وفضلا [1] .

وثانيهما : أن الإمام لما ساق كلامه عن أجناس المعانى وأنواعها ... إلخ مساق المعلوم ، دلّ على أن هذه الأجناس والأنواع كانت معروفة عند من سبقه من أهل العلم ، وأن همّه هو البيان والتفصيل ، ولـذا قـال (وأفصل أجناسها وأنواعها) وهذا يعنى أن شجرة التقسيمات كانت معروفة عند من سبقه من العلماء ، ولكنها معرفة على طريق الإجمال المقتضى (التفصيل) ، وهذا ما أراد الإمام أن يتوصل إليه ؛ لأن فيه إحياءً لكثير من خوافى هذه الأجناس ، وليس هناك شئ أوقع فى النفس ، وأحرى بالقبول والتسليم ، من أمر انكشفت حقائقه ، وبُيِّنت ، وفُصِّلت ، فزالت عنه حجب الغموض والإبهام ، وكساه نور المعرفة مزيدا من محبة النفوس وتعلقها به ... وشأن العلم الغامض شأن الرجل الغامض ، تتوجس منه ، وتوصى بالبعد عنه ، والرهبة منه ، وشأن العلم الواضح ، والقاعدة المفصَّلة ، شأن الرجل الواضح ، تأنس به وتتودد إليه ، وهذا ما يحرص عليه الإمام ، ويريد أن يتوصل إليه فى (بيان أمر المعانى) ...... يريد ألا تكون معرفتنا بمسائل البلاغة معرفة الشئ المجمل والتسليم بالأمر المبهم مع الاستسلام لما فى ذلك من غموض وإبهام .

قال الإمام عبد القاهر : (واعلم أنك لا تَشْفِى العِلّة ولا تنتهى إلى ثَلَج اليقين ، حتى تتجاوز حد العلم بالشئ مجملا ، إلى العلم به مفصلا ، وحتى لا يقنعك إلا النظرُ فى زواياه ، والتغلغلُ فى مكامنه ، وحتى تكون كمن تتبع الماء

[1] ينظر التصوير البيانى د . محمد أبو موسى : ص ١٧٣ - ١٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٦٣ - ٣٦٦ .

حتى عَرَفَ مَنْبَعَه ، وانتهى فى البحث عن جوهر العود الذى يُصنَع فيه إلى أن يعرف مَنْبِته ، ومَجْرَى عُروق الشجر الذى هو منه) [1] .

ويحتمل أن يكون مراد الإمام بأجناس المعانى وأنواعها أصول المعانى عند الناس وما يتفرع عنها من صور ، بحيث يكون أصل المعنى (جنسا) وتكون صوره (أنواعاً) له ، فتشبيه الحسناء بالبدر أصل (جنس) ، وصوره عند الشعراء ومعارضه المتنوعة (أنواع) له ؛ وهذا يوسع دائرة المعانى بأجناسها وأنواعها بصورة أكثر وأغزر من حمل (الأجناس والأنواع) فى كلام الإمام على شجرة التقسيمات فى علم البيان من تشبيه واستعارة وكناية ، هى بمنزلة (الأجناس) وما تحت كل منها من صور وفروع يكون بمنزلة (الأنواع) ؛ وذلك لأن ألوان البيان وسائل أداء متناهية ، والمعانى عند الناس لا تتناهى . وقد أفدت هذا الوجه من تحريرات شيخنا الجليل الدكتور صبّاح دراز على مسودة هذا البحث فجزاه الله خيرا ومتعه بالعافية .

تتبع خاص المعانى ومشاعها

والطريق الثالث : تتبع خاص المعانى ومشاعها ، أى معرفة المعانى الخاصة التى هُدِى إليها أقوام فكانت حجراً عليهم ، حراماً على من سواهم ، ومعرفة المعانى المشاعة التى يشترك فيها الناس اشتراكهم فى الهواء يَنْشَقُونه . وهذه المعرفة لا سبيل لها إلا (تتبع) أمر المعانى فى اللغة وطول النظر فيها والبحث عنها فى كل بيان عال ، حتى تجتمع بين يديك أفواجها وأمواجها ، ونفيسها وخسيسها ...

وهذا الضرب من النظر فى أمر المعانى فصله الإمام عبد القاهر فى بيانه الضافى عن غرابة التشبيه والتمثيل ، والفرق بين التشبيه الغريب وغيره ، والعلل التى ترجع إليها الغرابة عند التحقيق والنظر [1] .

---

(1) دلائل الإعجاز : ص ٢٦٠ ت . شاكر .

وسلك المتأخرون هذا الطريق : (تتبـــع المعـــانى ومعرفـــة خاصـــها ومشاعها) فى بحوثهم فى "التشبيه القريب المبتذل والتشبيه البعيد الغريب" [٢] ، وفى " الاستعارة العامية والخاصية " [٣] .

التعرف على مناصب المعانى من العقل

والطريق الرابع : التعرف على مناصب المعانى من العقل . قال الإمـــام عن المعانى المفادة من طريق علم البيان : (وأبين أحوالها فى كرم منصبـــها مـــن العقل ، وتمكنها فى نصابه ، وقُرب رحمها منه ، أو بعدها – حين تُنْسَبُ – عنه) ، وهذه العبارة رسمت للعقل دولة ، فيها آلاف المناصب التى تحتلها المعانى ، فلكل معنى منصبه اللائق به فى العقل ، وعلى قدر كرم المعنى وندرته يكون منصبـــه ، فللمعنى الفذ المنصب الفذ ، وللمعنى الحسن المنصب الحسن ، وللقبيح القبيح ... وهكذا . فالعقل عند الإمام هو الرئيس الذى يولى كل معـــنى الســـلطة الـــتى يستحقها ، أو هو الناقد المتذوق ، البصير بأمر المعانى ، الذى يمسك نفائســـها ويتخير لها من مناصبه أعلاها وأقربها منه وألصقها به ، لتكون منه بمكان قريب ، وجليس أنيس ، يستروح بها ، ويستقى من معينها الفياض حكمـــةً وســـدادا ، فيصدر عنها ؛ لأنه منه بمنـــزلة المستشار الأمين ، أو ذى الرحم الناصح الودود . وهذا معنى (قرب رحم المعانى من العقل أو بعدها عنه) فهى عبارة كاشفة عـــن العلاقة بين العقل والمعانى المستودعة فيه فى مناصبها ، وكيف أن منها ما يقع من العقول فى هوامشها وحواشيها ، ومنها ما يقع فى عين العقل وإنسان الضمير .

---

(١) ينظر أسرار البلاغة ص ١٥٧ ت . شاكر .

(٢) ينظر الإيضاح مع البغية : ٣ / ٥٧ ، ٥٨ .

(٣) ينظر المصدر السابق : ٣ / ١١٦ .

الإمام يبين حياة المعانى حين تسكن العقول ، وتأخذ مناصبها فيها ، هل وفت بحق هذه المناصب ، فازدانت بها الكراسى ، أو ارتقت مرتقى ليست لـه بأهل ، فقصَّرت ، وكانت كراسىّ المناصب أكبر منها ، فانكشف عوارها ؟

وجَعْلُ المعانى فى مناصبها أرحاماً للعقول ،لكل رحم منها درجة قرابته ، فمنها الرحم القريب ، ومنها الأقرب ، ومنها البعيد ، ومنـها الأبعـد – مما يكشف عن عمق الفكرة عند الإمام ، وحسن تأتيه لها ، وكشفه النقاب عنها .

وقول الإمام : (واعلم أن غرضى من هذا الكلام الـذى ابتدأتـه ، والأساس الذى وضعته ، أن أتوصل إلى بيان أمر المعانى ...... إلخ) يصور حرصه على المعانى فى دراسة الصور البيانية ، ويحذر من الانخداع ببوارق الصور وحسن مناظرها عن معرفة المعنى معرفة تامة على النحو الذى وصف .

وذكر شيخنا العلامة الدكتور محمد أبو موسى – أجـرى الله ينـابيع الحكمة على لسانه – أن هذا النص من غوامض كتاب " أسرار البلاغة " ، وأن الإمام عبد القاهر (فتح به باب دراسة المعانى وهو يعرف بمقصوده من كتابـه فتحا يثير أشواق النفس إليها ؛ لأن دراسة المعانى من هذه الزاوية التى ذكرهـا دراسة نادرة ، مع أنها مهمة ، وليس أشق ، ولا أغمض ، ولا أمتع من النظر فى المعانى) [1] .

وقد مر فى صدر هذا البحث أن تعريف علم البيان عنـد المتـأخرين مستنبط من نص الإمام ؛ لأنهم قصدوا فيه إلى الطرق المختلفة الكاشـفة عـن المعنى ، وهذا عين ما قصد الإمام من العناية (بأمر المعانى) ، فـالطرق المختلفـة عندهم ناظرة إلى قول الإمام فى شأن المعانى (كيف تختلف وتتفق ، ومـن أيـن تجتمع وتفترق ......) .

---

(١) مدخل إلى كتابي عبد القاهر د . محمد أبو موسى : ص ١٥٠ نشر مكتبة وهبة ط . أولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .

وضوح الدلالة لا يعنى السطحية

و (وضوح الدلالة على المعنى) – وهو المقصد من دراسة علم البيان عند المتأخرين – لا يعنى سطحية الأسلوب ، وأن أوضح الأساليب دلالة على المعنى أقربها وأسهلها وأبسطها ، وأن الأسلوب إذا كان بهذه الصفة كان المشهود له بالنبوغ فى سماء هذا الفن والتألق ، والمحكوم له بالجودة والحسن ، وأن ما دونه فى ذلك ، دونه فى الرتبة ...... ليس هذا مرادهم بالقطع ؛ وإلا لصار أدنى طرق التعبير عن المعنى هو أعلاها وأغلاها ، ولفاق كلام العامة كلام الخاصة .

وإنما يعنى وضوح الدلالة على المعنى أن تستوفى العبارة تفاصيله ، وتتعمق أعماقه ، وتسبر أغواره ، وتلتقط جواهره ، فأىّ سبل البيان كان أوفى بذلك ، وأنطق بأسرار النفس ، وأجمع لشوارد المعنى ، كان بالمعنى ابر ، وبوصف البيان أولى وأجدر .

ومن أجل هذا نرى البلاغيين يفضلون التفصيل فى التشبيه مع أنه محوج إلى الفكرة والنظر ؛ وما ذاك إلا لأنه ينير كثيرا من جوانب المعانى ويكشف الخباء عنها ، فكان أوضح دلالة عليها ، قال الإمام عبد القاهر : (ويتفاوت الحال فى الحاجة إلى الفكر بحسب مكان الوصف ومرتبته من حد الجملة وحد التفصيل ، وكلما كان أوغل فى التفصيل ، كانت الحاجة إلى التوقف والتذكر أكثر ، والفقر إلى التأمل والتمهُّل أشد ...... وعلى هذا تجد هذا الحد من المرتبة التى لا يستوى فيها البليدُ والذكىُّ ، والمهمِلُ نفسَه والمتيقظُ المستعدُ للفكر والتصوّر) [1] .

([1]) أسرار البلاغة : ص ١٦١ ، ١٦٢ ت شاكر ، بتصرف .

فوضوح الدلالة إذن لا يعنى أن تكون طافية ظاهرة غـــير محوجــة إلى إعمال الفكر وبذل الجهد ، وإنما يعنى أن تبدى العبارة تفاصيل المعنى ، وتنــير محاسنه ، وتفصح عن ضميره ، وإن أحوج ذلك إلى الفكر والنظر وبذل الجهد .

شراح التلخيص نظروا إلى وضوح الدلالة على المعنى بالنسبة للمخاطب

ولشراح التلخيص فى " وضوح الدلالة على المعنى " هنا وجه آخـــر ، حيث إنهم نظروا إلى وضوح المعنى وخفاؤه بالنسبة للمخاطب ودرجـــة وعيـــه وإدراكه ، فيخاطب بأوضح طرق البيان - يعنى بأسهلها وأقربهـا إلى الإدراك - من لا يفهم بغير ذلك الطريق ، فيجمع له فى التشبيه مثلاً جميع الأركان ، فيقال له فى وصف محمد بالجود : " محمد كالبحر فى السخاء " ، فـــإن عــلا إدراك المخاطب ووعيه درجة حُذِف له الوجه ، فقيل : " محمد كالبحر " ، فإن عـــلا درجة أخرى حذفت له الأداة ، فقيل : " محمد بحر " ...... وهكـــذا فى ســائر طرق البيان ، ينبغى أن يراعى حال المخاطب ودرجة إدراكه ووعيه ، فيخاطبــه بالأوضح فالواضح فالخفى فالأخفى [1] ، وهذا برٌّ من المتكلم بمـــن يخاطبـــه ، وتودد إليه ، ومراعاة لمقتضى حاله ، حتى يؤتى الكلام ثماره ، وقـــد أُمِرنـــا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم حتى يفهم الجميع ، ولو أخطأ المبين ذلك الأصل من أصول البيان لأصيبت مقاتله ، وصار كمن ينعق بما لا يسمع ، فأتعب نفسه وعمل فى غير معمل ، وقال الخطابى (ت٣٨٨ هــ) من قبل : (ومواقع البلاغة معتبرة لمواضعها من الحاجة) [2] .

* * *

---

(1) ينظر شروح التلخيص : ٣ / ٢٥٨ - ٢٦١ .

(2) بيان إعجاز القرآن لأبى سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى : ص ٥٣ ضمن ثـلاث رسـائل فى إعجاز القرآن ت. محمد خلف الله و د / محمد زغلول سلام ، ط . دار المعارف ط . ثانية ١٣٨٧ هــ / ١٩٦٨ م .

المعانى أمام صنعة البيان قسمان :

ربط أقدار المعانى بأقدار الناس والجواهر

ولقول الإمام عبد القاهر : (واعلم أن غرضى فى هذا الكلام الذى ابتدأته ......) بقية قسم فيها المعانى أمام صنعة البيان من تشبيه ومجاز وكناية قسمين ، ربط فيهما أقدار المعانى بأقدار الناس وأقدار الجواهر ، وضرب بهذا مثلا للدارس الموفق الذى ينبغى أن يكون خبيراً باللغة ، رابطا بينها وبين الناس وصنائعهم وأحوالهم ؛ لأنها منهم ، وأن يكون ذا حسٍّ بالحياة وأحداثها وتقلبها بأهليها ، فقال : (وإن من الكلام ما هو كما هو شريف فى جوهره كالذهب الإبريز الذى تختلف عليه الصور وتتعاقب عليه الصناعات ، وجُلُّ المعوَّل فى شرفه على ذاته ، وإن كان التصوير قد يزيد فى قيمته ويرفع من قدره ، ومنه ما هو كالمصنوعات العجيبة من مواد غير شريفة ، فلها = ما دامت الصورةُ محفوظةً عليها لم تنتقص ، وأثر الصنعة باقيا معها لم يبطل = [1] قيمةٌ تغلو ، ومنزلة تعلو ، وللرغبات إليها انصباب ، وللنفوس بها إعجاب ، حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها ، وضامت الحادثات أربابها ، وفَجَعَتْهم فيها بما يَسلُبها حُسنَها المكتسبَ بالصنعة ، وجمالَها المستفادَ من طريق العرض ، فلم يبق إلا المادةُ العاريةُ من التصوير ، والطِّينَةُ الخاليةُ من التشكيل = [2] سقطت قيمتُها ، وانحطت رُتْبَتُها ، وعادت الرغباتُ التى كانت فيها زُهداً ، وأوسعتها عيون كانت تطمح إليها إعراضا دونها وصدا ، وصارت كمن أحظاه الجد بغير فضل كان يرجع إليه فى نفسه [3] ،

---

(1) السياق : " فلها ...... قيمة تغلو " عن حاشية التحقيق .

(2) (السياق : " حتى إذا خانت الأيام فيها أصحابها ...... سقطت قيمتها) . والجمل بينهما عطف على الأولى (عن حاشية المحقق) .

(3) (أحظاه : جعل له حظوة ، من الجد ، أى الحظ) [السابق]

وقدمه البختُ من غير معنى يقضى بتقدُّمه ، ثم أفاق فيه الدهر عن رقدته ، وتنبه لغلطته ، فأعاده إلى دِقَّةِ أصله [1] ، وقِلّة فضله) [2] .

وفى هذا النص قسم الإمام المعانى بجميع أنواعها أمام صنعة البيان بما فيها من تشبيه ومجاز وكناية قسمين لا ثالث لهما :

القسم الأول : هو المعنى الشريف النفيس ، الذى يُعوَّل فى شرفه على ذاته ومعدنه الأصيل ، فهو فى ذاته له وزنه وقيمته وشرفه ، فإذا ما مسته صنعة البيان ، ودخله سحر التصوير ، فجرت فيه أنهار التشبيه والتمثيل ، وتلاطمت فيه أمواج الاستعارة والتخييل ، وسمت بأنفاسه نسائم الكناية والتعريض – زادته شرفا وفضلا ، ورفعت قدره ، وجعلته فى الحسن آية ، وفى الروعة والجمال مثالا . وحالُ هذا المعنى مع الصورة حالُ النبيل الكريم ، زادته عطية الملك نبلا وكرما ، وأنبهت ذكره ، وما كان خاملا ، كما قال أبو نُخَيلة فى مسلمة بن عبد الملك :

وأَنْبَهْتَ لى ذِكْرِى ، وما كان خَاملاً ،
ولكنَّ بعضَ الذّكرِ أنْبَهُ من بعضِ [3]

وقد قرن الإمام هذا القسم من المعانى بـ (الذهب الإبريز) أى : الخالص ، الذى تختلف عليه الصور ، وتتعاقب عليه الصناعات فتزيد قيمته ، وترفع قدره ، ولو محيت هذه الصور محوا ، وطمس أثر الصناعات من الذهب طمسا ، لم يَترِدَّ ذلك به بحيث يصير خسيسا وضيعا ، بل يعود إلى سيرته الأولى ، وتبقى له نفاسته العتيقة وشرفه الأصيل ، ومعدِنه الحر .

---

(1) (الدقة : مصدر الشئ الدقيق ، أى الحقير الخسيس الدنئ) [المصدر السابق] .

(2) أسرار البلاغة : ص ٢٦ ، ٢٧ ت . شاكر .

(3) البيت فى دلائل الإعجاز : ص ٤٨٤ ت . شاكر .

والقسم الثانى : هو المعنى غير الشريف ، الذى إذا جرى فيه سحر البيان محاخسته وألحقه بعجائب المصنوعات ، وبدائع الأفكار ، فغلت قيمته وعلا قدره ، وانفضت إليه أفواج من الناس ، ورغبوا فيه ، غافلين عن أصله ، ذاهلين عن خسته ، غير ناظرين إلا إلى زينته ، فكان كقارون حين بغى (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)[1] ، ففتن به من شغلوا بعرض الدنيا ، والتفوا حواليه ، وأقاموا حياهم وسلوكهم على أنواره الضالة ، وبوارقه الخادعة ، ونصبوه إماما .

أما أهل اليقين والتحقيق ، العارفون بمقادير المعانى وحقائقها ، فلم يخدعهم السراب العارض ، ولا البرق الخُلَّب ، بل كشفوا ما وراءه من الزيف والخسة ببصيرة نافذة وحسٍّ بيانى رهيف ، حتى أثبتت الأيام صدق يقينهم ، ودقة تحقيقهم ، حين محصت هذا المعنى فزلزلت أركانه ، حتى سقط عنه قناع الزيف ، ثم إنها زلزلت مع المعنى المزيف أصحابه الذين آمنوا به واتخذوه إماما ؛ ولذا قال الإمام (حتى خانت الأيام فيها أصحابها...) ، وكأن الأيام تخادع أصحابها عن حقائق المعانى فتسترها عنهم ، ولو استقامت فطر الناس استقامت أيامهم واستقامت معانيهم ؛ لأن المعانى هى حلقة الوصل بين الأيام والأصحاب ؛ فإذا أحسن الأصحاب عشرة الأيام وصحبتها وفت فى الكشف عن حقائق المعانى وزيوفها ، وإلا خانتهم وخادعتهم ، حتى تحطم الحادثات أسوار هذا الوهم ، فتنهار المعانى الزائفة التى كوَّنت فى حياة الناس (مبادئ زائفة) وحُلىً مستعارة .

وتأمل قول الإمام فى النص السابق : (ثم أفاق فيه الدهر عن رقدته ، وتنبه لغلطته ، فأعاده إلى دقة أصله ، وقلة فضله) ، وتأمل (ثم) و (الفاء) فى كلامه ، وما توحى به الأولى من تراخ طال زمنه حتى نام الدهر واسترخى وغط

---

[1] سورة القصص : ٧٩ .

فى رقدته ، وترك الناس فى خداع زيوف المعانى والمبادئ ، وحُلَى الصور الفارغة التى تصول وتجول فى غير ميدان ، وتملأ الأفواه ببلاغة الأفواه لا ببلاغة القلوب . وهذه الرقدة هى التى تفسر (خيانة الأيام) فى الجملة السابقة . وأما (الفاء) ففيها السرعة ، وكأن إعادة الدهر تلك المعانى الزائفة إلى أصلها من الخسة والضعة كانت على الفور ، فلم تمهلها الأيام بعد ما تنبهت لغلطتها !!

المعنى الشريف والمعنى الخسيس

ولكن ، ماذا يعنى الإمام بالمعنى الشريف والمعنى الخسيس ؟

أذكر فى الجواب عن هذا السؤال كلمة لشيخنا الدكتور محمد أبو موسى ، جرى بها لسانه فى إحدى المحاضرات ، ولم أقف عليها فى إحدى كتبه ، جمع فيها كل ما تمتم العاجز به حول هذا النص وزيادة ، قال : (إن من الشعر عناصر هى جيدة فى ذاتها ، سواء أفردت وحدها ، أو ضامَّها غيرها ، وهى كالمعدن النفيس : كالمعانى الحِكْمِيَّة ، والآداب ، والمعانى التى هى من المنطق الحكيم ، فالمعانى الرائعة حسنة وإن أفردت . وهناك من عناصر الشعر عناصر لا يظهر حسنها إلا فى سياقٍ وصنعةٍ تُكْسِبُها حسنا وبهاء ، فإذا عَريت من هذا السياق ، أو من هذه الصنعة ، صار حالها حال الوضيع الذى اكتسب النباهة لعارض من العوارض . وهكذا يربط الإمام معانى اللغة بمعانى الحياة والناس ، فهناك رجال شرفهم لذواتهم ، ورجال شرفهم لعوارض أخرى) انتهى كلامه .

ولعل مما يلحق بالمعنى الشريف تلك المعانى النادرة التى لا تقتنصها إلا أفهام المُلْهَمين المحدَّثين ، وهى المعانى الأبكار ، فهى شريفة فى ذاتها ، فإذا ما مستها يد التصوير جن جنونها .

ولعل مما يلحق بالمعنى غير الشريف تلك المعانى المستهلكة التى مجتها الألسنة وسئمتها العقول ، فإذا حركتها يد المبين ومسها سحره عادلها أثرها النافذ ، وإذا ما نزع عنها ذلك السحر رجعت خاملة كما كانت .

دراسة علم البيان على نحو ما وصف الإمام أمر صعب جدا .

ودراسة علم البيان على هذا النحو الذى رامه الإمام وجعله (الغرض) من كتابه (أسرار البلاغة) أمر صعب جدا ، وقد أقر الإمام نفسه بذلك ، فقال : (وهذا غرض لا يُنَالُ على وجهه ، وطَلِبَةٌ لا تُدْرَك كما ينبغى ، إلا بعد مقدمات تقدم ، وأصول تُمَهَّد ، وأشياءَ هى كالأدوات فيه حقُّها أن تُجمع ، وضروب من القول هى كالمسافات دونه يجب أن يُسَار فيها بالفكر وتُقْطَع) [١] ، ثم جعل الإمام التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز هى المقدمات التى تقدم ، والأصول التى تمهد بين يدى التوصل إلى (أمر المعانى : كيف تختلف وتتفق ، ومن أين تجتمع وتفترق ...... إلخ) ، وجعل هذه الأبواب هى (المسافات) التى يجب أن يقطعها الفكر حتى يصل إلى أنوار المعانى وجواهرها ، ويرى رأى العين اختلافها واتفاقها ، وخاصها ومشاعها .... إلخ [٢] ؛ وهذا يعنى أن الفكر إذا وقف فى طريق من طرقات التشبيه فشغل به : بأداته أو طرفيه ، أو وجهه ، أو حسيته أو عقليته ، ولم يقطع (المسافة) إلى صلب المعنى ، ليبدأ البحث فيه عن الأغراض التى ذكرها الإمام ، فقد وقف على سطح البحر ولم يغص عما فى قاعه من كنوز وعالم ملئ بالسحر !!

---

(١) أسرار البلاغة : ص ٢٧ ت . شاكر .

(٢) ينظر مدخل إلى كتابى عبد القاهر : ص ١٤٩ – ١٥٣ .

صور البيان أقطاب تدور عليها المعانى :

قال الإمام عبد القاهر وهو يستوفى (غرضه) من تأليف (أسرار البلاغة) بعدما ربط أقدار المعانى بأقدار الناس والجواهر : (وأوَّلُ ذلك وأولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصَّاه ، القولُ على التشبيه والتمثيل والاستعارة ؛ فإن هذه أصولٌ كبيرةٌ ، كأن جُلَّ محاسن الكلام - إن لم نقل : كلَّها - متفرعةٌ عنها ، وراجعةٌ إليها ، وكأنها أقطابٌ تدورُ عليها المعانى فى مُتَصَرَّفاتها ، وأقطارٌ تحيط بها من جهاتها) [1] .

استهلال الإمام الدرس البلاغى بمسائل البيان واستهلال المتأخرين بمسائل المعانى

واستهلال الإمام درسه البلاغى بالتشبيه والتمثيل والاستعارة أمر يستوقف النظر ؛ لأن خَلَفه من علماء (مدرسة المتأخرين) ساروا على خلاف ذلك ، فاستهلوا الدرس البلاغى بعلم المعانى ثم أردفوه بعلم البيان ، فما النظر الذى بدا لهم فى منهج الإمام حتى خالفوه ؟ وما العلة التى من أجلها قدم الإمام فى رحلته مع التأليف البلاغى مسائل ما سمى بعده بـ (علم البيان) ؟

أما تعليل الإمام لمنهجه فظاهر ؛ لأنه لما جعل الغرض من كتابه - بل والغرض من دراسة البلاغة كلها - (بيان أمر المعانى) قدَّم التشبيه والتمثيل والاستعارة ؛ لأنها (أقطاب تدور عليها المعانى) ؛ فهى رأس الأمر فيها ؛ ولذلك قدمها ، وأردفها بما فى (دلائل الإعجاز) من مسائل الحذف والذكر والتقديم والتأخير والقصر والفصل والوصل ... إلخ وكأنها فى مراتب الكشف عن (أمر المعانى) تقع فى المرتبة الثانية بعد (مسائل علم البيان) ، ثم أحاط ذلك كله بأسوار (النظم) الذى تسبح فى فلكه مسائل البلاغة كلها فى الكتابين ؛ ولذلك غرس الكلام على النظم فى أول (أسرار البلاغة) وجعل

البلاغة فى كتابى الإمام تسبح فى فلك النظم

---

(1) أسرار البلاغة : ص ٢٧ ت . شاكر .

مسائل الكتاب كله نابتة منه وقائمة عليه ، قال فى صدر الكتاب : (والألفاظ لا تفيد حتى تؤلّف ضربا خاصا من التأليف ، ويُعْمَدَ بها إلى وجه دون وجه من التركيب والتأليف) [1] ، ثم عمد إلى مطلع معلقة امرئ القيس (قفا نبك) وبين أنك لو فككت نظمه ، وأحلته مفردات لم تحصل منه على فائدة ، وكنت قد (أسقطتَ نسبتَه من صاحبه ، وقطعت الرحمَ بينه وبين مُنْشِئه ، بل أحلتَ أن يكون له إضافةٌ إلى قائل ، ونَسَبٌ يختص بمتكلم) [2] ، وصنع مثل ذلك فى (دلائل الإعجاز) ، وإن كان صنيعه فى الدلائل أبين وأظهر ؛ لأنه هناك أطال النفس ، وأفاض فى قضية (النظم) ، وهذا بيِّن لا يخفى [3] .

وأما مخالفة (مدرسة المتأخرين) من علماء البلاغة بتقديم (علم المعانى) فمردها إلى قول أبى يعقوب السكاكى (ت ٦٢٦هـ) : (لما كان علم البيان شعبة من علم المعانى لا تنفصل عنه بزيادة اعتبار ، جرى منه مجرى المركب من المفرد ، لا جرم آثرنا تأخيره) [4] ، وسار الخطيب القزوينى وشراح تلخيصه فى فلك أبى يعقوب ، فجعلوا علم المعانى كالمفرد ، وعلم البيان كالمركب ، ولابد لمعرفة المركب من التقديم بين يديه بمعرفة مفرداته [5] .

منهجان أصيلان فى الفكر

ومع المخالفة يبقى منهج الإمامين الجليلين عبد القاهر والسكاكى طريقين كبيرين وأصلين عظيمين فى الفكر ، فطريق الإمام عبد القاهر يبدأ

---

(1) أسرار البلاغة : ص ٤ ت . شاكر .

(2) أسرار البلاغة : ص ٥ ت . شاكر .

(3) ينظر دلائل الإعجاز : ص ٨٠ – ١٠٥ ت . شاكر .

(4) مفتاح العلوم لأبى يعقوب السكاكى : ص ١٦٢ بتعليق نعيم زرزور ط . دار الكتب العلمية ط . ثانية ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

(5) ينظر شروح التلخيص : ١ / ١٥١ – ١٥٧ ، ٣ / ٢٥٦ – ٢٦٢ .

بالأصول والأقطاب من مسائل الفن التى يكون ما بعدها تبعا لها ، ثم يتـــدرج نازلاً من الأصول إلى جزئياتها المكونة لمادتها ، ولاشك فى أن هذا منحى أصيـــل فى نشأة العلوم وارتقائها ، وهو أليق بحال الباحث الناضج ، الذى يبدأ بـــالنظر فى الأصول والمسلمات فى كل علم وفن ، ثم تهديه هذه الأصول والمسلمات – إذا هو أخلص وأطال سَفَر الخاطر – إلى دقائق فى جزئياتها وعناصرها ، فالخبرة بالأمر الجزئى الدقيق مرحلة متأخرة فى تاريخ العلوم ، تحتاج إلى خبرة واسعة ، ونظر ثاقب ؛ ولذا قدم الإمام مسائل " التشبيه ، والتمثيل ، والاستعارة " على ما سُمِّى بعد بـــ (علم المعانى) ؛ لأن مسائلَ الأخير تحتاج إلى مزيد أناة ورويَّـــة ؛ ولذا كان النظر فى مسائل علم المعانى شاقا وصعبا إلا على من عشق ، وأراد أن يصل إلى السر وراء كل حرف وخلف كل كلمة ؛ لأن الحروف والكلمات هما النواة الأولى التى تنتهى إليها كبار المعانى وأصولها وأقطابها ، ومثل الســـالك فى هذا المنهج كمثل رجل وفد على حديقة غناء ، ذات خضرة وقصور ، فمتـــع ناظريه بروعة المنظر فى جملته ، وعرف موقع كل قسم من جمال هذا المنظـــر ، ثم نظر فى كل قسم فأحصى عناصره ، فعرف من الزهر خمائله ، ومـــن الخميلـــة جنسها ونوعها وماءها ، وهكذا ، حتى دلف إلى القصور فلم يهدأ حتى فتـــح أبوابها وأبواب غرفها بابا بابا ، فاستوفى الجمال من أقطاره ، وحظى بالإمتاع من شتى نواحيه .

وطريق أبى يعقوب له منحى أصيل ، وهو بحال الناشئ المتعلم أنســـب ؛ حيث إن المتعلم ينشأ أولاً على العلم بالحروف والأبجديـــــات ، ثم يرتقـــى إلى الكلمات المفردات ، فالجمل المركبات ، فالصور العامة ؛ ولذا بدأ أبو يعقـــوب بعلم المعانى ، بل إنه راعى التدرج فى باطن هذا العلم ، فبدا بأحوال المفرد مـــن

ذكر وحذف ، وتعريف وتنكير ، وتقديم وتأخير ...... إلخ ، ثم ترقى إلى دراسة أحوال الجملة من حيث بناؤها على أسلوب خبرى أو إنشائى ، ومجيؤها على طريق القصر ، ثم ترقى إلى دراسة أحوال الجمل فى بابى الفصل والوصل والإيجاز والإطناب ، وجعل علم المعانى كله كأنه (كلمة مفردة) فى بحر علم البيان ؛ ولذا نزل المعانى من البيان منزلة المفرد من المركب ، ومثل سالك هذا المنهج كمثل وليد صغير أستهل صارخا ، فلما نطق تمتم بحروف ، ثم بكلمات ، ثم بجمل ، فلما شب عن الطوق واتسعت مداركه فتحت له أبواب الكلام والمعانى فصال وجال .

منهج السكاكى أبر بالنشء والمتعلمين ، ومنهج عبد القاهر أبر بالباحثين المؤهلين

ولاشك فى أن منهج أبى يعقوب السكاكى أبر بالنشء والمتعلمين وأرفق بهم ، وأن جدواه فى مجال التعليم وتحصيل مسائل العلم مما لا يكاد ينكره منصف ، كما أن منهج الإمام عبد القاهر أبر وأجدر بمن شبوا عن الطوق وبلغوا مبلغ الرجال فى الفكر واستواء العقل ، وهو أقرب رحمى إلى الباحثين المؤهَّلين ، ومن لهم توق إلى أن تفتح لهم مغاليق هذا العلم وأسراره ، فيفطمون من كتب أبى يعقوب والخطيب وشراح تلخيصه على كتابى عبد القاهر ، بعدما أُسِّسُوا وغُذُّوا ، وإن بقى استمدادهم من دفء ثقافتهم الأولى كحنينهم أبداً لأول منزل .

وقد أصاب العلامة محمود شاكر – طيب الله ثراه – كبد الحقيقة ، وطبّق المَفْصِل ، حين قال : (وكتابا عبد القاهر : " أسرار البلاغة " و " دلائل الإعجاز " ، أصلان جليلان فى البلاغة ، لم يسبقهما سابقٌ ممن كتبَ فى البلاغة ، وهما ككتاب " سيبويه " بل أشد صعوبة ، فمن أراد اليوم أن يرد الناس عن كتب المبرد ومن بعده إلى ابن عقيل ، إلى ابن هشام إلى الأشمونى ، ويحثهم على

استمداد النحو من " سيبويه " وحدَه ، فقد أغراهم بأن يلقوا بأنفسهم فى بحر لجىّ لا يرى راكبُه شاطئا يأوى إليه ، وما هو إلا الغرق لا غير . كتاب " سيبويه " لا يعلم طالب العلم النحوَ ، إلا إذا مهَّدَ له الطريقَ ابنُ عقيل وابن هشام والأشمونى ، وإلا فقد قذف نفسَه فى المهالك " [1] .

كيف تكون صور البيان أقطابا تدور عليها المعانى ؟

وقول الإمام عبد القاهر عن التشبيه والتمثيل والاستعارة فى فاتحة " أسرار البلاغة " إنها (أصولٌ كبيرةٌ ، كأن جُلَّ محاسنِ الكلام – إن لم نقل : كلَّها – متفرعةٌ عنها ، وراجعةٌ إليها ، وكأنها أقطابٌ تدورُ عليها المعانى فى مُتَصرَّفاتها ، وأقطارٌ تُحيطُ بها من جهاتها) [2] كلام من حقق ، وأطال سفر الخاطر ، بحثا عن الدقائق ، وتوقاً إلى معرفة اللطائف ، على حدِّ وصفه هو [3] ، وليس كلام من أثنى على هذه الفنون فبالغ فى الثناء ، وأطرى حتى غالى فى الإطراء ؛ فقد أجلس مسائل هذا العلم على عرش البلاغة حين جعلها (أقطابا تدور عليها المعانى فى متصرفاتها) ، و (قطب القوم : سيدهم الذى يدور عليه أمرُهم) [4] ، فكأن أزِمَّة المعانى مجموعة فى أيدى هذه الفنون ، فهى تتصرف فيها كيف تشاء بحكمة السيد الشريف فى قومه ، المطاع فى أمره ونهيه .

وتأمَّل أىَّ قصيدة قامت على أطراف من فنون علم البيان ، واستقص ملاك المحاسن فى القصيدة ، والجواهر التى تعد فيها عدّاً ، فإنك ستجد هذه الفنون هنالك ، وتعلم أنها قد استحوذت على ذلك ، وأن غيرها من أساليب اللغة لا يرقى فى هذا الأفق رقيها ، ولا يسمو سموها ، فكأنه تبع لها وخدم .

---

(1) مقدمة تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر لأسرار البلاغة : ص ٢٧ .

(2) أسرار البلاغة : ص ٢٧ ت . شاكر .

(3) ينظر أسرار البلاغة : ص ٢٨ ت . شاكر .

(4) مختار الصحاح للرازى : (ق ط ب) ط . مصطفى الحلبى ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ .

نمط من البحث في الصور البيانية لم نوفه حقه

وهذا نمط من البحث لم نوفه حقه من العناية والتقصِّى ، مع أنه (أول ما يجب على الدارس وأولاه) ؛ ولذا استهل الإمام النص السابق بقوله (وأول ذلك وأولاه ، وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه) ، فدرسنا الصور البيانية الرائعة ، ووقفنا مع ما فيها من جواهر هذه الفنون وحللناها ولكنا قصَّرنا فى البحث عن تصرفها فى أساليب الكلام و (تفرع) المحاسن فى النص كله عنها ، وابتدائها منها ، وانتهائها إليها ، وهذا ما دعا إليه الإمام لننظر إلى النص كله على أنه وحدة واحدة، ونحدد أصوله التى يقوم عليها، وفروعه التى تتفرع عنها .

لم نوف هذا النمط من الدراسة حقه – إلا فى القليل مما كتبه الأساتذة الأثبات – فبترنا (الصور البيانية) عن سياقها ، ودرسناها مفردة ، فغاب عنا أثمن ما فيها وأعزه ، وهو النظر فى كونها معاقد للحسن فى النصوص ، وأصول المعانى وأقطابها . وبهذا رجعنا من دراستنا بمحصول نظن أنه (كل شئ) فى تلك الصور ، وهو فى الحقيقة (غيض من فيض) ، وحروف تتمتم بأطيافٍ من خزائن المعانى ، وفى الخزائن باقٍ يطلب الباقى .

صعوبة تطبيق هذا النمط

ولو أن الإمام عبد القاهر عالج نصاً كاملاً [1] معالجة تكشف علاقة الصور البيانية فيه بحركة المعنى فى النص ، على النحو الذى وصف ، لشفى

([1]) ورد فى ترجمة الإمام فى كتب التراجم أنه له كتاب " شرح الفاتحة " فى مجلد (ينظر كتاب " عبد القاهر الجرجانى " د / أحمد بدوى ط . وزارة الإرشاد القومى ، سلسلة أعلام العرب : ص ٤٣) ، ولو وصل إلينا الكتاب لسد ثغرة كبيرة أباحت وصم دراسته للبلاغة بأنها دراسة جزئية لم تخرج عن نطاق (الجملة) ولم تسم إلى روح النص الكامل .. ولو وصلنا الكتاب لأغنى بما فيه – فى أغلب الظن – من تطبيقات متكاملة عن كثير من الحدس والتخمين فى سلوك المنهج الذى وصف الإمام فى التذوق والدراسة البلاغية ، فشفى واشتفى ، وقطع قول كل خطيب . ومما يومى إلى أهمية هذا الكتاب المفقود (شرح الفاتحة) أنه كان من أبرز الدواعى إلى تصنيف الإمام بين طبقات المفسرين ، يقول الدكتور أحمد بدوى : (وبشرحه للفاتحة ، وحديثه الطويل عن إعجاز القرآن ، وضع بين طبقات المفسرين ، فرأينا محمد بن على الداودى – من علماء القرن العاشر الهجرى – يترجم له فى طبقاته) . [عبد القاهر الجرجانى د / أحمد بدوى : ص ٢٦] .

واشتفى ، ولكنه ترك ذلك وتركنا معه نحاول أن نصل إلى تطبيق ذلك المنهج فنخطئ ونصيب .

ومما قد يعكر على الإمام صفو وصفه الذى وصف ، ويغرى على القول بفساد هذا النمط من الدرس البلاغى أن يقال : إن محاسن الكلام ليست رهينة بفنون علم البيان : من تشبيه ومجاز وكناية ؛ لأننا نرى الكلام العالى يخلو منها ومع ذلك يرتقى فى طبقات الحسن حتى يحلق فى آفاق الإعجاز ، واقرأ إن شئت (سورة العصر) أو (سورة الكافرون) أو (سورة الإخلاص) ، فقد أَفَلَت شمس هذه الفنون من سماء تلك السور الكريمة ، وهى ما هى فى البلاغة والإعجاز ؛ فليس الأمر على ما وصف الإمام !!

محاسن الكلام ليست رهينة بفنون علم البيان

وهذا النظر سديد ؛ لأن البلاغة ليست حكراً على أسلوب دون أسلوب ، أو علم من علومها دون علم ، ولكنه مع سداده لا يرد على وصف الإمام ولا يعكر صفوه ؛ لأن الإمام وسم فنون التشبيه والمجاز والكناية بما وسم ، وأحلَّها منازلها التى ذكر ، حين تجتمع مع غيرها فى نسق ، فيكون لغيرها محاسن ، ويكون لها محاسن ، فتكون محاسن غيرها متفرعة عنها ، وموصولة بأسبابها ، ولم يتعرض الإمام لشأن الكلام حين يخلو من هذه الفنون .

تحقيق المنهج فى دراسة علم البيان :

أرسى الإمام عبد القاهر قواعد المنهج فى دراسة علم البيان من تشبيه وتمثيل واستعارة ، وهو صالح للتطبيق على البلاغة كلها ، بل وعلى غيرها من العلوم ؛ لأنه منهج فى التفكير العلمى كله ، قال الإمام عن هذه الفنون :

منهج فى التفكير العلمى

(ولا يَقْنَعُ طالب التحقيق أن يقتصر فيها على أمثلة تُذكر ، ونظائرَ تُعَدُّ ، نحو أن يقال : " الاستعارة " مثل قولهم " الفكرة مخُ العمل " ، وقوله :

وعُرِّىَ أفراسُ الصِّبا ورَوَاحِلُهْ

وقوله : " السَّفرُ ميزان القوم " ، وقول الأعرابى : " كانوا إذا اصطفُّوا سَفَرت بينهم السهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف فَغَر الحِمَام " و " التمثيل " كقوله :

فإنك كالليل الذى هو مدركى

ويؤتى بأمثلة = إذا حقق النظر = كالأشياء يجمعها الاسم الأعم ، وينفرد كل منها بخاصة ، من لم يقف عليها كان قصير الهمة فى طلب الحقائق ، ضعيف المنة فى البحث عن الدقائق ، قليل التوق إلى معرفة اللطائف ، يرضى بالجمل والظواهر ، ويرى أن لا يطيل سفر الخاطر . ولعمرى إن ذلك أروح للنفس ، وأقل للشغل ، إلا أن من طلب الراحة ما يعقب تعبا ، ومن اختيار ما تقل معه الكلفة ما يفضى إلى أشد الكلفة ......) [1] .

آفات مهلكات تصيب عقول الباحثين

والإمام فى هذا النص ينأى بطالب المعرفة عن " السطحية " و "الغفلة" ، وعن أن يكون " قصير الهمة فى طلب الحقائق " وغير ذلك من الأمراض والآفات المهلكات التى تصيب عقول الباحثين ، فتقعد بهم عن جوهر البحث وتقف بهم على شاطئه ، موهمة إياهم أنهم مخروا عبابه ، وغاصوا لججه ، وتعبوا ، وقد آن لهم أن يستريحوا من هذا العناء !! وهكذا تزيف الحقائق ، وتسترق أعمار الباحثين ، ويا ضيعة العلم !!

" المعرفة " - كما نبه الإمام - سبيلها الجد ، فلا تنال مع الراحة والدعة وإيثار السلامة ، وإلا لكان أشقى الناس هم المخلصون الجادون من العلماء ، الذين وصلوا الليل بالنهار فى طلب الحقائق ، وسافروا بخواطرهم وعقولهم فأطالوا السفر .

---

(1) أسرار البلاغة : ص ٢٧ ، ٢٨ ت . شاكر .

منهج الإمام يقوم على (طلب التحقيق) ؛ ولذا يرفض النظرة العَجْلَى التى تقنع (بالجمل والظواهر) ، ويبحث فى الأشياء عن دقائقها ، فلا يقنع بالتوصل إلى أن هذا تشبيه أو تمثيل أو استعارة ، حتى يضع يده فى كل تشبيه على سويداء قلبه ، ويعرف أصوله وشعبه ، ومقدار الخُطَى التى قطعها المتكلم حين ضم عناصر الصورة ، وجمع المشئم مع المعرق ، ويعرف المعانى الرابضة خلف التشبيه ، وهكذا يبحث فى كل تشبيه حتى تصير التشبيهات عنده (كالأشياء يجمعها الاسم الأعم ، وينفرد كل منها بخاصَّة) ، واكتشاف هذه الخاصّة التى ينفرد بها كل تشبيه هو جوهر منهج الإمام ، وهو هدفه الذى يسعى إليه ويجتهد فى تحصيله فى كل ما يدرس .

طلب التحقيق هو أول طريق المعرفة

وهذا يحتاج إلى (طول الهمة فى طلب الحقائق) ، فلا ينال هذه الخاصَّة العجزة الضعفاء ، كما يحتاج من الدارس أن (يطيل سَفَر الخاطر) وهى كلمة فريدة تصف الطريق إلى المعرفة بدقة وأمانة ، فهو سفر طويل ، ورحلة بعيدة شاقة يقطعها العقل الحىّ ، فيتعرف على الفكرة ويتودد إليها ، ويمس عناصرها ، ويكتشف قصتها فى عالم المعانى ، ونسبها ، ثم يقلب النظر فى نواحيها ، ويربط بين أشتاتها ، ويرتحل بخاطره فى أحوالها ومنازلها دون أن يشغله وهو فى رحلته شاغل آخر ، حتى يصل إلى جوهرها النفيسة .

إطالة سفر الخاطر هو طريق المعرفة الطويل

ومعرفة الخاصَّة فى (الأشياء يجمعها الاسمُ الأعمُّ ، وينفرد كل منها بخاصَّة) هى التى فتقت للإمام عن جواهر البلاغة ، وهى الحبة التى أنبتت له سبع سنابل ، وهى النبع الذى تدفق منه نهر عطائه الخالد فى فكره البلاغى كله ، وهذا بيِّن جدا فى التشبيه والتمثيل يجمعهما الاسم الأعمُّ ، وينفرد كلٌّ منهما بخاصَّة اجتهد الإمام فى استنباطها ، وبيِّنٌ كذلك فى (دلائل الإعجاز) وبخاصة

النبع الذى تدفقت منه بلاغة الإمام

فى فصل التقديم والتأخير ، الذى كان نبعه ونواته الأولى قول سيبويه : (كـأنهم يقدمون الذى بيانه أهمُّ لهم ، وهم ببيانه أَعْنَى ، وإن كانـا جميعـا يُهِمَّانـهم ويَعْنِيانهم) [١] فبنى فصل التقديم والتأخير على تفصيل تلك العناية والأهميـة ، وبأى شئ كانت ، وما الخاصَّة التى ينفرد بها تقديم الاسم وتقديم الفعل وتقـديم المفعول ...... إلخ ، فجرى النهر وأنبتت الحبة سنابلها .

وكذلك صنع فى فصل القصر ، فكانت نواته قول شـيخه أبى علـىّ الفارسىّ فى " الشيرازيات " : (يقول ناسٌ من النحويين فى نحو قوله تعالى " قُلْ إنَّما حَرَّمَ رَبِّىَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ " [٢] إن المعنى : ما حـرم ربى إلا الفواحش ...... إلخ) [٣] وحاصله أنهم جعلوا (إنما) فى الدلالـة علـى القصر بمنـزلة (ما) و (إلا) ، فابتدأ الإمام عبد القاهر رحلته (سفر الخـاطر) فى الكشف عن أنه (ليس كل كلام يصلح فيه "ما" و "إلا" يصلح فيه "إنمـا") [٤] ، فقاده ذلك إلى بيان الخصائص التى تنفرد بها " إنما " ، والخصائص التى تنفرد بهـا " ما " و " إلا " فى أسلوب القصر ، وجرى النهر بعطائه ...... وكان هذا منـهج الإمام فى فكره البلاغى الممتع .

ابن الأثير ينبه على دقائق فى أمر المعانى :

تبين مما سبق أن (علم البيان) مداره على الكشف عن (أمر المعـانى) ، شأنه فى ذلك شأن البلاغة كلها ؛ فليس (علم البيان) صناعة ألفـاظ وصـور خاوية ، وهياكل ميتة ، إنما هو صناعة معانٍ حية لها قلوب نابضة .

---

(١) دلائل الإعجاز : ص ١٠٧ ت . شاكر .

(٢) سورة الأعراف : آية ٣٣ .

(٣) دلائل الإعجاز : ص ٣٢٨ ت . شاكر .

(٤) السابق : ص ٣٢٩ .

علم البيان صناعة معنوية لها ضربان

وقد أجاد ابن الأثير (ت٦٣٧ هـ) فى هذا الباب ، فجعل (علم البيان) بجميع مباحثه ومسائله من قبيل ما سماه بـ (الصناعة المعنوية) [١] ، أى التى ترجع المزية فيها إلى (المعانى) وما فيها من ثراء ودقة وإحكام .

وقسم ابن الأثير هذه (الصناعة المعنوية) إلى ضربين :

الضرب الأول : (ما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه) [٢] ، أى أن هذا الضرب معنيٌّ بأبكار المعانى ، قال : (ولأمر ما كان لأبكارها سر لا يهجم على مكامنه إلا جَنان الشهم ، ولا يفوز بمحاسنه إلا من دق فهمه حتى جلَّ عن دقة الفهم ، ولَلْهُجوم على عذارى المغانى [٣] المحمية بحجب البواتر ، أَيسَرُ من الهجوم على عذارى المعانى المحمية بحجب الخواطر ، وما ذلك مما يلقيه إليك الأستاذ ، وليس يقوم به إلا الفذ ولا أقول الأفذاذ ، وأين الذى ينشئ فيحسن فيها الإنشاء ، ويبرز فيها صورا يركبها كيف يشاء ؟ ومن نظر إلى هذا الموضع حق النظر ، وأخذ فيه بالعين دون الأثر ، علم أنه مقام يَزْلَقُ بمعارف الأفهام ، فكيف بمواقف الأقدام ؟ وليست المعانى فيه إلا كالأرواح ، ولا الألفاظ إلا كالأجسام ، فمن شاء أن يخلق خلقا من الكلام ، فليأت به على صورة الأناسيّ لا على صورة الأنعام ؛ فإن من القول الغانية التى هى أحسن من الغانية ، ومنه البهيمة التى لا تشبه إلا بالسانية) [٤] .

([١]) ينظر المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير : ١/٣٠١ ت . محمد محيى الدين عبد الحميد ط . المكتبة العصرية ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .

([٢]) المصدر السابق : ١ / ٣٠٣ .

([٣]) فى المطبوعة (المعانى) بالعين المهملة ، وصوابه ما أثبت هنا بالغين المعجمة ، وأثبته المحققان د / أحمد الحوفى ، د / بدوى طبانة فى تحقيقهما : ٢ / ٢٠ ط . نهضة مصر .

([٤]) المثل السائر : ١ / ٣١١ ت . محمد محيى عبد الحميد ، (ومن معانى السانية : الناقة يسقى عليها ، وسنت تسنو : سقت الأرض) عن هامش تحقيق د / الحوفى و د / طبانة ٢ / ٢١ .

وهذا النص من صفوة ما فى " المثل السائر " ، وما أكثر مصطفاه فى هذا الباب الذى لم ينل حظه من خدمة الدارسين ؛ لأنه لم يجد مجالا فى تصنيف الخطيب القزوينى وشراح تلخيصه ، مع أنه باب واسع ، عليه مدار البلاغة كلها بجميع فنونها وشعبها ، ويقع فى " المثل السائر " فى اثنتين وأربعين صفحة [1] ، كلها فى دراسة المعانى ، وهى روح البيان ، وسر أسراره .

باب لم ينل حظه من خدمة الدارسين

وأى قلب شجاع فاتك يهجم على مكامن أبكار المعانى ؟ وما صفات هذا القلب ؟ وكيف ندرب قلوبنا على هذا الطراز من الشجاعة ؟ ثم أية دقة فى الفهم تلك التى تجل عن دقة الفهم ؟ وهذه العبارة ناظرة إلى قول ابن أخت تأبط شرا :

شجاعة القلب والهجوم على مكامن أبكار المعانى

خبر ما ، نابنا ، مصمئل ! جل حتى دق فيه الأجل [2]

ومن ذخائر هذا النص أن ابن الأثير جعل الهجوم على عذارى المعانى المحمية بحجب الخواطر ، أشد وأصعب من الهجوم على عذارى المغانى المحمية بحجب السيوف البواتر ، وهذا يعنى أن المغامرة فى سبيل الوصول إلى المعانى العذراء التى لم تحم حولها العقول ، تعادل المغامرة فى فتح البلاد والحصون المليئة بالمغانم والأسلاب ، فالغزاة الفاتحون لمغاليق الفكر ، كالغزاة الفاتحين للحصون المحصنة ، بل إن فتوح البلدان والحصون أيسر من فتوح المعانى والأفكار .

فتوح المعانى أصعب من فتوح المغانى

وصدق ابن الأثير ؛ فإن "حرب المعلومات" أمضى السلاحين وأقواهما ، والوصول إلى أبكار الأفكار فى شتى مجالات المعرفة ، يعنى الاستحواذ على القوة

---

(1) ينظر المثل السائر : ١ / ٣٠١ - ٣٤٢ ت . محمد محيى الدين عبد الحميد .

(2) حقق نسبة البيت لابن أخت تأبط شرا ، وليس لتأبط شرا ، الأستاذ محمود شاكر فى " نمط صعب ، ونمط مخيف " ، نشر دار المدنى بجدة ومطبعة المدنى بمصر ط . أولى ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م

والنصر فى عالم لا يعرف إلا الأقوياء ... ومثل العاكف فى محراب الفكرة حتى تتم له ، وتستسلم لقوة عقله ، مثل المرابط بسلاحه ... وهذا العالِم هو الذى تتصارع عليه الأمم ، وتنفق من أجله نفائس خزائنها .

نوابغ الأفكار محمية بحجب الخواطر

وما ذكره ابن الأثير يعنى أن عالم الفكر وساحات المعانى الأبكار ستظل محمية منيعة من أن يخوض فيها الأدعياء المزيفون ، وإن تمسحوا بأركانها ، وتسوروا أسوارها ؛ لأنها محمية بحجب الخواطر ، وليسوا ممن يزيل هذه الحجب ، وإن نصبوا أنفسهم حجابا لها ، وحماة لمقدساتها ، ودعاة (للتنوير) ، فهم حجاب محجوبون عن ساحاتها ، ودعاة (تنوير) لا تصل إلى قلوبهم أنوارها .

وقد نبه أبو حيان التوحيدى – وكان يلقب بالجاحظ الثانى – على أن هذا النمط من نوابغ الأفكار يبعد على كل من حاوله بعنف ؛ ويستعصى عليه ، وإن ظن أنه يواتيه وأنه قريب من ساحته ؛ وذلك أنه ليس من أهله ، فهو يخطئ الطريق إليه ، وإنما أهله هم الذين عكفوا عليه ، وتوددوا إليه ، فتناولوه بلطف حتى قرب منهم وقربوا منه ، فذل لهم وذلوا له ، قال أبو حيان : (وفى الجملة ، أحسنُ الكلام مارقّ لفظهُ ، ولَطُفَ معناه ، وتلألأ رَونقُه ، وقامت صورتُه بين نظم كأنه نثر ، ونثر كأنه نظم ، يُطْمِعُ مشهودُه بالسَّمْع ، ويمتنع مقصودُه على الطبع ؛ حتى إذا رَامَه مُرِيغٌ (١) حَلَّق ، وإذا حَلَّق (٢) أسَفَّ ، أعنى يَبْعُد عن المُحاول بعُنْفٍ ، ويَقْرُبُ من المتناول بلُطْف) (٣) .

---

(١) المريغ : من أراغ الشئ بمعنى طلبه وأراده [ينظر لسان العرب : ر و غ] .

(٢) حَلق الطائر إذا ارتفع فى الهواء واستدار . وأسَفَّ الطائر : دنا من الأرض [لسان العرب : حلق ، سفف بتصرف] .

(٣) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى : ٢ / ١٤٥ نشره أحمد أمين وأحمد الزين ط . منشورات المكتبة العصرية .

مقام يزلق بمعارف الأفهام

وأجاد ابن الأثير حين وصف هذا المقام بأنه (مقام يَزْلَقُ بمعارف الأفهام ، فكيف بمواقف الأقدام) ، وهو تصوير بارع لحال الأفهام مع عذارى المعانى السابحة فى أفلاكها ، كلما اقتربت منها معارف الأفهام ، زَلِقَت ، وتحدرت ، كجلمود صخر حطه السيل من عل ، ولا تزال معارف الأفهام تحاول الثبات فى هذا المقام العالى فتزلَق ، حتى تثبت له مرة فتغتنمه ، وتشرق فى ساحاتها أنواره ، فتؤوب وقد ظفِرت بمرامها الذى طالما ارتفعت إلى سمائه فرجمتها شهبها الراصدة .

والضرب الثانى : (هو الذى يحتذى فيه على مثال سابق ، ومنهج مطروق ، وذلك جل ما يستعمله أرباب هذه الصناعة ، ولذلك قال عنترة :

هل غادرَ الشُّعراءُ من مُتَرَدَّمِ

إلا أنه لا ينبغى أن يرسخ هذا القول فى الأذهان ، لئلا يؤيس من الترقى إلى درجة الاختراع ، بل يعوَّل على القول المُطْمِعِ فى ذلك ، وهو قول أبى تمام :

لا زلتَ من شُكْرِىَ فى حُلَّةٍ ... لا بِسُها ذُو سَلَبٍ فَاخِرِ
يقولُ من تَقْرَعُ أسماعَهُ : ... كم تركَ الأوّلُ للآخرِ

وعلى الحقيقة فإن فى زوايا الأفكار خبايا ، وفى أبكار الخواطر سبايا ، لكن قد تقاصرت الهمم ، ونكصت العزائم ، وصار قصارى الآخر أن يتبع الأول ، وليته تبعه ولم يقصر عنه تقصيراً فاحشا) [1] .

فى زوايا الأفكار خبايا ، وفى أبكار الخواطر سبايا

وقول ابن الأثير إن فى زوايا الأفكار خبايا ، وفى أبكار الخواطر سبايا ...) يكشف عن طبيعة عمل العقول فى هذا الضرب ، فهى وإن لم تصل إلى المعانى المبتكرة ، إلا أنها تفتش فى زواياها لتقف على خباياها المطمورة فيها التى لم يهتد إليها أحد ؛ لأن عناية القوم تنصرف من الفكرة الجديدة إلى بؤرتها ورأس الأمر

---

(1) المثل السائر : ١ / ٣٣٥ ت . محمد محيى الدين عبد الحميد .

فيها ، فإذا وقفت عليه قنعت به ، وأناخت هنالك العقول ، مع أنها تركت فى زوايا الفكرة وحواشيها خبايا وكنوزاً ، فإذا جاءت العقول الحية فنقبت فى حواشيها ، واستنطقت صوامتها ، وأضاءتها بأنوار الفطنة ، وبنت فى سهولها قصورا ، صارت هذه الحواشى المهملة من أبكار الأفكار ، ولحق مكتشفوها بركب الرواد ، بما صبروا فى خدمة الفكر واستنطاقه .

وفى قوله (وفى أبكار الخواطر سبايا) إشارة إلى أن أبكار الخواطر لا تزال ملأى بالعطاء ، وأن فيها حوراً أسيرات تنادى الأحرار من أهل العلم وأرباب المواهب الصادقة إلى تحريرها من ذل الأسر .

وهكذا نرى ابن الأثير قبل أن يلج إلى دراسة فنون علم البيان من تشبيه ومجاز وكناية وتعريض يقدم مدخلاً فى أكثر من أربعين صفحة ، يتناول أمر المعانى ، ليكشف عن أن العناية فى هذه الفنون التى ينخدع الناس فيها باللفظ والخيال ، يجب أن تنصرف إلى (المعانى) ؛ ولذا كانت آخر كلماته قبل حديثه عن النوع الأول من علم البيان وهو (الاستعارة) [١] تركز على العناية بأمر المعانى ، وأن عناية العرب بألفاظها ، لم تكن من أجل الألفاظ ذاتها ، وإنما من أجل ما وراءها من المعانى [٢] .

حفظ المعانى مرهون بصياغة الألفاظ

ولابن جنى فى هذا الميدان قدم صدق ، حيث عقد بابا فى " الخصائص " تولى فيه (الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعانى) [٣] ،

---

(١) ينظر المثل السائر ١ / ٣٤٢ ت . محمد محيى الدين عبد الحميد . ولعل ابن الأثير قدم الاستعارة على التشبيه ؛ لأن توهم كون العناية باللفظ فى الاستعارة أكثر من توهمها فى التشبيه ، فكان تقديمها – فى سياق كتابه – أولى لنفى ذلك عنها ، وإثبات أن العناية فيها إنما بالمعنى .

(٢) ينظر المصدر السابق : ١ / ٣٤٠ .

(٣) الخصائص لابن جنى : ١ / ٢١٦ ت . الشيخ محمد على النجار ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ط . ثالثة ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

وهو باب نفيس ، يبرز أنه لولا عنايتهم بألفاظهم لضاعت معانيهم ، (ألا ترى أن المثل إذا كان مسجوعا لذّ لسامعه فحفظه ، فإذا هو حفظه كان جديرا باستعماله ، ولو لم يكن مسجوعا لم تأنس النفسُ به ، ولا أَنقت لمستمَعه ، وإذا كان كذلك لم تحفظه ، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له ، وجئ به من أجله) [1] ، وهذا يدل على أن حفظ المعانى وتمثلها وقيامها بالنفوس وإثراءها لحركة الحياة ، كل ذلك مرهون بصياغة الألفاظ والتأنق فيها ، واقتحامها على السامع أقطار نفسه .

---

(1) المصدر السابق : ١ / ٢١٧ .

مدخل إلى التشبيه

موقف التشبيه بين أجناس المعانى موقف الجامع لفرقتها

التشبيه كنز من كنوز البيان ، وهو طوق الحمامة جامع الألفة والألاف ، ولسان الفكر العاكف على النظر فى محراب الكون ، الصادح بأنغام الوفاق والتآلف . يقف بين أجناس المعانى موقف الجامع لفرقتها وشتاتها ، الداعى إلى الوَحْدة فى جهادها ونضالها ، به تذوب الفرقة ، وتتلاشى الفروق ، فلا تتعالى بعض المعانى على بعض ، بل يَسُدُّ كلٌّ منها مَسَدَّ صاحبه ، وينوب عنه ؛ ولذا كانت كلمة أبى الحسن على بن عيسى الرُّمَّانى (٢٩٦-٣٨٦ هـ) فى تعريف التشبيه نابضة بهذا الحسّ ، قال : (هو العقد على أن أحد الشيئين يَسُدُّ مَسَدَّ الآخر فى حسٍّ أو عقل) [١] ، فكل واحد من طرفى التشبيه يحل محل صاحبه ، ويسد مسده لقوة الشبه بينهما .

نظرة فى تعريف التشبيه

وقول الرمانى عن صنعة البيان فى التشبيه إنها (عَقْد) ، يصف قوة هذه الصنعة وإحكامها ، فكأن صانع التشبيه يربط الطرفين بحبل واحد ، بل يبالغ فيشدهما شداً متينا فى (عقدة) واحدة ؛ ولهذا أرى أن لفظ (العقد) فى تعريف الرمانى أقرب إلى وصف صنعة التشبيه وأمسُّ رحماً من لفظ (المشاركة) الوارد فى تعريف الخطيب القزوينى : (التشبيه الدلالة على مشاركة أمر لآخر فى معنى ، ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية ، ولا الاستعارة بالكناية ، ولا التجريد) [٢] ، وأقرب كذلك من ألفاظ (الإلحاق) و (الجمع) و (الإثبات) و (الوصف) المذكورة فى التعريفات الأخرى [٣] .

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن لأبى الحسن على بن عيسى الرمانى : ص ٨٠ ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، ت . محمد خلف الله و د / محمد زغلول سلام ط . دار المعارف ، ط . ثانية ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨ م .

(٢) الإيضاح مع البغية : ٣ / ٦ ، ٧ .

(٣) ينظر فى مجموع التعريفات المفتحة بهذه الألفاظ كتاب " التصوير البيانى " د . حفنى شرف : ص ١٠١ ، ١٠٢ نشر مكتبة الشباب ط . ثانية ١٩٧٣ م .

التشبيه يذلل عصيَّ المعانى

كم من معنى شرود قيد التشبيه أوابده ، وذلل عَصيَّه ، وأنزله من عُليد سمائه ، حتى دنا للعقول قِطافه ، وقَرُبَ للأفهام فَهمُه ...... ولولا مفاتيح التشبيه لا ستغلقت أبواب كثير من عصيِّ المعانى ؛ فلله هذا الفن العجيب ، فكم أهدى للعقول من عقائل كريمات !!

شواهد تبين عن قدرة التشبيه على جمع أقطار المعانى

ومما يبين عن قدرته على جمع أقطار المعانى قوله عز وجل : (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) [1] قال الزمخشرى : (الخيط الأبيض هو أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق كالخيط الممدود ، والخيط الأسود ما يمتد معه من غبش الليل ، شُبِّها بخيطين : أبيض وأسود ... وقوله " من الفجر " بيان للخيط الأبيض ، واكتفى به عن بيان الخيط الأسود ؛ لأن بيان أحدهما بيان للآخر) [2] .

وفى هذين التشبيهين إشارة إلى أن الصيام – وغيره من شرائع الإسلام – مبناه على اليقين الذى يبلغ حد المشاهدة ، فيتميز بوضوح وجلاء تميز الخيط الأبيض من الخيط الأسود ؛ فلا مجال فى هذه الشرائع للشك ولا للحدس والتخمين ، بل هى قائمة على تحرى اليقين القاطع ؛ ولذا قالوا إن من أكل أو شرب فى رمضان ظانا بقاء الليل أو غروب الشمس ، ثم تبين أنه أخطأ فى ظنه ، فسد صومه وعليه القضاء ، لأنه لم يتحر وبنى عمله على الظن والتخمين [3] .

التشبيهان يضعان قاعدة أصيلة فى حياة المؤمن ، لتقوم حركة حياته كلها فى تصرفاته وسلوكه وأقواله وأفعاله وأفكاره وخواطره على القطع واليقين ،

---

(1) سورة البقرة : ١٨٧ .

(2) الكشاف للإمام الزمخشرى : ١ / ٣٣٩ بتصرف ط مصطفى الحلبى ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .

(3) ينظر الفقه على المذاهب الأربعة (قسم العبادات) ص ٥٣٠ – ٥١٨ ط وزارة الأوقاف ط ثامنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

لا على الشك والتخمين ، فإذا اتضحت أمامه معالم الطريق ووجوه الحقائق مضى فى الأمر ، وإلا توقف وأحجم ، (فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إلا الضَّلَالُ) [١] ، وحياة تبنى على شك وأوهام ووساوس ، حياة فاسدة لانطفاء نور اليقين منها .

ومنه أنه صور حديث المعصوم صلى الله عليه وسلم مجرى شُقَّ فى العقول ، فجرى فيه العلم والحكم الغوالى كما يجرى الماء ، وهو نبع الحياة فى كل حىّ ، فهدى القلوب وأحيا أجادها ، وأنبت فيها أنوار الإيمان والحكمة والعلم ، قال شوقى :

أما حديثُكَ للعقول فمَشْرَعٌ والعلمُ والحِكَمُ الغَوَالى الماءُ [٢]

ثم صور هذا الحديثَ الشريف المنفوح بنفحة الطهر ، الناطق عن هدى آى الذكر ، فجعله ثوبا صبغ بصبغة الفرقان ، فأنواره من مشكاته ، قال :

هو صِبْغَةُ الفُرْقانِ ، نَفْحَةُ قُدْسِهِ
والسِّينُ من سُوْرَاتِهِ والرَّاءُ

ومن فائق قدرته على جمع أقطار المعانى ، وإصابة الغرض من أقصر طريق ، قوله فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم :

المُصْلِحُون أصَابعٌ جُمِعَتْ يَداً
هى أنتَ ، بل أنتَ اليَدُ البَيْضَاءُ [٣]

فشبه المصلحين بأصابع اليد ، واختار أصابع اليد ؛ لأن بها إتقان الدقائق فى كل عمل تزاوله اليد ؛ (لأن الأعمال الدقيقة لها اختصاص بالأصابع ،

---

(١) سورة يونس : ٣٢ .

(٢) الشوقيات شعر المرحوم أحمد شوقى : ١ / ٣٥ ط . دار الكتب العلمية .

(٣) الشوقيات : ١ / ٣٨ .

وما من حذق فى عمل يد إلا وهو مستفاد من حسن تصريف الأصابع ، واللطف فى رفعها ووضعها ، كما تعلم فى الخط والنقش وكل عمل دقيق . وعلى ذلك قالوا فى تفسير قوله عز وجل : (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) [1] ، أى : نجعلها كخف البعير فلا تتمكن من الأعمال اللطيفة) [2] .

والمصلحون فى كل أمة هم الأصابع المحركة لكل فضيلة ، الموجهة لكل طاقة ، هم قوة الأمم ، إذا فقدوا فقدت وحل العجز والوهن ، وهؤلاء فى كل زمان أفراد قليلون ، تعدهم عدا ، ولكنهم معدن كل إتقان ، ومنبع كل فضل .. وملامح التشابه بينهم كثيرة ، كالتشابه بين أصابع اليد ؛ لأنهم نسيج واحد ، وإن انفرد كل منهم بفضائل كما تتمايز الأصابع فى الطول والقصر ، وكما تتمايز بصماتها من شخص لآخر ، أما معدن الفضل فواحد .

ثم إن (شوقى) لما أراد أن يصف الرسول صلى الله عليه وسلم بالإصلاح جمع له إصلاح المصلحين فى كل زمان ، ولو قال له : " إنك جمعت ذلك " لما كان له من الحسن مثل قوله " المصلحون أصابع ... " ، فجعل اجتماع الإصلاح فيه كاجتماع الأصابع فى اليد الواحدة ، فانظر كيف تكون هذه اليد : قوتها ، وإصلاحها ، وسلطانها ، وأثرها فى الحياة .

ثم فاجأنا (شوقى) فلم يقل إن هذه اليد هى يد الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل قال إنما هى الرسول صلى الله عليه وسلم : (هى أنت) ؛ أى أن الإصلاح كله تجسد فيه ، بكل ما اجتمع فى أفراده من سمات ، وبكل ما انفرد به كل واحد منهم من خصائص ، فهو الجامع لكمالاتهم أجمعين .. ثم فاجأنا مرة

---

(1) سورة القيامة : ٤ .

(2) أسرار البلاغة : ٣٥٤ .

ثانية بأن جعل هذه اليد هى صغرى نعمه ، صلى الله عليه وسلم ؛ لأنـــه هـــو النعمة العظمى ؛ ولذا قال (بل أنت اليد البيضاء) ، فاليد مجاز عـــن النعمـــة ، وبياضها عظمتها وظهورها ، بخلاف اليد الأولى فى قوله (أصابع جمعت يدا) فهى على الحقيقة .

ومن لطيف التشبيه قوله فى هَمْزِيَّته النبوية المحكمة الأَسْر :

لما دَعَوتَ الناسَ لَبَّى عاقِلٌ
وأَصَمَّ منكَ الجاهلين نِدَاءُ
أَبَوا الخُروجَ إليكَ مِن أَوْهَامِهم
والناسُ فى أَوْهَامِهم سُجَنَاءُ
ومِن العُقُولِ جَدَاولٌ وجَلَامِدٌ
ومن النُّفوسِ حَرائِرٌ وإِمَاءُ (١)

ففى البيت الثانى شبه الناس حين تحيط بهم أسوار الأوهام بالســـجناء ، فإذا راموا الخروج من سجونهم ، فعليهم أن يحطموا أسوار الوهم من نفوسهم ، ويفتحوا للحقائق أبواب قلوبهم ، لتستضئ بنور الإيمان ، وتلبى دعوة الرســـول الكريم صلى الله عليه وسلم الذى يلبى دعوته العقلاء .

ثم ساق (شوقى) فى البيت الثالث حكمتين قامتا على أربعة تشـبيهات ، فجعل العقول قسمين على طريق التشبيه ، وجعل النفوس كذلك ، فمن العقول كالجداول ، أى الأنهار ، تجرى فيها مياه العلم والحكم الغوالى ، فتكـــون نبعـــا يتدفق بالحياة ، وتلك عقول أهل الفطر السليمة ؛ القابلة لأنوار الرســـالات ، المنتفعة بهدى السماء ، النافعة للحياة والأحياء .. ومن العقول كـــالجلامد ، أى

---

(١) الشوقيات : ١ / ٣٦ .

الصخور الصلاب ، لا ينفذ إليها الماء ، ولا تكون نبعا له ، فلا تستنير ولا تنير ، ولا تحيا ولا تكون مصدرا لحياة غيرها ... ومن النفوس نفوس كالحرائر الشريفات ، لا تقيم على ضيم يراد بها ، تحطم أسوار الوهم ، وتحيا حرة كريمة ... ونفوس كالإماء ، توابع لأسيادها وأكابرها ، ذليلات ، طفئت فيها أنوار الحرية ، وبهذه التشبيهات الأربعة جمع (شوقى) وصف العقول والنفوس فى بيان عذب كأنه الماء الرقراق .

ومن جيد التشبيه قول أحد الشعراء [١] :

والمَوتُ أَجْوَرُ حاكمٍ ، وكانه

فى الناسِ قَسْماً بالسَّوِيَّةِ عَادِلُ

شبه الموت بالحكم الجائر ؛ لأنه يسلب الناس حياتهم ، ويحيلهم إلى الفناء ؛ وهل ثمة حكم أجور من هذا الحكم الذى لا يسلب الناس أشياءهم ، وإنما يسلبهم هم ، ولا يقنع إلا باغتيال أرواحهم ، وقطع آمالهم ، ومحو صورهم ورسومهم ، وإيداعهم ضمير الذكرى ، بعدما كانوا قرة العيون النواظر ، وبهجة النفوس والخواطر ؟

ولم يكتف الشاعر بجعل الموت (حاكما) ، بل جعله (أجور حاكم) ؛ وحذف أداة التشبيه ليقوى المعنى ، ويزيد من دعوى اتحاد الطرفين ، فيوهم أن الموت وأجور حاكم شئ واحد ، وأن الموت لا يشبهه فحسب ، وإنما هو هو .

وقوله (وكأنه فى الناس قسماً بالسوية عادل) تشبيه للموت بالعادل فى قَسْمِه ، الذى يوزع الأنصباء بالسوية ؛ لأنه يصيب بمصيبته كل أحد ، ولا يترك أحدا ...

---

(١) البيت فى كتاب (مستقبل الثقافة العربية د . محمود الطناحى - رحمه الله - : ص ٦) ط . دار الهلال العدد ٥٨١ مايو ١٩٩٩ م .

وبهذا شبه الشاعر الموت بتشبيهين متقابلين ، وجعله جامعاً لهما ، فهو (أجور حاكم) وهو (العادل) المقسط فى قسمه ، فجعل أجور حاكم عادلاً متشحا بوشاح العدالة ؛ وهذا التأمل الواعى من أسباب جودة التشبيه .

فانظر كيف أنطق التشبيه هذه المعانى الغر ، وأجراها فى منابعه ، فأوفت به غرا محجلة ، وكيف زاد عطاءها ، وقوَّى قُوَى الاستحسان فيها ، حتى غدت به غِيداً جُلِبَ لهن الحسن من كل جهة ؟

حمى لا يجرؤ التشبيه على القرب منه

ولطالما وقفت العقول أمام كل شئ ، وبحثت له عن شبيه ، يصف كنهه ، أو يكشف صورته ، أو يفصح عن مقداره ، أو يذهب غموضه ، أو يزيده وضوحاً وقربا ... إلا واحدا فردا ، بقى بعيداً عن دائرة الشبيه والمثيل ؛ لا يجرؤ التشبيه أن يقترب من حماه ...... هو الله جل جلاله ، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) [1] .

* * *

من فضائل التشبيه :

لعلماء البلاغة كلام نفيس فى البيان عن فضل التشبيه وشرفه :

التشبيه أكثر كلام الناس لأنه من المعانى المركوزة فى الفطرة

فهذا أبو العباس المُبرِّد (٢١٠-٢٨٥ هـ) يجعله أكثر كلام العرب ، بل أكثر كلام الناس ، قال : (والتشبيه جارٍ كثيرٌ فى الكلام ، أعنى كلام العرب ، حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم لم يُبْعِد) [٢] ، وقال : (والتشبيه كما ذكرنا من أكثر كلام الناس) [٣] ، فإن قصد بالناس هنا العرب فهو

---

(١) سورة الشورى : ١١ .

(٢) الكامل لأبى العباس المبرد : ٢ / ٩٩٦ ت . د / محمد أحمد الدالى ط . مؤسسة الرسالة ط . ثانية ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

(٣) المصدر السابق : ٢ / ١٠٣٧ .

كسابقة ، وإن قصد عموم الناس فهو أيضا معنى سديد صرح به أبو هلال العسكرى (ت٣٩٥ هـ) فى قوله : (والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ، ويكسبه تأكيدا ؛ ولهذا أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه . وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يُسْتَدَل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان)[١] .

وحسب هذا الفن شرفا أن أجمعت الألسنة فى كل جيل على شرفه وفضله ، لا يستغنى عنه إنسان فى أى لغة ؛ لأنه مركوز فى فطرته ، فهو من أنهار المعانى الجارية فى كل نفس حية ، ولأجل ذلك لم تنكر النفس هذا الحكم الكلى الذى أصدره أبو هلال ، مع أن إصدار الأحكام الكلية محكوم عليه – فى الأغلب الأعم – بالفساد والبطلان .

وكأن أبا هلال نظر – قبل إصدار هذا الحكم البات – فى كل لغة ، ونقب فى كل لسان ، ولم يقصر نظره على العربية فقط ، بل وسع أفق البحث ليقارن بين اللغات ، ويتعرف على ما اجتمعت عليه ألسنتها ، وما أطبق عليه جميع المتكلمين من العرب والعجم ، فهم فيه شركاء ، ثم اصدر قضاءه ، وشفعه بنماذج جيدة مختارة للتشبيهات عند العرب والعجم ، فلم يقتصر فى هذا على إيراد شواهد عربية ، بل ضم إليها شواهد مما قاله (بيدبا) فيلسوف الهند ، صاحب (كليلة ودمنة) ، بل إن ما ذكره من تشبيهات (كليلة ودمنة) أكثر مما استشهد به من شعر العرب ، ومما أورد أبو هلال : (قال صاحب كليلة ودمنة : الدنيا كالماء الملح ، كلما ازددت منه شربا ، ازددت عطشا . وقال : صحبة

---

(١) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر لأبى هلال العسكرى : ص ٢٤٣ ت . على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم ط . المكتبة العصرية ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

الأشرار تورث الشر ، كالريح إذا مرت على المُنتِن حملت نتنا ، وإذا مرت على الطيب حملت طيبا ... وقال : لا يخفى فضل ذى العلم وإن أخفاه ، كالمسك يُخْبَأُ ويُسْتَرُ ، ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح ... وقال أيضاً : الرجل ذو المروءة يُكْرَم على غير مال ، كالأسد يُهَابُ وإن كان رابضا ، والرجل الذى لا مروءة له يَهَانُ وإن كان غنيا ، كالكلب يُهُونُ على الناس وإن عَسَّ وطوَّفَ ...) [1] .

---

(1) المصدر السابق : ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ بتصرف .

دعـــــوة للباحث إلا ألا يحجر فكـره علـى لســان أمته

وفيما صنع أبو هلال دعوة للباحث إلى ألا يحجر نظره على لسان أمتـه فحسب ، فلا يرى إلا أنوارها ، ولا يستضئ إلا بمصابيح أعلامها ، بل عليـه أن يكشف عن عينيه غطاءهما لترويا المعرفة فى كل ارض ، وأنوار العقول تشرق من كل جنس ، وفى كل أمة ، فيغترف من منابع العلم حيث كانت ، ويقتبس مـن أنوار الحكمة أنى وجدها ، فهى ضالته ؛ وبهذا يمتلئ نهره من شـتى الأوديـة ، فيفيض ، ويمتع ، ويثرى ؛ لأن (الثقافة التى تنكفئ على نفسها تموت) [١] .

وكم فى كل لسان من مواهب وعبقريات ، فهذا (بيدبا) فيلسوف الهند وحكيمها ، وهذا (جوته) الشاعر الألمانى الفذ ، وهو (شاعر عظيم فى لســان قومه ، ولغته الألمانية فى الذروة من الحسن والجمال) [٢] ، وهذا (محمد إقبال) شاعر الإسلام ، وشاعر الهند العظيم ، له فى شعره :

معانٍ جَلَتْها حِكْمةُ الشرقِ فانْثَنَتْ
تُدِلُّ على أهلِ الحِجَا أىَّ إدْلَالِ
وتَغْمُضُ أحياناً فتبدُو عَويصــةً
كـــأنكَ منها واقفٌ بين أجْبَالِ
إذا أنْقصَ التعريبُ بعضَ بريقها
فإن سياقَ النصِّ يُوحى بإكمالِ [٣]

وغير هؤلاء .

([١]) من كلمة للدكتور فوزى فهمى ، محرر مجلة (الفن المعاصر) عن ملحق أهرام الجمعـــة ٢٦ رمضـــان ١٤٢١ هـــ ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٠ م : ص ١١ .

([٢]) نمط صعب ، ونمط مخيف : ص ٣٥ .

([٣]) ديوان صدى الأيام د . محمد رجب البيومى : ص ١٤٦ بتصرف ، مطبعة السعادة ط . ثانيـة ١٤٠٢ هـــ / ١٩٨٢ م .

وكثيرا ما (يفيد الكاتب أو الشاعر من معين ثقافته العالمية فيما يسوق من صور ، كما يفيد منها فى اقتباس الموضوعات التى يعالجها . وكل كاتب أو شاعر عميق أصلى ، يمتاح من هذه الموارد العالمية فيغنى أدبه ، دون أن يفقد أصالته) [1] .

الكشف عن المجهول من أسباب كثرة التشبيه عند الأمم

وكون التشبيه أكثر كلام العرب ، وأكثر كلام الناس عامة ، مرده – فيما أرى – إلى أن التشبيه يكشف عن المجهول ، ويقرب العقول من شاطئه عن طريق تمثيله بشئ معلوم يعرفونه ؛ ولما كان المجهول فى حياة الناس أكثر من المعلوم ، بل إن ما عرفوه إذا قيس بما لم يعرفوه كان كالحلقة الملقاة فى فلاة – كان التشبيه أكثر كلام الناس ، وعظُمت منزلته عندهم لتقريبه إياهم من شواطئ هذا الغيب المجهول ، ولن تجد النفوس اشد شوقا إلى شئ منها إلى أن تسترق سمع الغيب ، وتكشف حجب المجهول ، فترى ما لم تكن ترى ، وتعلم ما لم تكن تعلم .

وقد ألمح الأستاذ العقاد إلى هذا المعنى حين قال إن (ملكة البيان تقوى حيث تضيق دائرة الأشياء ؛ فإن المتكلم يحاول أن يقرب إلى سامعه ما لا يعرفه – وهو كثير – بتشبيهه بشئ مما يعرفه – وهو قليل – ومن ثم كان أهل البدو والريف أقدر على التشبيه من الحضريين وسكان الأمصار) [2] .

ومنها : حب المحاكاة منذ الطفولة .

ووراء كثرة التشبيه فى كلام الناس – أيضاً – أن الإنسان منذ ولادته ونشأته ، يحب محاكاة الأشياء من حوله ، وتمثيل أصواتها وحركاتها وهيآتها ، وهذا أمر لا يُنكَر ، فالطفل يبدأ عهده بالنطق مردداً أصوات بعض الحيوانات

---

(1) الأدب المقارن د . محمد غنيمى هلال : ص ٢٨٥ ط . دار العودة ط . ثالثة ١٩٨٧ م .

(2) خلاصة اليومية والشذور للأستاذ عباس محمود العقاد : ص ٩ ط . نهضة مصر ١٩٩٥ م .

والطيور على طريق المحاكاة ، ومن ثم كان التشبيه من أقدم فنـــون البيـــان فى أطوار نمو الإنسان ، إن لم يكن أقدمها ، وقد نبه حازم القَرْطَاجَنِىّ (ت ٦٨٤ هـ) على هذا السبب – وإن اقتبسه من كلام ابن سينا – فقال : (لما كانت النفوس قد جُبِلَتْ على التنبه لأنحاء المحاكاة واستعمالها والالتذاذ بها منذ الصبا ، وكانت هذه الجبلة فى الإنسان أقوى منها فى سائر الحيوان – فإن بعـــض الحيـــوان لا محاكاة فيه أصلا ، وبعضها فيه محاكاة يسيرة : إما بـــالنغم كالببغـــاء ، وإمـــا بالشمائل كالقرد – اشتد ولوع النفس بالتخييل ،وصارت شديدة الانفعال له ، حتى إنها ربما تركت التصديق للتخييل ، فأطاعت تخَيُّلَها ،وألغت تصديقها) [1] .

ومنها : متعة التوافـــق والتآلف

كما نبه ابن سينا على سبب آخر ، وهو ما يجلبه التشبيه للنفوس مـــن متعة بما يحدث من التوافق الذى تعشقه النفوس وتركن إليه ، عشقها للأنغـــام والألحان ، قال : (والسبب الثانى حب الناس للتأليف المتفق أو للألحان طبعـــا ، ثم قد وجدت الأوزان مناسبة للألحان فمالت إليها النفوس وأوجدتها) [2] .

التشـــبيه ودقـــة ملاحظـــة الأشياء

وكثرة التشبيه تدل على (التدقيق فى ملاحظة الأشياء ، وإشاعة التأمل فى دلالات الكون الشعرى عندما تصطبغ بأفكار الشاعر ومشاعره ، وما يحملها من روح متجددة تظل قادرة على صنع المشابهة المتجددة) [3] .

* * *

---

(1) مناهج البلغاء وسراج الأدباء لأبى الحسن حازم القرطاجنى ت . محمد الحبيب ابن الخوجة : ص ١١٦ ط . دار الكتب الشرقية تونس ١٩٦٦ م .

(2) المصدر السابق : ص ١١٧ .

(3) المدخل إلى شعرية التشبيه د . عالى سرحا . لقرشى ، بحث منشور بمجلـــة (علامـــات) : ص ١٦٩ بتصرف : إصدار النادى الأدبي بجدة ، جمادى الآخرة ١٤١٢ هـ ديسمبر ١٩٩١ م .

والإمام عبد القاهر وإن لم يقدم بين يدى دراسته للتشبيه مدخلا يبين فضله وشرفه ، كما فعل فى كثير من أبواب البلاغة ، كالحذف والتقديم والتأخير والاستعارة وغيرها ، إلا أنه كشف عن ذلك فى ثلاثة مواضع :

مواضع فضل التشبيه عند الإمام عبد القاهر

الموضع الأول : عند دراسته (تأثير التمثيل الواقع فى أعقاب المعانى) [1] .

والموضع الثانى : عند حديثه عن التمثيل حين يجمع بين المتباعدين [2] .

والموضع الثالث : عند ذكره أن مستخرج الشبه اللطيف مستحق للمدح [3] .

وإليك تفصيل ما ذكره الإمام عن شرف التشبيه فى كل موضع :

الموضع الأول : عند حديثه عن (تأثير التمثيل الواقع فى أعقاب المعانى) قال الإمام : (واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه ، أن " التمثيل " إذا جاء فى أعقاب المعانى ، أو برزت هى باختصار فى مَعْرِضِه [4] ، ونُقِلَتْ عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أُبهةً ، وكَسَبَها مَنْقَبَةً ، ورفع من أقدارها ، وشَبَّ من نارها ، وضاعف قُواها فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابةً وكَلَفا ، وقَسَرَ الطباعَ على أن تعطيها محبةً وشغفا) [5] .

---

(1) ينظر أسرار البلاغة : ص ١١٥ ، ١٣٥ .

(2) ينظر أسرار البلاغة : ص ١٣٢ .

(3) ينظر أسرار البلاغة : ص ١٥٠ .

(4) قال الشيخ محمد رشيد رضا : (يقول : إن للتمثيل مظهرين ، ويتجلى للأنظار فى ثوبين : أحدهما : أن يجئ المعنى ابتداء فى صورة التمثيل ، وهو النادر القليل ، ولكنه على قلته فى كلام البلغاء كثير فى القرآن العزيز ، فمنه قوله تعالى " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا " الآية [البقرة : ١٧] وغير ذلك كثير . وثانيهما : ما يتأثر المعانى ويجئ فى أعقابها لإيضاحها وتقريرها فى النفوس ... وهو الذى جعله المصنف أولا ، ومثاله من القرآن قوله تعالى (ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [الزمر : ٢٩] فقد أورده بعد ما قرر أمر التوحيد ...) أسرار البلاغة تعليق الشيخ محمد رشيد رضا : ص ٩٦ نشر المكتبة التوفيقية .

(5) أسرار البلاغة : ص ١١٥ ت . شاكر .

وهذا النص من بديع ما وقفت عليه فى بيان شرف التمثيل وفضله ، أبان فيه الإمام عن فعل التمثيل فى المعانى ، وقدم له بأن هذا الفعل (مما اتفق عليه العقلاء) ؛ فليس موضعا للخلاف ، ولا محلاً للشك عند أولى الألباب .

التمثيل يمنح المعانى واحدا أمرين

والتمثيل حين يفد على المعانى المجردة يمنحها أحد أمرين : فإما أن يؤسِّس لها مجداً لم يكن لها من قبل ؛ وهذا ما عبر عنه الإمام بقوله (كساها أبهة ، وكَسَبَهَا مَنْقَبة) ، والأبهة : العظمة والكِبْر [1] ، فالمعانى مع التمثيل ذوات خيلاء ، فهى تزهو به وتتفاخر . وإما أن يفد على معان لها أمجاد قديمة ، وأقدار ، ونار ، وقوى فى النفوس ، فإذا جادها التمثيل أو ظهرت فى صورته (رفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها) ؛ وهذا يعنى أنه يجود عليها بقوة تماثل قوتها ، فتصير لها قوى مضاعفة ، وطاقات مكثفة فى البيان عنها .

وقوله : (ودعا القلوب إليها ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا ...) يصور المعانى قبل التمثيل كأنها كانت خاملة صامتة تمر عليها القلوب دون أن تدعوها وتستثيرها ، وتبعث قواها من رقدتها ، فإذا وافاها التمثيل كأنما نفخت فيها الروح ، وبعثت إلى الحياة من جديد ، فجعل القلوب التى كانت غافلة عنها شغوفة بها ، وجعلها – وهى الطائعة المختارة – مقهورة على حبها والتعلق بها .

وبعدما أورد الإمام أثر التمثيل على الإجمال ، ذكر أثره على جهة التفصيل فى أغراض خاصة كالمدح والذم والحجاج والافتخار والاعتذار والوعظ ،وبنى الإمام أسلوبه هنا على طريق اللف والنشر ، فقال عن أثره فى المدح :

---

[1] لسان العرب : (أبه) .

(فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخمَ ، وأنبلَ فى النفوس وأعظمَ ، وأهزَّ للعِطْفِ ، وأسرعَ للإلْفِ ، وأجْلَبَ للفرح ، وأغلبَ على المُمْتَدَح ، وأوجب شفاعةً للمادح ، وأقضى له بغُرِّ المواهب والمنائح ، وأسيرَ على الألسُنِ وأذكرَ ، وأولى بأن تَعَلَّقَهُ القُلوبُ وأجدر) [1] .

وفى هذا النص جمع الإمام للمدح حين تمسه يد التمثيل ما يصبو إليه المادح والممدوح ، ثم استشهد بقول البحترى يمدح أبا الفضل يعقوب بن إسحاق بن إسماعيل النوبختى :

دَانٍ على أيدى العُفَاة وشاسعٌ   عن كل نِدٍ فى النَّدى وضَريبِ
كالبدر أفرَطَ فى العُلُوِّ وضَوؤُهُ   للعُصْبـةِ السَّارين جِدُّ قَريبِ [2]

قال الإمام : (فكِّر فى حالك وحال المعنى معك ، وأنت فى البيت الأول لم تنته إلى الثانى ولم تتدبر نُصرَتَه إياه ، وتمثيلَه له فيما يُمْلِى على الإنسان عيناه ، ويؤدى إليه ناظراه ، ثم قِسْهُمَا على الحال وقد وقفتَ عليه ، وتأملتَ طرفيه ، فإنك تعلمُ بُعْدَ ما بين حالتيك ، وشدةَ تفاوتهما فى تمكن المعنى لديك ، وتَحبُّبه إليك ، ونُبْله فى نفسك ، وتوفيره لأُنْسك ، وتحكم لى بالصدق فيما قلت ، والحقِّ فيما ادعيتُ) [3] .

منهج عملى فى التدريب على التذوق

وهذه الفقرة من كنوز الكتاب ؛ لأنها تصف طريقا سديداً للتذوق والمعرفة ، وذلك أن يدير المتذوق المعنى فى نفسه ، ويتفكر فيه ، وفى حاله معه ، وكيف ينتقل به المعنى من حال إلى حال ، وأى الحالين كان أمس لشغاف قلبه ،

---

(1) أسرار البلاغة : ١١٥ ت . شاكر .

(2) ديوان البحترى ت . الصيرفى : ١ / ١١٤ ط . دار المعارف ، وأسرار البلاغة ١١٦ ت . شاكر .

(3) أسرار البلاغة : ١١٦ ت . شاكر .

وأوفر لأنسه ، فلا ينبغى للمتذوق أو الناقد أن ينظر إلى النص نظـــرة عامـــة ، ليصدر عليه حكما عاما ، بل لابد أن يتوقف أمام كل عنصر مـــن عنـــاصره ، ليتعرف عن حاله معه ، ثم ينظر إلى ما بعده هل أضاف جديدا ؟ هـــل نصـــر العنصر الأول وأيده أو أنه تنكر له وخذله ؟

ولاشك أن هذا المنهج محوج إلى الصبر والمجاهدة وتتبع أحوال النفـــس مع كل مرحلة من مراحل المعنى ، يرصدها ويكشف عن قيمتها ، وبهذا يمكـــن تذوق البيان ومعرفة أسراره ، أما العجلة والنظرة العامة والتسرع فى إصـــدار الأحكام ، فذلك مفسدة للفكر والعلم أىّ مفسدة !!

السبيل إلى تذوق أثر التمثيل – كما بينه الإمام – يحتاج إلى مرحلتين :

الأولى : النظر إلى المعنى قبل التمثيل ، ومعرفة موقعه فى النفس .

والثانية : النظر إليه بعد التمثيل ، ومعرفة موقعه فى النفس .

فالبيت الأول من بيتى البحترى ينسب للممدوح حالتين متقابلتين ، هو فى الأولى دان قريب من طالب الحاجات ، وفى الثانية شاسع بعيد عن أن يكـــون له نظير ، وهذا أمر فيه غرابة ؛ إذ كيف يكون قريبا بعيدا فى آن ؟ وهكذا تقف النفس من المعنى فى البيت الأول موقف من ساق لها خبرين متناقضين ، فأهاجها وتركها تترقب شيئا يزيل هذا التناقض ، ويثبت صدق تلك الدعوى . وإلى هنا ينقضى حال النفس مع المعنى قبل التمثيل ، ثم يجئ التمثيـــل فيثبـــت صـــدق الدعوى حين يشفعها بشاهد يشهد لها ، ويقطع بأن كون الشئ قريبا بعيـــداً فى آن ممكن ، وضرب له مثلا بالبدر ، فهو بعيد عن الناس فى منـــزلته ومكانتـــه ، قريب منهم بضوئه الهادى ونوره المنير . وقد أعطى التمثيل الممدوح فضلا آخر ، فهو ذو شهرة تملأ الدنيا كلها ، وهل يخفى القمر ؟ ثم إن جـــوده عـــمَّ حـــتى

لا يحجبه شئ عن شئ فالكل فى حق الانتفاع به سواء ؛ وبهذا نزل التمثيل من البيت الأول منزلة المؤيد الناصر، وكان الفرق بين المعنى قبل التمثيل وبعده ، كالفرق بين الشك واليقين ، وكالفرق بين الأمر يحار العقل فيه ويتردد ، والأمر الثابت المرئى رأى العين ، ويا بُعْدَ ما بينهما !

وأما صنيع التمثيل فى باب الهجاء ، فقال عنه الإمام :

(وإن كان ذما كان مَسُّهُ أوجعَ ، ومِيْسَمُه ألذعَ ، ووقعُه أشدَّ ، وحدُّه أحَدّ) [1] ، ثم ذكر له خمسة شواهد جرى فيها على منهجه السابق فى تذوق أثر التمثيل ، ومن شواهده قوله : (وكذلك فتعَهّدِ الفرقَ ...... والفَصْلَ بين أن تقول " أرى قوما لهم بهاء ومنظر ، وليس هناك مخبر ، بل فى الأخلاق دقة ، وفى الكرم ضعف وقلة " = وتقطعَ الكلام ، وبين أن تُتبعَه نحوَ قول الحكيم : " أما البيت فحسن ، وأما الساكن فردئ " ، وقول ابن لنكك :

فى شَجرِ السَّرْوِ منهـمُ مَثَلٌ　　لـــــــه رُوَاءٌ وماله ثَمَرُ

وقول ابن الرومى :

فغَدا كالخِلافِ يُـورقُ للعَيـ　　ـنِ ويَأْبَـى الإثمارَ كُلَّ الإباءِ

وقول الآخر :

فإنْ طُرَّةٌ راقتْكَ فـانظُرْ فرُبَّما　　أَمَرَّ مَذاقُ العُودِ والعُودُ أَخْضَرُ

وانظر إلى المعنى فى الحالة الثانية كيف يُورقُ شجرُه ويُثمر ، ويَفْتَرُّ ثَغْرُه ويَبْسِمُ ، وكيف تَشْتَارُ الأَرْىَ من مَذَاقته ، كما ترى الحسن فى شارَتِه) [2] .

([1]) أسرار البلاغة : ١١٥ ت . شاكر .

([2]) السابق : ١١٧ ، ١١٨ بتصرف .

وقوله فى بداية هذا النص (فتعهد الفرق .. والفصلَ بين أن تقول ..) مَعْلَم دال على أن التذوق يقوم على (تعهد) الكلام ورعايته بإطالة النظر فيه والتدبر فى فروقه ، كما يتعهد الزارع زرعه بالسقى والرعاية حتى يثمر ، وكما يتعهد الصانع صنعته فيكون أعلم بدقائقها وأحوالها .

الإمام يدعو المتذوق الذى يريد أن يطلع على أقدار البيان إلى أن يقلبه على وجوهه ، فيذكر ويحذف ، ويقدم ويؤخر ، ويبنى ويهدم ، ويجئ به تارة غفلا ساذجا ، وتارة ممثَّلا مصوَّرا ، ثم يفتح لعقله أبواب النظر ليقارن بين المعنى فى حاليه ، فتنكشف براعة المذكور من خلال تجربته محذوفا ، وبراعة المؤخَّر من خلال تجربته مقدما ، وهكذا .

فإذا أردنا أن نعرف قيمة التمثيل فعلينا أن ننظر إلى المعنى غفلاً ساذجا بدونه كما فى (قولك : أرى قوما لهم بهاء ومنظر ، وليس هناك مخبر ، بل فى الأخلاق دقة ، وفى الكرم ضعف وقلة) [وتقطع الكلام] ، أى تسكت ، وتنهى كلامك ، لترى أنه مجرد إخبار ليس فيه ما يغرى النفوس ويوقظها ، ثم يعود الإمام إلى تجربة أخرى فى هذا المثال ، وهى أن تقوله هو هو ، بحروفه ، ثم تُتبِعَه قول الحكيم (أما البيت فحسَن ، وأما الساكن فردئ) ، أو تنشد أيّاً من الأبيات الثلاثة التى أوردها ؛ فإنك تراك فى هذه الحالة أثبت له بما ذكرت شاهداً أو دليلا يمده بأسباب القوة ، ويشفع له ، ويحامى عنه ، ويضرب له من واقع الحياة وما تقع عليه الحاسة مثلا . وقد جعل الإمام القول المجرد قبل أن تشفعه بأى من هذه الأمثلة كالشجرة العقيم لا تُورق ولا تُثمِر ، كما جعله كالعابس الصامت ، لا يستوقف الناس بجمال مظهره ؛ لأنه عابس ، ولا ببديع

بيانه ؛ لأنه صامت ؛ فلما شفع هذا القول المجرد بمثال من هذه الأمثلة ، أورق شجر المعنى وأثمر ، وافتر ثغره وبسم .

ثم أبان الإمام عن صنيع التمثيل فى أغراض (الحجاج ، والافتخار ، والاعتذار ، والوعظ) ، وسار على طريقته السابقة ، وإن استشهد للحجاج والوعظ دون الافتخار والاعتذار [1] .

ولوحظ أن الشواهد التى ساقها الإمام (ليخبر عن صنيع التمثيل ، ويخبر عن حال المعنى معه) [2] ،جميعها من قبيل التمثيل الواقع فى أعقاب المعانى ، إلا شاهدا واحدا من قبيل التمثيل الذى يَبْرُزُ المعنى ابتداءً فى صورته ، أورده الإمام ثانى شاهدين لصنيع التمثيل فى الحجاج ،قال (وكذلك فرّق فى بيت المتنبى :

ومَنْ يكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ   يَجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

لو كان سلك بالمعنى الظاهر من العبارة كقولك : " إن الجاهل الفاسد الطبع يتصور المعنى بغير صورته ، ويخيَّل إليه فى الصواب أنه خطأ " ، هل كنت تجد هذه الروعة ، وهل كان يبلغ من وَقْمِ الجاهل ووَقْذِه ، وقمعه وردعه والتهجين له والكشف عن نقصه ، ما بلغ التمثيل فى البيت ، وينتهى إلى حيث انتهى ؟) [3] .

وتناول الإمام لهذا الشاهد كشف عن طريقة تذوق أثر التمثيل فى هذا الضرب ، وذلك بتجريد المعنى عن التمثيل ، وافتراض عبارة لهذا التجريد ، ثم التروّى (فروّ) والتأنى فى استبصار ما بين البيت والعبارة بعد نزع ثياب التمثيل

---

(1) ينظر أسرار البلاغة : ١١٥ ، ١١٦ ت . شاكر ،وحاشية تعليق الشيخ محمد رشيد رضا : ص ١٠٤ .

(2) أسرار البلاغة : ١٢١ ت . شاكر .

(3) أسرار البلاغة : ١١٩ ت . شاكر . و (الوقم : فيه معنى الرد والإذلال والقهر . والوقذ فيه معنى الضرب المفضى إلى الضعف والاسترخاء) [عن حاشية تحقيق الأستاذ شاكر] .

عنها من فروق ، من حيث الروعة فى عرض المعنى فى معرض يصطاد النفوس ، ويسحر الأبصار ، وكأنه ملأ الرَّوْع ، وتسرب فى أرجاء النفس ، فعُبِّر عن فعله هذا بـ (الرَّوْعة) ، ثم من حيث قوة التأثير فى غرض الحجاج ورد خطأ الجاهل وقمع سورته . وبهذا نرى أن الإمام استوفى فى طريقته لتذوق أثر التمثيل جانبى (اللفظ والمعنى) ، فنظر إلى ما فى التمثيل من سطوة العبارة وزينتها وحسنها ، فعبر عنها هنا بـ (الروعة) ، وعبر عنها فى الضرب الأول بأنك فى التمثيل (تَشْتار الأَرْىَ من مَذَاقته ، كما ترى الحسن فى شارته) ، أى تقطف منه لذة المعنى ، وحلو مذاقه ، كما تمتع ناظريك بحسن عرضه وصورته ، وزينة كسوته وبَزَّته . كما نظر إلى ما فى التمثيل فى ضربيه من إصابة المعنى والوفاء بحق الغرض .

وللأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا فى حاشيته على متن الإمام فى صنيع التمثيل فى المعانى – جهد بارز ، وفكر سديد ، نظر إلى أن الإمام عُنِى بالضرب الذى يقع التمثيل فيه فى أعقاب المعانى ، ولم يُعْنَ بالضرب الثانى ، ولذا أورد الأستاذ كثيراً من الشواهد التى جاء فيها المعنى ابتداءً فى صورة التمثيل ، مقتفياً أثر الإمام فى تتبع الأغراض التى مثل لها ، وهى المدح والذم والحجاج والوعظ [1] ، فتألق فكر الأستاذ ، وكانت حواشيه هنا كأنها قريع فكر الإمام فى متنه .

كما وقف الشيخ رشيد وقفة ثانية عند قول الإمام (وهكذا الحكم إذا استقريت فنون القول وضروبه ، وتتبعت أبوابه وشعوبه) [2] . ففصل كلام الإمام وأورد شواهد لصنيع التمثيل فى كثير من الأغراض ، كالغزل والرثاء والوصف والشكوى ، فأفاد وأجاد [3] .

---

(1) ينظر أسرار البلاغة : ٩٦ – ٩٩ بتعليق الأستاذ محمد رشيد رضا .
(2) أسرار البلاغة : ٩٩ ، ١٠٠ ت . رشيد رضا ، و ص ١١٦ ت . شاكر .
(3) ينظر أسرار البلاغة : ١٠٠ ، ١٠١ ت . رشيد رضا .

وهذه الوقفات وأمثالها من جهد الشيخ محمد رشيد رضا ، جديرة بأن تجمع وتؤلف ، ليظهر فيها جهده البلاغى ، الذى تمس الحاجة إليه فى الكشف عن أطراف من مبهمات الإمام عبد القاهر ومشكلات كتابية ؛ ولذا بقى نشوه لهذين الكتابين أصلاً لا يغنى عنه غيره من النشرات والتحقيقات ، على كثرتها وتعدد مناحيها ، وبراعة إتقانها وتحريها ، وبخاصة تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر - رحمه الله - وكم كنت أود لو جمع الأستاذ شاكر بين دقته الفائقة فى التحقيق والكشف عن المخطوطات واتصال سياق العبارات فى الكتابين ، وبين تعليقات الشيخ رشيد التى تفك أطرافا من مشكلات الكتابين وتنير السبيل للباحثين فى فكر الإمام ...... ولكن الأستاذ شاكر عدل عن ذلك ، وقال فى مقدمة تحقيق دلائل الإعجاز : (وعندما بدأت قراءة الكتاب ونشره ، كانت نيتى أن أستبقى جميع تعليقات الشيخ رشيد - رحمه الله - ففعلت ذلك فى أوائل الصفحات ، ثم أضربت عن ذلك ، لقلة فائدة هذه الحواشي ، ولكيلا يختلط عملى بعمل غيرى ؛ ولكنى لم أخل تعليقاتى من الإشارة إلى تعليقاته ، رحمه الله)[1] ، فأما قوله (لكيلا يختلط عملى بعمل غيرى) ، فهذا له ، وإن كان العلامة من قوة العارضة فى هذا الباب ، ومن نبوغه وتفرده وإتقانه ، بحيث لا يعدم وسيلة تميز عمله عن عمل الشيخ رشيد ، رحمهما الله جميعا . وأما قوله (لقلة فائدة هذه الحواشى) ، فهذا حكم نسبى ، ولعلها كانت قليلة الفائدة بالنسبة للعلامة شاكر وسعة ثقافته وغزارة اطلاعه ودقيق نظره ، ولكنها بالنسبة لى ، ولأمثالى ، ولأجيال ناشئة من الباحثين جاءت (بعقول ضعيفة مُسْتَرَكَّة)[2] - كما يقول

تعليقات الشيخ محمد رشيد رضا تفك أطرافا من مبهمات كتابى الإمام

([1]) دلائل الإعجاز (مقدمة تحقيق الأستاذ شاكر) : صفحة (ك) .

([2]) دراسة فى البلاغة والشعر د . محمد أبو موسى ص ٣ نشر مكتبة وهبة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

شيخنا الدكتور محمد أبو موسى - فهى نور يضئ الطريق إلى فهم كلام الإمام ، ويزيل الأشباح والعقبات التى تقف فى طريق إدراكه لمرامه وفكره الهادر وقلمه السيَّال .

تشابه كلام الإمام فى صنيع التمثيل فى هذا الموضع ،وكلامه فى صنيع الاستعارة

والموضع الثانى : عند حديثه عن التمثيل حين يجمع بين المتباعدين . وقد ارتقى الإمام بالتمثيل هنا إلى أن قال فيه مثلما قال فى صنيع الاستعارة حين تُنْطِقُ الأخرس ، وتبعث الحياة فى الجماد ، وتعمل عمل السحر فى النفوس ، وكأن الإمام يرى أن التمثيل فى هذه المواقع يكاد يرتقى إلى الاستعارة ، ويوشك أن يلامس أطرافها ، ويَفْرِىَ فريَّها ، وأضع هنا كلام الإمام فى صنيع التمثيل ، وبجواره كلامه فى صنيع الاستعارة ، حتى يستبين الأمر :

قال فى التمثيل حين يجمع بين المتباعدين فى الجنس :

(وهل تشك فى أنه يعمل عمل السحر فى تأليف المتباينين ، حتى يختصر بُعْدَ ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المُشْئِم والمُعْرِق . وهو يريك للمعانى الممثَّلَة بالأوهام شبها فى الأشخاص الماثلة ، والأشباح القائمة ، ويُنْطِقُ لك الأخرس ، ويُعطيك البيانَ من الأعجم ، ويُريك الحياة فى الجماد ، ويُريك التئام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين ، كما يقال فى الممدوح : هو حياةٌ لأوليائه موتٌ لأعدائه ، ويجعل الشئ من جهةٍ ماءً ، ومن أخرى نارا ، كما يقال :

أنا نارٌ فى مُرْتَقَى نَظَرِ الحا ... سدِ ، ماءٌ جارٍ مع الإخوانِ

.........) [1] .

([1]) أسرار البلاغة : ١٣٢ ت . شاكر .

وقال فى صنيع الاستعارة بعدما ذكر أنها أسحرُ سحراً :

(فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا ، والأعجمَ فصيحاً ، والأجسامَ الخُرْسَ مُبينةً ، والمعانىَ الخفيةَ واضحةً جلية ، وإذا نظرتَ فى أمر المقاييسِ وجدتها ولا ناصرَ لها أعزُّ منها ، ولا رونقَ لها ما لم تَزِنْهَا ، وتجد التشبيهات على الجملة غير معجبة ما لم تَكُنْها . إن شئتَ أرتك المعانىَ اللطيفة التى هى من خبايد العقل ، كأنها قد جُسِّمَتْ حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون) [1] .

فهل يقع هذا التشابه بين صنيع التمثيل والاستعارة فى كلام الإمام ، إلا إذا كانا يخرجان من مشكاة واحدة ، ويجريان من نبع واحد ؟

وإذا كانت هذه المعانى شركة بين التمثيل والاستعارة ، فما الفرق إذاً بينهما ؟ لاشك فى أنه يكمن فى كون التمثيل يجمع بين هذه الأشياء دون أن يغير طبائعها وحقائقها ، فهو يوجد شبها بين الأخرس والناطق ، والحيوان والجماد ، بخلاف الاستعارة ، فإنها تحول الأخرس ناطقا ، والجماد حيا ، فبراعة التمثيل فى أنه يجمع هذه المتشابهات البعيدة فى ربقة واحدة ، فيلامس بذلك حدود الاستعارة التى تخيل على سبيل الادعاء أن أحد المتشابهين هو صاحبه بعينه ؛ ولذا ركز الإمام فى صنيع التمثيل فى النص السابق على أنه (تأليف) وأنه (يختصر البعد) أى المسافة الشاسعة بين المتباينين ، كما ركز كثيراً على أنه مجود جمع (يجمع بين المشئم والمعرق .. يأتيك بالحياة والموت مجموعين ، والماء والنار مجتمعين) ، فالتمثيل مهما ارتقى وعمل عمل السحر ، براعته فى التأليف والجمع ، بخلاف الاستعارة .

---

(1) المصدر السابق : ٤٣ ت . شاكر .

والموضع الثالث : عند ذكر الإمام أن مستخرج الشبه اللطيف مستحق للمدح ، قال : (ثم على حسَب دقة المسلك إلى ما استُخْرِج من الشبه ، ولُطْفِ المذهب ، وبُعد التصعُّدِ إلى ما حصل من الوفاق ، استحق مُدْرِكُ ذلك المدحَ ، واستوجب التقديمَ ، واقتضاك العقلُ أن تُنوِّه بذكره ، وتقضى بالحسنى فى نتائج فكره . نعم ، وعلى حَسَب المراتِب فى ذلك أعطيته فى بعضٍ منزلةَ الحاذق الصَّنَع ، والمُلْهَم المؤيَّدِ ، والألمعَى المُحدَّث = الذى سبق إلى اختراع نوع من الصنعة حتى يصير إماما ، ويكون من بعده تبعا له وعيالاً عليه ، وحتى تُعْرَفَ تلك الصنعةُ بالنسبة إليه ، فيقال : " صنعه فلان " ، و " عمل فلان " = ووضعتَه فى بعضٍ موضع المتعلم الذكى (١) ، والمقتدى المصيب فى اقتدائه ، الذى يُحسن التشبه بمن أخَذ عنه ، ويجيد حكاية العمل الذى استفاد ، ويجتهد أن يزداد) (٢) .

وهذا نص سخى ، كشف عن موضع المصيب فى التشبيه من الإحسان ، وأنه يتسنم منزلة الرواد المخترعين ، والأئمة الأفذاذ ، الذين لا يكون من بعدهم إلا تبعاً لهم وعيالاً عليهم ؛ لأنهم يغيرون بمواهبهم وجوه المعانى ، كما يغير المبتكرون باختراعاتهم فى العلوم الحسية واقع الماديات ، فتبدو الحياة فى كل جيل بصورة إذا قيس بها ما حققه الجيل السابق لا يزن شيئا . ومخترعات المعانى لا تقل شأنا عن مخترعات الماديات ، فالذى يبتكر التشبيه كالذى يبتكر الآلة ، الأول يُعرَف بذلك التشبيه الفذ الذى هُدِى إليه ، فيقال " هو صنعة فلان "

---

(١) السياق : " أعطيته فى بعضٍ منزلة الحاذق ...... ووضعته فى بعض موضع المتعلم " ، ولم ينبه عليه الأستاذ شاكر لوضوحه .

(٢) أسرار البلاغة : ص ١٥٠ ، ١٥١ .

و " عمل فلان " ، كما يقال للثانى إن الآلة " هى صنعته " وهى " عملـــه " ؛ ولذلك كان الشاعر يفتخر بمعنى هدى إليه ، بل إنه لا ينسب المعنى إليه ، وإنما ينسب نفسه إلى المعنى المختار ، (قال أحمد بن أبى فنَنَ : أنا ابن قولى :

صَبٌّ بحب مُتَيَّمٍ صَــبِّ	حبيـــه فـوق نهاية الحُبِّ
أشكو إليه صنيعَ جُفُونِهِ	فيقول ، مُتْ ، فأيْسَرُ الخَطْبِ
وإذا نظرتُ إلى محاسنه	أخرجْتُه عَطـــلاً من الذّنبِ
أدميتُ باللَّحْظَاتِ وَجْنَتَهُ	فاقتصَّ ناظرُه مـن القلبِ) [1]

صعوبـــة الابتكـــار والتجديد فى التشبيه

ولا ينال هذه المنزلة فى عالم التشبيه كل من شبه أو مَثَّل ، بل لا ينالهـــا على التحقيق فى كل جيل إلا أفراد معدودون ، وهذا مرمى بعيد على من رامـه من حذاق البيان ، لا تكاد تحصى للشاعر المجيد فيه إلا التشبيه بعد التشـــبيه ، والمكثر فى ذلك قليل من قليل . ثم إن هذا المرمى أشد بُعدا على الباحث حـــين يروم تتبع وإحصاء أبكار التشبيهات عند شاعر ؛ لأنه يتطلب خبرة واطلاعـــاً واسعين ، ومعرفة عميقة بالتشبيهات التى طرقها الشعراء قبل شـــاعره ، حـــتى يمكنه أن يحدد ما لشاعره من ابتكار . وهذا باب واسع طرقـــه أبـــو هـــلال العسكرى فى سِفْرٍ نفيس من أمتع دواوين الأدب ، سماه (ديوان المعـــانى) ، ولم يقصره على سوابق التشبيهات ، بل جمع فيه سوابق المعانى فى كل غرض ، فكان فى بابه آية ، قال أبو هلال : (جمعت فى هذا الكتاب أبلغ ما جاء فى كل فـــن ، وأبدع ما روى فى كل نوع من أعلام المعانى وأعيانها إلى عواديها وشـــذاذها ، وتخيرت من ذلك ما كان جيد النظم ، محكم الوصف ، غير مهلـــهل رخـــو ، ولا متجعد فج) [2] .

([1]) البيت الأخير من شواهد دلائل الإعجاز ص ٤٨٦ ، والنص من تهذيب تاريخ دمشق الكبير للحافظ ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) : ٢ / ٢٨٥ هذبه الشيخ عبد القادر بدران (ت ١٣٤٦ هـ) ط . دار المسيرة ط . ثانية ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

([2]) ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى : ١ / ٧ صححه المستشرق د . كرنكو ، نشر مكتبة المقدسى ١٣٥٢ هـ .

تلك هى المنزلة الأولى التى يرتقى إليها من استخرج الشبه اللطيف ، ودونها منزلة أخرى – كما بين الإمام عبد القاهر فى النص السابق – ينالها (المتعلم الذكى ، والمقتدى المصيب فى إقتدائه ، الذى يحسن التشبه بمن أَخَذ عنه ، ويجيد حكاية العمل الذى استفاد ، ويجتهد أن يزداد) هكذا قال الإمام ، يحدد منزلة من لم يَسْمُ إلى سماء الابتكار ، فاقتدى بالأئمة المبتكرين ، فأجاد الاقتداء ، وأحسن التأسِّى ، وأصاب فى التشبيه ، ثم ارتقى درجة مهمة جداً (فاجتهد أن يزداد) أى يزيد فيما ورث من صور التشبيه وأبكاره ، فيضع له فيها أثراً من الحسن يزيدها ويطورها ويرفدها برافد من نفسه السخية ، فله بما بذل فى آثار سابقيه من نور عقله ، وكده ، وصبره ، منزلة من الإجادة ، ودرجة من التفوق .

" التشبيهات العقم " موضوع بحث جاد

وقد أورد ابن رشيق (ت ٤٥٦ هـ) طائفة من التشبيهات التى سمت إلى المنزلة الأولى ، وعرف لها قدرها الأكبر ، ونورها الأنور ، وسماها (التشبيهات العُقْم) ؛ لأنها لم تولد من أرحام تشبيهات سابقة قاست عليها وحذت حذوها ، كما أنها –وهذه إضافة ابن رشيق– بقيت خالدة أبكاراً أبداً ، لم يتعد أحد عليها ، ولا طاف حولها طائف ، ولا جرى فى ركابها سابق ، فكان كل منها أصلا لا فرع له ، ووالداً لا ولد له ، قال ابن رشيق : (ومن التشبيهات عُقْمٌ ، لم يُسْبَقْ أصحابها إليها ، ولا تعدَّى أحد بعدهم عليها ، واشتقاقها فيما ذُكِر من الريح العقيم ، وهى التى لا تلقح شجرة ، ولا تنبت ثمرة) [1] .

---

(1) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق : ١ / ٢٩٦ ت . محمد محيى الدين عبد الحميد ط . دار الجيل ط . خامسة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

ثم أورد ابن رشيق اثنى عشر شاهدا من الشعر لهذه التشبيهات العقم ، منها قول عَدِىّ بنِ الرِّقَاع العاملىّ ، يصف قَرْنَ ظبى ، وهو من أشهر هذه التشبيهات :

تُزْجِى أَغَنَّ ، كأنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ

قَلَمٌ أصابَ من الدَّوَاةِ مِدَادَها

وهذا النمط الصعب من التشبيهات فى حاجة إلى دراسة خاصة تفرغ له ، وتنهض بحقه ، وتكشف عن سمات النبوغ فيه ، وكيف أنه سابق غير مسبوق ، وفذ غير ملحوق ، كيف وقف شامخا يتحدى العقول أن تتعدى عليه ، ويستثير فى كل جيل عزائم الموهوبين فيه فلا تصل إلى سمائه ، ولا تجسر على حماه ؟ أوَ معجزٌ هو ؟ إنما المعجز القرآن الكريم ، كلام الله ، الذى لا تأتى بمثله الإنس والجن (قُلْ لئنِ اجْتَمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يَأتُوا بمِثْلِ هذا القُرآنِ لا يَأتُونَ بمثْلِهِ وَلوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعضٍ ظَهِيراً) [1] !

ولكن ، كيف تقف عقول الأجيال حيرى تتلدَّد أمام هذه التشبيهات ؟ وكيف تطغى عبقرية وتحكم باقتدارها على معنى فتجعله حراما على غيرها ؟ ثم كيف عقمت هذه العبقريات الطاغية المستبدة ، وأخلدت إلى الأرض لما سطعت شمس القرآن الكريم وأشرقت أنواره فطمست أنوارها ؟

موضوع " التشبيهات العقم " فى حاجة إلى دراسة بلاغية جادة ، ولا يصدنك عنه قله شواهده التى أوردها ابن رشيق ، لأن له شواهد أخرى ، أنت - لاشك - واقف عليها ، وواضع يدك على خِزانتها التى لم تُفَضَّ أختامها ، وقد قال ابن رشيق بعد ما أورد شواهده الاثنى عشر : (وفى الشعر من هذا

---

(1) سورة الإسراء : ٨٨ .

صدر جيد) [١] ، أى أن له شواهد أخرى جعلها الشيخ (صـــدرا) ، ووسمـــها بالجودة ، وهى حقا صدور جياد ، وسوابق لا تُبَذُّ ، ولكن أين من يجى هـــذا الباب ، وينقب عن مستودعاته :

وإنَّ جَسِيماتِ الأمورِ منوطةٌ

بمُسْتودَعاتٍ فى بُطونِ الأَسَاوِدِ [٢]

* * *

الزمخشـــرى ووصف جـامع لصنيـــع التمثيل

وللعلامة جار الله الزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ) وصف جامع لما يفعلـــه التشبيه ، ينبئ عن مزيد شرفه وموفور فضله ، قال : (ولضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء المُثُلَ والنظائر ، شأن ليس بالخفى فى إبراز خَبِيَّات المعـــانى ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل فى صورة المحقق ، والمتوهـــم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد . وفيه تبكيت للخصم الألـــدّ ، وقمـــع لسورة الجامح الأبىّ ، ولأمر ما أكثر الله فى كتابه المبين وفى سائر كتبه أمثالَـــه ، وفشت فى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الأنبياء والحكمـــاء ، قال الله تعالى : " وتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ وما يَعْقِلُهَا إلا العَالِمُونَ " [٣] ، ومن سور الإنجيل سورة الأمثال) [٤] .

التشـــبيه وإبـــراز خبيـــات المعانى

وفى هذا النص يكشف جار الله عن ظهور أثر التشبيه ، وبخاصة فى بابين مهمين :

أولهما : (إبراز خبيَّات المعانى) ، أى أن هذا الفن كَلِفٌ جدا بتلـــك الخبيَّات من المعانى ، فلا يَنصَب ولا يَتْعب فى طلب المعانى السافرة القريبة ، بـــل

---

(١) العمدة : ١ / ٢٩٩ .

(٢) البيت فى ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى : ١ / ١٣ بدون نسبة .

(٣) سورة العنكبوت : ٤٣ .

(٤) الكشاف : ١ / ١٩٥ .

بابه الأهم ، ووَكْدُه ، وعزمه ، كل ذلك مصروف إلى (خبيَّات المعانى) المستترة التى تحتاج إلى من يكشف خباءها ، ويميط اللثام عن حـر معادنها ، وبيض وجوهها التى طالما احتجبت . هو باب المغامرين أولى القوة ، الذين لا يقنعون بالظاهر المكشوف ، وإذا دخل غيرهم ساحته فهو دعىٌّ يقول فيُلْغَى ما يقول ولا يحفظ ، كما قال شيخ المعرة :

من الناس مَنْ لَفْظُه لُؤْلُؤٌ
يُبَادِرُهُ اللفظُ إذْ يُلْفَظُ
وبعضُهمُ قولُه كالحصَا
يُقالُ فيُلْغَىٰ ولا يُحْفَظُ (١)

التشبيه وإنقاذ الحقائق من الأباطيل

وثانيهما : (رفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل فى صورة المحقق ، والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد) ، وهذا يعنى أن الحقائق دونها أستار من الزيف والأكاذيب والضلالات ، وأن التشبيه رافع هذه الأستار ومزيلها ، هو المخلص للحقائق المنقذ لها من الأباطيل ، وهل يقدر على ذلك إلا قوىّ فاتك ، يستحوذ على العقول بنفاذ قوته وبالغ سطوته ؟

سطوة التشبيه

ومن مظاهر سطوة التشبيه أنه يقتنص الخواطر وهى شوارد خيال وخيوط لم تنسج ، فإذا به يجمعها ، ويلتقطها ، ويحكم قبضته عليها ، فيصورها بمقدرته الفائقة كأنها الحقائق الثابتة ، فيصف الغيب كما يصف المشاهدة ، فكلاهما فى قبضته وحسن بيانه عنهما سواء .

(التشبيه يزيد الحياة حياة)

وإذا كان التشبيه يغوص عن حقائق الأشياء ، فهذا يعنى أنه ليس مجرد إلحاق الشئ بما يشاكله فى الظاهر ، بل هو إحساس بطبائع الأشياء ، وحقائقها ،

---

(١) اللزوميات لأبى العلاء المعرى : ٢ / ١١٢ ط . دار صادر .

وتعبير صادق عن حركتها فى الحياة ، فهو كما وصف العقاد فى قوله (إذا كان وَكْدُكَ من التشبيه أن تذكر شيئا أحمر ، ثم تذكر شيئين أو أشياء مثله فى الاحمرار ، فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شئ واحد ، ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك . ما ابتُدِع التشبيه لرسم الأشكال والألوان ؛ فإن الناس جميعا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطربا مؤثرا ، وكانت النفوس تواقة إلى سماعه واستيعابه ؛ لأنه يزيد الحياة حياة ، كما تزيد المرآة النور نورا) [1] .

وهكذا يكون الشاعر (عميق الفكرة نافذها ، رحب الأفق ، يرى حقائق الأشياء من خلال ظواهرها التى يراها الناس ، وينفذ إلى أسرارها فيرى ما لا يراه الناس ... يقول أحمد محرم فى قصيدة عميقة يتحدث فيها عن الشاعر ورسالته :

أطلِقْ الوصفَ وقُلْ ، جُنَّ القَلَمْ ... ليس للشاعر وصفٌ يُلْتَزَمْ
مستبدٌّ ، يحسب الدنيا له ... وهو خَصْمُ المستبدِّ المحتكمْ
ينظر النظرة تستقصى المَدَى ... وثُرِيهِ النورَ يجرى فى الظُّلَمْ
فيلسوفٌ ، كشف الله له ... عن خفايا كل سرٍّ مُكْتَتَمْ
طامحٌ ، يَرمى السماوات العُلَى ... بجَناحَى طائرٍ ، طاغى الهِمَمْ
فإذا ما أخذته لمحَةٌ ... من جلال الفن أغضى واحتشَمْ

[1] الديوان فى الأدب والنقد للعقاد والمازنى : ص ٤٥ ، ٤٦ ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ م) .

هو عبدُ الفنِّ ، والنـــاسُ لهُ في حِمَى الفنِّ عبيدٌ وخَدَمْ
يَسالُ الأقوامُ ، ما عُنْصرُه ؟ هو من نُورٍ وعِطْرٍ ونَغَمْ) [1]

ولاشك أن حظ الشاعر من المعرفة وخبرته بالحياة والأحياء ينطبع على تشبيهاته وعلى سائر أساليبه ، (وكلما زادت المعرفة بالكون وخفاياه ، كلمـا برع التشبيه ؛ ولذا نجد التشبيه القرآنى فى القمة ؛ لأن منـزلة عليم خبير ، ثم التشبيه النبوى لصفاء الفطرة المحمدية ، وذكاء العقل ، وإلهام النبوة ، والتـأثر بالقرآن) [2] .

(إذا قـال الشاعر) كـأن (فقـد ظـهر فضلـه أو جهله)

ولأن التشبيه يتطلب هذا القدر الواسع من المعرفة والعمـق ، كـان صعب المرتقى ، شديداً على من رام الإجادة فيه ؛ ولذا قال ابن ظـافر الأزْدِىّ (ت ٦٢٣ هـ) إن (فن التشبيه بين الأشعار عالى القدر ، نابه الذكـر ، لا يمكن كل الناس سلوك جادته ، ولا يقدر إلا اليسير منهم على إجادته ، حـتى استهوله أكثر الشعراء واستصعبه ، وأبى بعضهم أن يجهد بأن يروض مصعبـه ، وقالوا : إذا قال الشاعر " كأن " فقد ظهر فضله أو جهله) [3] .

فالتشبيه إذاً مقياس أصيل يعرف به قدر الشاعر ، قال ابن الأثير (إنـه بين أنواع علم البيان مستوعر الذهب ، وهو مَقْتَلٌ من مقـاتل البلاغـة ...... وقلما أكثر منه أحد إلا عَثَر ، كما فعل ابن المعتز من أدباء العراق ، وابن وكيع من أدباء مصر ؛ فإنهما أكثرا من ذلك ، لاسيما فى وصف الرياض والأشجار ، والأزهار والثمار ، لا جرم أنهما أتيا بالغث البارد الذى لا يثبت علـى محـك الصواب) [4] .

---

(1) جريدة الأهرام من مقال للدكتور محمد إبراهيم الجيوشي : ص ٣٥ بتاريخ ٦ جمادى الأولى ١٤٢١ هـ ـ ٦ أغسطس ٢٠٠٠ م . والأبيات فى ديوان أحمد محرم : جـ١ مطبعة الفتوح الحديثة ١٣٣٨ هـ/ ١٩٢٠ م

(2) دراسات فى علم البيان والتشبيه القرآنى د . صبّاح دراز : ص ١٢ ط ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

(3) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لعلى بن ظافر الأزْدِىّ المصرى : ص ٧ ت . د / مصطفى الصـاوى الجوينى و د / محمد زغلول سلام ط . دار المعارف .

(4) المثل السائر : ١ / ٣٧٨ .

مدخل إلى المجاز

عالمية الحقيقة والمجاز :

المجاز شقيق الحقيقة ، وهو يد تطول بها اللغة حبائس الصدور ، وهو نصف الحياة ؛ لأنه ما من شئ إلا وهو حقيقة أو خيال ، فلما اقتسما حياة الناس ، اقتسما لغاتهم ، فكان للحقيقة شطر اللغة – أىّ لغة – وللمجاز شطرها الثانى ، وكأنهما فرسا رهان ، فكلاهما سابق ، وكلاهما مسبوق .

وكان الإمام عبد القاهر ذا بصيرة نافذة حين نبه على أن الحقيقة والمجاز مما تشترك فيه جميع اللغات ، فقال فى بيان حدَّى الحقيقة والمجاز : (كل كلمة أُرِيدَ بها ما وقعت له فى وضع واضع = وإن شئت قلت : فى مواضعة = وقوعا لا تستند فيه إلى غيره فهى " حقيقة " ...... وأما المجاز ، فكل كلمة أُريدَ بها غير ما وقعت له فى وضع واضعها ، لملاحظة بين الثانى والأول ، فهى " مجاز ") [1] ، ثم قال إن (وصف اللفظة بأنها حقيقة أو مجاز ، حكم فيها من حيث إن لها دلالة على الجملة ؛ لا من حيث هى عربية أو فارسية أو سابقة فى الوضع ، أو مُحدَثةٌ مولَّدة . فمن حق الحدِّ أن يكون بحيث يجرى فى جميع الألفاظ الدالة . ونظير هذا نظير أن تضع حدا للاسم والصفة ، فى أنك تضعه بحيث لو اعتبرت به لغة غير لغة العرب ، وجدته يجرى فيها جريانه فى العربية ؛ لأنك تَحُدُّ من جهةٍ لا اختصاص لها بلغة دون لغة) [2] .

وهكذا جعل الإمام تعريفه للحقيقة والمجاز ساريا على كل لغة ، وكشف عن ضرورة الدقة والعموم فى تحديد " المصطلحات " ، بحيث يتعدى

---

(1) أسرار البلاغة : ٣٥٠ – ٣٥٢ بتصرف ، ت . شاكر .

(2) المصدر السابق : ٣٥٠ .

مفهوم " المصطلح " حاجز اللغة التى وضع فيها ؛ ليكون إرثا مشاعا وحدًا صادقا فى غيرها من اللغات ، وكأن واضع المصطلح يراعى فيه عالمية اللغة وعالمية الفكر ، فإذا أسس فى لغة قومه أساسا فإنه يؤسسه فى جميع اللغات .

فوضى المصطلحات المعاصرة وتحطيم ثوابت العلوم

ولاشك فى أن هذا أضبط لحركة العلوم والمعارف فى الفكر الإنسانى ، وهو السبيل القاصد إلى القضاء على (فوضى المصطلحات) التى أغرقت بسيولها العقول ، فلم يعد خافيا على ذى بصيرة ما جرَّته هذه الفوضى من غثاء المصطلحات التى شتت عقول الأمم ، فصار من العسير على المدقق فى علم واحد أن يحيط بطوفان الاصطلاحات الجديدة فى تخصصه وفى لغة أمته ، فكيف بذلك فى أكثر من فرع من فروع المعرفة ، وكيف به فى علوم أمة ، بله فى علوم الإنسانية ؟ ورحم الله الإمام عبد القاهر ؛ فما أشد سُخْفَ ونكارة كثير من هذه المصطلحات التى حطمت بميلادها ثوابت العلوم فى الأذهان ، فما نشأ مصطلح (فوضوى) جديد إلا على أنقاض مصطلح (صالح) قديم !!

طرف مما أصاب مصطلح (النقل) فى فن الاستعارة من فوضى

ومن نماذج تلك (الفوضى) ما أصاب مصطلح (النقل) فى فن الاستعارة ، وهو مصطلح قديم قدم هذا الفن ، فرأيناه يصير فى اصطلاحات عصرنا الميمون الطائر إلى أن يكون (نظريات) كثيرة ، من مثل (النظرية الاستبدالية للاستعارة) و (النظرية التفاعلية) و (النظرية السياقية) [1] ، ومن مثل (الانزياح الاستعارى) !! وما أكثر (الانزياحات) فى فوضى مصطلحات البلاغة المعاصرة عند الأقطاب الكبار من علماء (آليات النص) ، و (إشكالياته) و (تناصّه) !! وصار ذلك (ممدحة) للدارسين ، فهذه (دراسة نقدية "متميزة" !!! للدكتور مراد عبد الرحمن

([1]) ينظر " النظرية الاستبدالية للاستعارة " د . يوسف أبو العدوس : ٤٧ ، ٥١ ، ٥٢ . إصدار الحولية الحادية عشرة لكلية الآداب بالكويت ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .

مبروك عن "الانزياح فى النص الشعرى" حيث ينـــاقش مفـــهوم "الانزيـــاح" ومستوياته ، من ناحية التركيب والترابطات السياقية ... والترابطات الصياغية ... والانزياح الخطابى ، والانزياح الداخلى للنحو والاســـتعارة) [١] !!! وهكـــذا ابتليت العقول ، وابتليت الأمم معها بعواصف مـــن فوضـــى المصطلحـــات ، وقواصم من فوضى العقول ، حتى فار التنوُّر ، ونودى (لا عَاصِمَ اليَومَ مِنْ أمْرِ اللّهِ إلاَّ مَنْ رَحِمَ) [٢] .

كتابا عبد القاهر أسسا قواعد النظر فى علم بلاغة الألسنة عامة

إن الإمام عبد القاهر كان يتوخَّى العموم فى تحديد المصطلح ليشـــمل اللغات ، فكان ينظر بمقلة تصدُقه إذا رمق ، والآن – فقط – أدركـــت مـــراد الأستاذ العلامة محمود شاكر – طيب الله ثراه – حين قال عن كتابى الإمام إنهما (أسسا قواعد النظر فى علم بلاغة الألسنة عامة ، وبلاغة اللسان العربى المبـــين خاصة) [٣] .

ومن لطف الله بأهل العلم أن قيض لكتابى الإمام عبد القـــاهر الثلاثـــة الأعلام ، الشيخ الأستاذ محمد رشيد رضا ، والأستاذ العلامة محمود محمد شاكر ، وشيخنا الرائد الدكتور / محمد أبو موسى . فبالأول أشرقت شمس الكتابين بعد طول أفول ، وبالثانى – وكان أمة وحده – تألق هذا النور ، وعمَّ ، وبالثالث – وهو إمام عصره – دخل فكر الإمام عبد القاهر وأنفاسه ومنهجه فى التـــذوق عقول المخلصين من الباحثين ، وذاع ، وانتشر ، وشرق وغرب ، وسار مســير الضحى فى البلاد ، كما كان يقول شوقى عن الصحافة :

---

(١) دراسة نشرت فى العدد السابع من مجلة (فكر وإبداع) المصرية ، ونوهت " بنباهتها وتميزها " !! صفحة الأدب فى صحيفتنا الغراء (الأهرام) الصادرة فى ٢٠٠٠/١١/١٧ م ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(٢) سورة هود : ٤٣ .

(٣) مقدمة تحقيق الأستاذ محمود شاكر لأسرار البلاغة : ص ٣ .

تسيرُ مسيرَ الضحى فى البلاد إذا العلم مزق فيها السَّدفْ
وتمشى تُعلِّـم فــى أمَّةٍ كثيرةٍ من لا يَخُطُّ الألِفْ [1]

فكان شيخنا من الإمام عبد القاهر مكان البَيْهَقِيِّ (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ) من الإمام الشافعى (١٥٠ - ٢٠٤ هـ) ، فصدقت فيه قياساً على البيهقى مقولة إمام الحرمين أبى المعالى الجُوينى (ت ٤٧٨ هـ) : (ما من شافعى إلا وللشافعى فى عنقه مِنَّةٌ ، إلا البيهقى ؛ فإن له المِنَّةَ على الشافعى ؛ لتصانيفه فى نصرته لمذهبه وأقاويله) [2] .

مزيد تفصيل فى عالمية المجاز

هذا ، وقد كان كلام الإمام عبد القاهر عن (عالمية المجاز) فى (ص٣٥٠) أى بعد ما جاوز منتصف كتابه (أسرار البلاغة) ، وأفاض فى مسائله ، إلا أن له كلاما آخر فيه مزيد تفصيل ، ولكنه غرسه فى (ص٣٤) أى فى صدر الكتاب ، عندما قسم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة ، فجعل الاستعارة – وهى فرع من المجاز – ترتقى إلى درجة العالمية إذا كانت (مفيدة) ، وتتردد فى الارتقاء إليها إذا كانت (غير مفيدة) [3] ، ثم بنى الإمام عبد القاهر على هذا التفصيل أصلين مهمين جدا ، يمكن تصنيفهما تحت ما سُمِّى فى زماننا بـ (الأدب المقارن) ، وتكون لعبد القاهر يد سلفت فى وضع شئ من أسس هذا العلم ، ودَيْنٌ مستحَقٌ فى أعناق دارسيه من بنى جلدتنا الذين يأبون لهذا العلم إلا أن يكون (غربيا) كله ، مع أن له فى كتابى عبد القاهر أصولاً ، وكذا فى كتب الجاحظ وأبى هلال العسكرى خاصة ، أما كتاب (الخصائص) لابن جنى فله فيه يد

الإمام عبد القاهر يضع أصلين من أصول (الأدب المقارن)

---

(1) الشوقيات : ١ / ١٢٥ والسَّدَف : الظلام .

(2) مناقب الشافعى للإمام الحافظ أبى بكر أحمد بن الحسن البيهقى : ١ / ١٩ اختصرها وعلق عيها محمد نور الدين مربو البنجرى المكىّ ط . مجلس البنجرى للتفقه فى الدين ط.أولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

(3) ينظر أسرارا لبلاغة : ٣٤ ، ٣٥ ت . شاكر .

كبرى ، ولكننا بحاجة إلى من يخلص لدينه ولغته (فيُصغِى إلى كـــلام هـــؤلاء العلماء ، ويتدبره تدبر ذى دِينٍ وفُتُوَّة) [1] كما كان يقول الإمام عبد القاهر ، فينفض بطون هذه الكتب وغيرها ، ويجمع جواهر الأصول التى أرساها هـــؤلاء وأضرابهم من علماء العربية ، فيرد إلينا بضاعتنا .

متى يحكم بسرقة معانى الاستعارة من أدب إلى أدب ؟

الأصل الأول : أن الاستعارة المفيدة لما كانت تضـــاف إلى العقـــلاء جملة ، ولا تختص بها لغة دون لغة – كما فى استعارة الأسد للشجاع ، والبحـــر للكريم ، والبدر للحسناء – وجب أن يخرج التوارد عليها والاتفاق فى معانيـــها من حكم " السرقة " [2] ؛ لأنها صارت ملكا مشاعا بين الأجيال كلها ، فـــلا يصح الحكم بأن أمة سرقتها من أمة ، ولا بأن جيلا سرقها من جيل ، أو شاعراً سرقها من شاعر ، قال الإمام : (ولإغفال هذا الموضع والتجوز فى العبارة عنه ، دخل الغلط على من جعل الشئ من هذا الباب سرقة وأَخْذاً حتى نُعِى عليـــه . وبيَّنٌ أنه من المعانى العاميَّة والأمور المشتركة التى لا فضل فيها للعـــربى علـــى العجمى ، ولا اختصاص له بجيل دون جيل) [3] .

وإذا كانت دراسة (السرقات الأدبية) فى نتاج كل لغـــة مـــن أروع الدراسات وأكثرها ثراء وإمتاعاً ، فإن الإمام يفتح هنا دائرة أوســـع لدراســـة (السرقات) فى نتاج آداب الأمم ، لنضع أيدينا على المعانى العاميـــة المشـــتركة بينها ، والمعانى الخاصة التى انفردت بها كل أمة ، ثم نرى أى الأمم أكثر انفـــرادا وامتيازاً بنوابغ المعانى ، وهذا باب واسع جدا .

([1]) دلائل الإعجاز : ص ٣ ت . شاكر .

([2]) نبه الإمام على أن التشبيه والاستعارة فى ذلك سواء (ينظر أسرار البلاغة ص ٣٣٩ وما بعدهـــا ت . شاكر) .

([3]) أسرار البلاغة : ٣٥ ت . شاكر .

ثم عاد الإمام فى موضع آخر ففصَّل هذا الأصل ، وفرَّع عليه أن الأمر (العامى) الذى وقع الاشتراك فيه ، إن كان مما لا يحتاج إلى روِيَّة وتدبُّر ، فليس من السرقة ؛ لأنه (فى حكم الغرائز المركوزة فى النفوس ، والقضايا التى وضع العلم بها فى القلوب [1] . وإن كان مما ينتهى إليه المتكلم بنظر وتدبر ، وينالـه بطلب واجتهاد...... وكان من دونه حجاب يحتاج إلى خرقة بالنظر ، وعليه كِمٌّ يفتقر إلى شقه بالتفكر ، وكان دُرًّا فى قعر بحر لابد من تكلف الغوص عليه ...... فهو الذى يجوز أن يُدَّعَى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأوَّلية ، وأن يُجعَل فيه سَلَفٌ وخَلَفٌ ، ومفيدٌ ومستفيدٌ ، وأن يُقْضَى بين القائلين فيه بالتفاصيل والتباين ...) [2] .

وعلى الرغم من وضوح كلام الإمام فى أن الضرب الأول من القسم العامىّ إرث مشاع ومعان مشتركة ، لا تختص بها أمة دون أمة ، فقد غاب هذا الأصل عمن نظر إلى اشتراك عبد القاهر مع أرسطو فى شئ من هذه المعانى (العامية) ، فحكم بأن عبد القاهر تلميذ لأرسطو ومتأثر به وبالفكر اليونانى فى ذلك ، ونسى أن هذا ونحوه (من الفنون العامة فى بلاغة اللغات المختلفة ؛ لأنها من الخصائص العامة للنفس الإنسانية) [3] .

الإمام عبد القاهر لم يبتكر هذا الأصل وإنما وسع دائرته وتجاوز به حدود اللغة .

على أن الإمام عبد القاهر لم يبتكر هذا الأصل ؛ لأنه كان معروفا عند شيوخه من العلماء بالشعر ، الذين نبهوا على أن المعانى العامة إذا أخذها شاعر من شاعر لا يكون سارقا ، وفى ذلك يقول القاضى على بن عبد العزيز

---

(1) أضاف الإمام شرطا آخر ، وهو أن يظل ساذجا خاليا من الصنعة ، فإذا أضاف إليه الآخذ صنعة انتقل إلى الخاص (ينظر أسرار البلاغة : ٣٤٠ ، ٣٤١) .

(2) أسرار البلاغة : ٣٣٩ ، ٣٤٠ بتصرف ، ت . شاكر .

(3) التصوير البيانى د . محمد أبو موسى : ص ١٣٤ .

الجرجانى – وهو شيخ الإمام عبد القاهر – : (ولم تزل العامة والخاصة تشبه الورد بالخدود ، والخدود بالورد ، نثرا ونظما ، وتقول فيه الشعراءُ فتُكثِر ، وهو من الباب الذى لا يمكن ادعاء السرقة فيه ، إلا بتناول زيادة تُضَمُّ إليه ، أو معنى يُشْفَعُ به ، كقول عليّ بن الجَهْم :

عَشِيَّةَ حيَّانى بوَرْدٍ كأنَّه ... خُدُودٌ أُضِيفَتْ بَعضُهن إلى بَعْضِ

فإضافة بعضهن إلى بعض له ، وإن أُخِذَ فمنه يؤخذ ، وإليه يُنسَب) [1] .

ولاشك فى ظهور أثر فكر الشيخ فى تلميذه ، ولكن التلميذ تقدم بفكرة شيخه وسما بها ، حين تعدى بها حاجز اللغة الواحدة ، وجعل الاشتراك فى هذا المعنى بين اللغات مما لا يعد (سرقة) ، فوسع أفق النظر ، ووضع نفسه (قاضيا) فى سائر اللغات .

وقد نزعت مدرسة التلخيص هذا الأصل من مغرسة عند الإمام ، فلم تتناوله مثله فى التشبيه والمجاز والاستعارة ، وإنما طوحت به ليكون (خاتمة) للفن الثالث فقط وهو (علم البديع) ، قالوا (وليس خاتمة لما ذكر فى الكتاب الشامل للفنون الثلاثة ؛ إذ لا يرجع معناها إلى ما تشترك فيه الفنون الثلاثة ، أو ينفع فيها حتى تكون خاتمة لمجموع ما فى الكتاب) [2] ، وهذا صنيع يحتاج إلى فضل نظر وبسط عسى أن أو فيه فى بحث "الموازنات الشعرية عند الإمام عبد القاهر" .

ترجمة الاستعارة من لغة إلى أخرى

والأصل الثانى : (ترجمة الاستعارة) [3] ، قال الإمام : (ولو أن مترجما ترجم قوله :

وإلا النَّعامَ وحَفَّانَهُ

([1]) الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى : ص ١٨٧ ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ط . عيسى الحلبى .

([2]) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربى : ٤ / ٤٧٤ ضمن شروح التلخيص .

([3]) عنوان وضعه الأستاذ محمود شاكر فى هامش تحقيقه لأسرار البلاغة ص ٣٥ .

ففسر " الخفّان " باللفظ المشترك الذى هو كالأولاد والصغار ؛ لأنه لا يجد فى اللغة التى بها يترجم لفظا خاصّا ، لكان مصيبا ومؤديا للكلام كما هو . ولو أنه ترجم قولنا : " رأيت أسدا " ، تريد رجلا شجاعا ، فذكر ما معناه معنى قولك : " شجاعا شديدا " ، وترك أن يذكر الاسم الخاص فى تلك اللغة بالأسد على هذه الصورة ، لم يكن مترجما للكلام ، بل كان مستأنفا من عند نفسه كلاما) [1] .

ولم يؤثر عن الإمام أنه اشتغل بفن الترجمة ، ولا خصه بواحد من تآليفه التى حصرها من ترجموا له فى ثمانية عشر مؤلفاً [2] ، وإن كان تعرضه للترجمة لا يعد غريبا ؛ لأنه لم يكن ليغمض عينيه عن شيوعها وانتشارها فى بلاد المسلمين بعدما فتحت لهم الدنيا وامتزجت بثقافاتهم وحضارتهم ولغتهم الشريفة ثقافات الأمم وحضاراتها ولغاتها ؛ (فإن هذا القرن الخامس ورث جهود أربعة قرون بذلها العلماء فى الدرس والتحصيل والإنتاج ، وتعددت ينابيع الثقافة ، بين ثقافة عربية خالصة ، وثقافة أجنبية خالصة تتمثل فى الكتب التى ترجمت عن اليونانية والفارسية والهندية ، وثقافة تجمع بينهما فى إنتاج هؤلاء الذين جمعوا بين الثقافتين) [3] .

ويلاحظ أن تعرض الإمام للترجمة كان على وجه يليق بإمامته ، فلم يكن تعرضه استمداد من أسسها ، بل كان تأسيسا لقاعدة مهمة فيها تعين المترجم على الوفاء بحق النص الذى يترجمه ، فهناك ألفاظ يغتفر فيها الترجمة

(1) أسرار البلاغة : ص ٣٥ ، ٣٦ .
(2) ينظر " عبد القاهر الجرجانى " د . أحمد بدوى : ص ٣٠ – ٦٩ .
(3) المصدر السابق : ص ٢٠ .

باللفظ المشترك كما فى (الحَفَّان) و (المَرْسِن) و (الجَحْفَلَة) [1] ونحوها من الاستعارة غير المفيدة ، ولا يغتفر مثل ذلك التصرف فى ترجمة الاستعارة المفيدة .

ولاشك فى أن هذا يحتاج من المترجم إلى أن يكون على بصيرة بخصائص المجاز فى اللغتين : المترجم منها ، والمترجم إليها ؛ وهذا ما نادى به دارسوا الأدب المقارن ، فقرروا أن (دراسة الأدب المقارن تستلزم أن يستطيع الدارس قراءة النصوص المختلفة بلغاتها الأصلية ... إذ أن لكل لغة خصائص وروحاً لا تفهم إلا فيها ولا تتذوق إلا بقراءة نصوصها ...... وهذه الترجمة تارة تكون دقيقة أمينة ، وتارة يتصرف فيها) [2] .

* * *

(العصمة من الإفراط والتفريط فى تأويل القرآن) [3] :

للعناية بالمجاز أهمية كبرى فى تأويل القرآن الكريم ؛ فإن التبحر فى معرفة (المجاز) شرط لمن يتعاطى تفسير كتاب الله عز وجل .

المعركة حول قضية (المجاز فى القرآن الكريم)

ولم تشهد ساحة الفكر البلاغى فى أطوار نشأته معركة أشد ولا أخطر مما دار حول قضية " المجاز فى القرآن الكريم " ، فتوزَّع الناس فيها مذاهب وفرقا ، ما بين مؤيد ومنكر ، ومُفْرِطٍ ومُفَرِّط ، ولا تزال القضية فى بعض الديار جَذَعةً (أى جديدة) كما بدأت .

مدخل الإمام عبد القاهر إلى دراستها

ودخل الإمام عبد القاهر ساحة هذه المعركة عندما تعرض فى درس " المجاز العقلى " لتوقفه على (اعتقاد المتكلم) ، وساق فى ذلك مجموعة من

---

(1) الحَفَّانُ من النَّعام كالأولاد الصغار من الآدمى . والمَرْسِنُ فى غير الآدمى كالأنف فى الآدمى وجَحْفَلَةُ الفرس كالمِشْفَر فى البعير وكالشفة فى الإنسان .

(2) الأدب المقارن د . محمد غنيمى هلال : ص ٩٠ بتصرف ط . دار العودة ١٩٨٧ م .

(3) مقتبس من لفظ الأستاذ محمود شاكر فى هامش أسرار البلاغة : ص ٣٩١ .

الشواهد توارثتها كتب البلاغة من بعده – وأحسنت – لأنها صارت أعلاماً في تأصيل المسألة ، من مثل بيت الصلتان العبدى :

أشابَ الصغيرَ وأفْنَى الكبيـ ـرَ كَرُّ الغداةِ ومَرُّ العَشِىْ

ثم قال الإمام مبينا خَبْطَ من قدح فى المجاز ، ومدى حاجة طالب الدِّين إلى معرفة هذا الفن والتوفر على بحثه وإطالة النظر فيه : (ومن قدح فى المجاز ، وهمَّ أن يصفه بغير الصدق ، فقد خَبَط خَبْطاً عظيما ، ويَهْرِفُ بما لا يخفى .

ولو لم يجب البحثُ عن حقيقة المجاز والعنايةُ به ، حتى تُحَصَّلَ ضروبُه ، وتُضْبَطَ أقسامُه ، إلا للسلامة من مثل هذه المقالة ، والخلاص مما نحا نحوَ هذه الشبهة ، لكان من حق العاقل أن يتوفر عليه ، ويصرف العناية إليه ، فكيف وبطالب الدين حاجةٌ ماسَّةٌ إليه من جهات يطول عدها ، وللشيطان من جانب الجهل به مداخل خفيَّةٌ يأتيهم منها ، فيَسرِقَ دينهم من حيث لا يشعرون ، ويُلقيهم فى الضلالة من حيث ظنوا أنهم يهتدون ؟) [1] .

وفى هذا النص يثبت الإمام للعناية بالمجاز فضيلتين :

الأولى : أن العناية به تربأ (بالعاقل) عن أن يكون ممن (يخبط خبطا عظيما ، ويهرف بما لا يخفى) ، ولا يكون هذا إلا بتحصيل ضروب المجاز ، وضبط أقسامه ، كما ذكر الإمام ، فإذا وقف (العاقل) على ذلك ، فقد عصم نفسه من الشبهة ، وكان ممن (يتثبت) فى كلامه ، فينطق عن بينة وعلم ، لا عن جهلٍ وظن .

إنكار المجاز (خيانة) لأمانة (العقل)

وكأن الإمام يقول للطاعن فى المجاز بلا تثبت : لقد أخللت بما يوجبه عقلك ، فظلمت نفسك حين خَبَطت فى شأن المجاز خبط عشواء ، وتكلمت فى أمره بلا أثارة من علم ، فسلكت سبيلا غير سبيل العقلاء ! وهذا كافٍ فى

---

(1) أسرار البلاغة : ٣٩١ ت . شاكر .

الدلالة على التخبط والتلبيس . ورحم الله الإمام الشافعي حين قال : (وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه منه لكان الإمساكُ أولى به ، وأقربَ من السلامة له) [1] .

والثانية : أن حاجة (طالب الدِّين) إلى العناية بالمجاز ماسة ، وحسبك بطلب الدين من غاية ! وحسب المجاز بأن تمس الحاجة إليه فيه من شرف وفضيلة !!

(تلبيس إبليس) على من أنكر

كما أن العناية به تغلق مداخل الشيطان الخفية ؛ ولاشك في أن من مداخله الخفية ، التي تعد من " تلبيس إبليس " على أهل العلم ، أن يدخل الغرور في نفوسهم ، حتى يوقنوا بأن العلم هو ما هم عليه ، وبأنهم هم العلماء الراسخون ، الثابتون على المحجة ، الذائدون عن حمى (القرآن الكريم) أن تبدَّل ظواهره ، وتكشف سرائره وضمائره ، ويجرى عليه ما يجرى على كلام زيد وعمرو من أفانين المجاز وخدعه ، وقد نبه الإمام على هذا المدخل الشيطاني الخفي حين وصف منكر المجاز بأنه (مغرور) ، فقال : (وقد اقتسمهم البلاء فيه من جانبي الإفراط والتفريط فمن مغرور مُغْرىً بنفيه دَفعةً ، والبراءة منه جملة ، يشمئز من ذكره ، وينبو عن اسمه ، يرى أن لزوم الظواهر فرضٌ لازم ، وضربَ الخيام حولها حَتْمٌ واجب = وآخرُ يَغْلُو فيه ويُفْرِط ، ويتجاوز حدَّه ويَخْبِط ، فيعدل عن الظاهر ، والمعنى عليه [2] ، ويَسُومُ نفسَه التعمق في التأويل ولا سبب يدعو إليه) [3] .

---

(1) الرسالة للإمام الشافعي : ص ٤١ ت . أحمد شاكر ، نشر دار الكتب العلمية .

(2) أى يعدل عن الظاهر مع أنه هو المعنى المراد .

(3) أسرار البلاغة : ٣٩١ ت . شاكر ، وانظر دلائل الإعجاز ص ٣٠٥ ت . شاكر .

والإمام عبد القاهر فى تناوله هذه القضية ينعى على من سلك مسلك الإفراط أو التفريط ، فيسم الفريق الأول بأنه (مغرور) ، ويسم الثانى بأنه (غالٍ متجاوز للحد) ، ويعالج القضية بإنصاف .

وليس يعنينا الآن معالجة الإمام ، وإيراد حججه ، فلهذا مقام آخر ، وإنما يعنينا ما فى معالجته من إبراز لضرورة العناية بالمجاز وحصر أقسامه وأنواعه ، وأن من طلب الدِّين ، ووقف فى ساحة (التأويل) دون أن يتسلح بذلك فهو مقصِّر ، وهذا غرض الإمام من تناول القضية ، وقد صرح بذلك فى قوله : (وإنما غرضى بما ذكرت أن أُرِيكَ عِظَمَ الآفةِ فى الجهل بحقيقة المجاز وتحصيله ، وأن الخطأ فيه مُوَرِّطٌ صاحبَه ، وفاضحٌ له ، ومُسْقِطٌ قَدْرَهُ ، وجاعلُه ضُحْكَةً يُتَفَكَّهُ به ، وكاسِيهِ عاراً يبقى على وجه الدهر ، وفى مثل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يحملُ هذا العلمَ من كل خَلَفٍ عُدُولُه ، يَنْفُونَ عنه تحريفَ الغالين ، وانتحالَ المبطلين ، وتاويلَ الجاهلين " [1] ، وليس حملُه روايتَه وسَرْدَ ألفاظه ، بل العلمُ بمعانيه ومخارجه ، وطرقه ومناهجه ، والفرق بين الجائز منه والممتنع ، والمُنْقَادِ المُصْحِب ، والنَّابِى النَّافِر) [2] .

فخامة المعنى ونباهته :

من فضائل المجاز أنه يورث المعنى فخامة ، ويُحدِث فيه نباهة ، يستوى فى ذلك المجاز اللغوى والعقلى ، قال الإمام عبد القاهر : (واعلم أن الذى ذَكرتُ لك فى المجاز هناك [3] ، من أن من شأنه أن يَفْخُمَ عليه المعنى ، وتَحدُثَ

---

(1) رواه الإمام أحمد بن حنبل والسيوطى فى الجامع الصغير ، وينظر تخريج الحديث بالتفصيل فى حاشية تحقيق الأستاذ محمود شاكر لأسرار البلاغة : ص ١٠٥ .

(2) أسرار البلاغة : ٣٩٣ ت . شاكر .

(3) يعنى المجاز اللغوى .

فيه النباهةُ ، قائمٌ لك مثله ههنا (١) ، فليس يَشْتَبِهُ على عاقل أن ليس حالُ المعنى وموقعهُ فى قوله :

فنَامَ لَيْلِى وتَجَلَّى هَمِّى (٢)

كحاله وموقعه إذا أنت تركت المجاز وقلت : " فنمت فى ليلى وتجلى همى " ، كما لم يكن الحال فى قولك : " رأيت أسدا " ، كالحال فى : " رأيت رجلا كالأسد " . ومن الذى يخفى عليه مكانُ العُلوّ وموضعُ المزِيَّة وصورةُ الفُرقان بين قوله تعالى " فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ " (٣) ، وبين أن يقال : " فما ربحوا فى تجارتهم " ؟) (٤) .

وفخامة المعنى ونباهته فى المجاز عنه فى الحقيقة ، تفتحان أمام العقل صورة يرى فيها المعانى وهى يتباهى بعضها ويتفاخر ، ويشمخ بأنفه ، ويشمخر ، بإزاء معان أخر ليس لها هذا الزهو والخيلاء ، وكأن فى حياة المعانى من التنافس والتفاخر والتكاثر نظير ما فى حياة الناس ؛ وليس هذا ببعيد ؛ فإن طبائع اللغة تحكى طبائع الناس ، فبها ما بهم .

فالمعنى فى رجز رؤبة (فنام ليلى وتجلى همى) ذو فخامة ونباهة ، يتيه بهما على نظيره فى قولك (فنمت فى ليلى وتجلى همى) ، ومرد ذلك إلى ما تراه من أن " الليل " فى رجز رؤبة احتل موقع الفاعل ، فلبس زيَّه وتردَّى ببردته ، ثم هاهو قرير العين قد (نام) . فالمجاز فى الإسناد أفرغ دلالة الحس على الزمن ،

---

(١) يعنى المجاز العقلى .

(٢) (هو رجز رؤبة ، يقوله للحارث بن سليم ، وقبله :
حَارِثُ ، قد فَرَّجْتَ عَنِّى غَمِّى) [عن حاشية المحقق] .

(٣) سورة البقرة : ١٦ .

(٤) دلائل الإعجاز : ٢٩٤ ، ٢٩٥ ت . شاكر .

فجعله يشعر بما يقع فيه من أحداث ، بل ويشارك فيها مشاركة تزاحم مشاركة الفاعل الحقيقى حتى تزحزحه عن موضعه ، وتقف وحدها فى الصدارة ، فــإذا نُسب الفعل كانت الأولى به والأصلح له ، فليل المغموم المهموم يتقاسمه الغــم والهم ، فتراه من ذلك كأنه مؤرق لا ينام ، فلما فرَّج الحارث بن ســليم هــذا الغم والهم عن رؤبة كأنما أطلق أسيرين هما ليل رؤبة ورؤبة ، فسبق الليــل إلى النوم ، فنام !!

وكذا فى قولهم " نهارك صائم وليلك قائم " أشركوا الزمن مع الصــائم القائم ، حتى كأنه بغى فى الشركة وجار ، فاستأثر بالصيام والقيام .

وفى قوله تعالى (فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ) أسند الربح إلى التجارة ، مــع أن الرابح صاحبها ، إيذانا بأنها قامت مقامه ، فصارت كأنها هى طالبة الربــح ، والمروِّجة للسلعة ، والقائمة عليها ، حتى إذا سئل من الرابح أو الخاسر ؟ قيــل : هى . والآية الكريمة تصور الحياة بصورة (سوق) كبيرة ، يردها الناس للتجارة ، فمن رابح وخاسر ، فمن اشترى الهدى بالضلالة فهو الرابح ، ومن عكس فــهو الخاسر ، قال تعالى (يَا أَيُّها الذين آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فى سَبيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (١) .

ثم يقول الإمام فى تبيان فخامة المعنى ونباهته فى المجاز : (وإن أردت أن تزداد للأمر تَبيُّناً ، فانظر إلى بيت الفرزدق :

يَحْمِى إذا اخْتُرِطَ السُّيوفُ نِساءَنا
ضَرْبٌ تَطيرُ له السَّوَاعِدُ أرْعَلُ

(١) سورة الصف : ١٠ ، ١١ .

وإلى رونقه ومائه ، وإلى ما عليه من الطُّلاَوة . ثم ارجع إلى الذى هـــو الحقيقة وقل : " نحمى إذا اختُرِطَ السيوفُ نساءَنا بضرب تطير لــه الســواعد أَرْعَلُ " ، ثم اسْبُرْ حالَك ؟ هل ترى مما كنت تراه شيئا ؟) [١] .

على الكاتب أن يحرك عقل القارئ حتى لا تتناوشه الغفلة

ويلاحظ أن الإمام لم يكشف عن النباهة والفخامة كشفا ظاهراً ، يفسر لنا : ما هى ؟ وكيف نشأت ؟ بل أحال كل متذوق إلى نفسه وحسه بالمعنى حين يأتى على أصله خاليا من المجاز ، وحين يسطو به المجاز سطوته ، ويكسوه حُلاه ، ويسحره سحره ، ثم يقول له : (اسْبُر حالك ، هل ترى مما كنت تراه شيئا ؟) ، وبهذا لا يدع الإمام قارءه تتناوشه الغفلة ، بل يحركه ويستثير عقله ، ويشركه معه ، ويجعله هو الحَكَم ، وهذا نمط من التربية الذوقية أكثر منه الإمام فى كتابيه ، (وهكذا يربىِّ عشاق البلاغة ، وهو العاشق الأكرم ، وهذه الطريقة ليست شائعة عنده فى باب التمثيل فحسب ، وإنما هى كذلك فى الأبواب كلها) [٢] .

وجه فى تفسير فخامة المعنى فى المجاز

ولاشك أن ثمة فرقا كبيراً بين المعنى حين يأتيك فردا وحيداً ، كأنه جلء من عزلة ، وأن يأتيك وهو آنسٌ بالزمان والمكان والقوى المحيطة به ، فتمهد هذه الطريق إليه ، وتملأ النفس أُنساً به ، وتورثها وقاره ومهابته ؛ لأنه عزيز قد أحسن صحبه رفاقه ، فأحسنوا صحبته ، حتى كفوه مُؤْنة الأحداث ، فلم يتركوه ليفعل شيئا بنفسه ، ويزاوله بذاته ، بل ينوبون عنه ، فيحسنون النيابة ، ويكونون أكرم رسل تبين عنه ، وتشرق بأنواره .

---

(١) دلائل الإعجاز : ٢٩٥ ت . شاكر .

(٢) مدخل إلى كتابى عبد القاهر د . محمد أبو موسى : ص ٣٨٧ .

ولعل الزمخشرى فسر شيئا من فخامة المعنى ونباهته إذا جاء مصورا ، وذلك حين وصف الكلام الجارى على سنن الحقيقة ، الخالى من التصوير ، بأنه (كلام عُرْيَان) [1] ، فالتصوير هو الذى يكسوه الحُلَل ، ويستر عويه ، ويجعل له زينة وريشا ، ولذلك قالوا : (كلام العرب وحى وإشارات ، واستعارات ومجازات ؛ ولهذه الحال كان كلامهم فى المرتبة العليا من الفصاحة) [2] .

الاتساع فى اللغة :

المجاز من أعظم الروافد إثراءً للغة وبسطا لسلطانها ، يزيد فى معانى الألفاظ والتراكيب ، فيجددها وينميها .

الحقائق اللغوية ألفاظ قارة ، والمجازات ألفاظ ذوات أسفار

(وفى اللغة كلمات قارة فيما وضعت له ، قراراً لا يحتمل نقلا ، فهى حقيقة سرمدية معصومة من طائلة التجوز ، وذلك ظاهر فيما يتعلق بدقائق العقيدة ، وحقائق الغيب فى الكتاب والسنة . وفيها كلمات خاضعة لسطوة التجوز عند أهل العلم ، وفقاً لأسفارها فى آفاق الوضع اللغوى ، أو العرفى ، أو الشرعى) [3] .

و " الاتساع " من أقدم ما ذكره العلماء من فضائل المجاز ، إن لم يكن أقدمها ، قال ابن جنى (ت ٣٩٢ هـ) : (وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة ، وهى : الاتساع ، والتوكيد ، والتشبيه . فإن عدم هذه

([1]) الكشاف : ٣ / ٥٥٢ .

([2]) أمالى المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) للشريف المرتضى (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ) : جـ ١ ص ٤ ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ط . عيسى الحلبى ط . أولى ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .

([3]) إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز فى ضوء البيان القرآنى ، د . محمود توفيق محمد سعد : ص ٥ بتصرف . مطبعة الأمانة ، ط . أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

الأوصاف كانت الحقيقة البتة) [1] ، واستشهد ابن جنى لهذه المعانى الثلاثة بشواهد كثيرة ، منها قوله تعالى : (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا) [2] ، قال ابن جنى : (فيه المعانى الثلاثة : أما الاتساع فلأنه استعمل لفظ السؤال مع ما لا يصح فى الحقيقة سؤاله ...... ألا تراك تقول : وكم من قرية مسئولة . وتقول : القرى وتسآلك ؛ كقولك : أنت وشأنك . فهذا ونحوه اتساع . وأما التشبيه فلأنها شبهت بمن يصح سؤاله ، لما كان بها ومُؤْلِفاً لها [3] . وأما التوكيد فلأنه فى ظاهر اللفظ إحالة بالسؤال على من ليس من عادته الإجابة . فكأنهم تضمنوا لأبيهم – عليه السلام – أنه إن سأل الجمادات والجبال أنبأته بصحة قولهم . وهذا تناهٍ فى تصحيح الخبر ، أى : لو سألتها لأنطقها الله بصدقنا ، فكيف لو سألت مَنْ مِنْ عادته الجواب) [4] .

فالمجاز يوسع مساحة اللغة بتجديد الألفاظ ، فإذا قلت (لقيت أسداً) تريد رجلا شجاعاً ، فكأنك زدت فى أسماء الأسد اسماً ، وأضفت إلى جنسه نوعاً جديدا ، لتكون الأسود نوعين : الأسد الحقيقى ، والشجاع الذى يشبهه [5] . وهذا التوسع فيه جرأة من المتكلم ، وإحسان ظن بفطنة السامع وفهمه .

---

(1) الخصائص لابن جنى : ٢ / ٤٤٤ ت . محمد على النجار ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ط . ثالثة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م . وتعقبه ابن الأثير فى المثل السائر ١ / ٣٥٢ – ٣٥٤ وجعل تطبيق فكرة الاتساع على بعض شواهد الاستعارة المكنية – على النحو الذى ذكر ابن جنى – مما يُضْحِكُ منه !!

(2) سورة يوسف : ٨٢ .

(3) من الألفة والمحبة [عن حاشية المحقق] .

(4) الخصائص ٢ / ٤٤٩ بتصرف .

(5) ينظر مفتاح العلوم للسكاكى : ص ٣٧٢ .

من فضائل المجاز الإيجاز والتشويق

ولا يخفى ما فى المجاز من فضائل أخرى سائرة مشتهرة ، كالإيجاز ، وهو ظاهر لا يخفى ، وكالتشويق وبيانه كما قال العلوى : (أن النفس إذا وقفت على كلام غير تام بالمقصود منه تشوقت إلى كماله ، فلو وقفت على تمام المقصود منه لم يبق لها هناك تشوق أصلاً ؛ لأن تحصيل الحاصل محال ، وإن لم تقف على شئ منه فلا شوق لها هناك ، فأما إذا عرَفته من بعض الوجوه دون بعض فإن القدر المعلوم يحصل شوقا إلى ما ليس بمعلوم ، فإذا عرَفتَ هذا فنقول : إذا عبر عن المعنى باللفظ الدال على الحقيقة حصل كمال العلم به من جميع وجوهه ، وإذا عُبر عنه بمجازه لم تُعرَفْ على جهة الكمال فيحصل مع المجاز تشوّق إلى تحصيل الكمال ، فلا جرم كانت العبارة بالمجازات أقرب إلى تحسين الكلام وتلطيفه)[1] .

* * *

([1]) الطراز للعلوى : ص ٤١ .

مدخل إلى الاستعارة

الاستعارة تتنكر للتشبيه ، وتسد الطريق إليه ، مع أنها امتداد له وقائمة عليه

الاستعارة امتداد للتشبيه يتعاظم فيها سلطانه ، بما فيها من دعوى اتحاد المشبه والمشبه به ؛ ولذا عرفها السكاكى بقوله : (هى أن تذكر أحد طرف التشبيه ، وتريد به الطرف الآخر ، مدعيا دخول المشبه فى جنس المشبه به ، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به ، كما تقول : فى الحِمَام أسد ، وأنت تريد به الشجاع ، مدعيا أنه من جنس الأسود ، فتثبت للشجاع ما يخص المشبه به ، وهو اسم جنسه ، مع سد طريق التشبيه بإفراده فى الذكر ، أو كما تقول : إن المنية أنشبت أظفارها ، وأنت تريد بالمنية : السبع ، بادعاء السبعية لها ، وإنكار أن تكون شيئا غير سبع ، فتثبت لها ما يخص المشبه به ، وهو الأظفار) [1] .

وقول السكاكى فى النص السابق إن الاستعارة تسد طريق التشبيه ، يدل على الأساس الذى قامت عليه الاستعارة ، وهو الاستغناء عن أحد طرف التشبيه بوضع الآخر موضعه ، وبناء العبارة على أنه ليس فيها إلا طرف واحد ، وهذا من شأنه أن يقطع الطريق إلى التشبيه ، ويسده دونه ، وهكذا نرى الاستعارة تتنكر للتشبيه ، وتنفيه جملة ، وتدَّعى أنها غيره ، وأنها لا تقوم عليه ، وليس بينها وبينه أدنى صلة ... وهذا جوهر الخداع والحسن فيها ؛ لأنك لو فتشت لوجدتها تعتمد التشبيه أصلاً ، ثم ترتقى فى سلمه ارتقاء يخيل للناظر أنها لم تقم عليه .

وإذا كان وضع أحد الطرفين موضع صاحبه سد طريق الاستعارة إلى التشبيه ، فإنه فى الوقت نفسه فتح طريقها إلى المجاز لتحتل فيه مكاناً مرموقاً

([1]) مفتاح العلوم : ص ٣٦٩ .

ومنزلة عالية ؛ لأن استعمال أحد الطرفين موضع صاحبه يكون على جهة (المجاز اللغوى) لا على جهة (الحقيقة) .

الاستعارة توجب فضل بيان عن الحقيقة

ولابد فى الاستعارة أن يكون فيها فضل بلاغة فى مقامها لا تنهض به الحقيقة ، وإلا كان اللجوء إليها عبثا ؛ قال الرمانى (وكل استعارة حسنة فهى توجب بلاغة بيان لا تنوب مناب الحقيقة ، وذلك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة ، كانت أولى به ، ولم تجز الاستعارة) (١) ، فالاستعارة التى تستوى مع الحقيقة فى أى بيان استعارة باطلة (لا تجوز) ؛ لأنها نزلت فى غير منزلها ، وهذا مقياس دقيق ، وهو أول ما يجب أن يُنْظَر إليه فى بلاغة الاستعارة .

ولعلماء البلاغة فى وصف شرف الاستعارة كلمات نفيسة ، علت حتى كأنها الشعر الشاعر ، إلا أن أفضل واصفيها ، وأبين من جمع غرر معانيها ، الشيخ الإمام عبد القاهر ، الذى ركب بيانه فى وصف حسنها كل بيان ، قال :

(هى أَمَدُّ مَيدانا ، وأشدُّ افتنانا ، وأكثر جَريانا ، وأعجبُ حُسنا وإحسانا ، وأوسعُ سَعةً ، وابعدُ غوراً ، وأَذْهَبُ نَجْداً فى الصناعة وغوراً ، من أن تُجْمَعَ شُعَبُها وشُعوبُها ، وتُحصَرَ فنونُها وضُروبُها) (٢) .

عجز العبارة عن الوفاء بوصف الاستعارة

ففى هذا النص أبان الإمام عن العجز عن (جمع شعبها وشعوبها ، وحصر فنونها وضروبها) ؛ لأنها (أمدُّ ميدانا) ، أى أوسع وأرحب من أن تحيط بها العبارة ، أو يطوق جيدها الإيماء والإشارة ؛ لأن اللفظ إذا صور المعنى فكأنه قد سَوَّره ، وضرب حواليه الحدود والأسوار ... فإذا كانت الاستعارة (أمد ميدانا) من وصفها ، فقد بقى فى معانيها أوابد لا تقيدها الألفاظ ، وبقيت فيها

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن : ص ٨٦ .

(٢) أسرارا لبلاغة . ٤٢ ت . شاكر .

(شعب وشعوب) هى من هاتيك الأوابد التى لم تقيَّد : فما هى ؟ وما السبيل إليها ؟

وقد كرر الإمام هذا التنبيه على العجز عن وصف محاسن الاستعارة ، فقال : (وهى أجَلُّ من أن تأتى الصفةُ على حقيقة حالها ، وتَسْتوفى جُملةَ جمالها) (١) ، وقال : (وهذه إشاراتٌ وتلويحاتٌ فى بدائعها ، وإنما يَنْجلى الغرضُ ويَبِينُ ، إذا تُكُلِّمَ عن التفاصيل ، وأُفرِدَ كلُّ فنٍّ بالتمثيل) (٢) .

سحر الاستعارة

ثم قال الإمام فى وصف محاسنها : (نعم ، وأَسْحَرُ سحراً ، وأملأُ بكل ما يملأ صَدراً ، ويُمتع عقلا ، ويُؤنِسُ نَفساً ، ويُوَفِّرُ أُنْساً) (٣) ، وفى هذا الوصف خاض الإمام فى عالم الوهم والخيال ، وأغرى عاشقيه ، والمفتونين بحيله ومرائيه ، بأن ينظروا فى الاستعارة ، فإن سحرها (أسحر) ، ووهمها أقوى ، وخيالها أعمق وأخصب ... وقد فسر الإمام قوله (وأسحر سحرا) حين قال فى ختام هذه الأوصاف : (فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا ، والأعجمَ فصيحا ، والأجسامَ الخُرْسَ مُبِينةً ، والمعانىَ الخفية باديةً جليَّةً) (٤) ، وهل عمل الساحر إلا أن يريك الجماد حيا ناطقا ، فتصير العصا حية تسعى ، ويصير الحبل أفعى ، على جهة الوهم والخيال ؛ ولذا قال جل وعلا : (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ) (٥) ، فأى سحر فى الاستعارة جعلها أسحر ؟

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق : ٤٣ .

(٣) أسرار البلاغة : ٤٢ ت . شاكر .

(٤) المصدر السابق : ٤٣ .

(٥) سورة طه : ٦٦ .

وكون الاستعارة سحراً يدل على أنها غيرت حقائق الأشياء ، بحيث لا يبقى الجماد معها جمادا كما كان ، بل يصير – على طريق المبالغة والادعاء – حيا ناطقا ، ذا شعور وحسّ ، فيصير (الرَّبع الخراب) مطرقا مهموما لفراق الأحبة وفقدهم ، كما فى قول أبى تمام :

لقد أطْرَقَ الرَّبْعُ المُحِيلُ لفَقْدِهِمْ
وبَيْنِهِمْ إطْراقَ ثُكلانَ فاقدِ [١]

فجعل الرَّبع مطرقا مهموماً لفقدهم وبينهم ، كما يطرق الثكلان الفاقد ؛ فألبس الربع لباس الحىّ الناطق ، وأودعه شعوره ، وشبه إطراقه بإطراق الثكلان الفاقد ، لا بإطراق الثكلى الفاقدة ، مع أن الثكل فى النساء أبين وأشد ، ليومئ إلى أن الربع حين أصابته مصيبة الفقد ، وعراه ما عرى المحبين ، كان فيه بقية من تماسك وقوة تناسب أصله ، وهذا أليق بحاله ، ليكون ثمة فرق بين إطراق المحب وإطراق الربع ، فهما وإن اشتركا فيه إلا أن إطراق المحب وحيرته اشد . قال التبريزى : (أطرق : إذا أدام النظر إلى الأرض ، واستعاره للربع ، وإنما أراد أنه استوحش لفقدهم ، وعلته كآبة لذاك ؛ لأن من شأن المهموم أن ينظر إلى الأرض) [٢] .

فهل رأيت ربعا باكيا ؟ وهل رأيت حزنا يبكى صم الصخور ؟ وأى ألفة كانت بين المحبوبة المفارقة والربع الخراب والصخور الصلاب ؟ إن (الإنسان لم يدع شيئا من الطبيعة إلا نفث فيه من عواطفه ، وكساه ثوب خواطره ، فتراه مثلا يجعل الشمس آدمية ، ويقول إنها مدت أذرعها ، يعنى بذلك أشعتها التى تصل إليه ...... وإنما نشأ هذا الضرب من المجاز لأن آباءنا الأولين كانوا يقيسون حياة الطبيعة على حياتهم) [٣] .

---

(١) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى ت . محمد عبده عزّام : ٢ / ٨٦ ط . دار المعارف ط . رابعة .

(٢) شرح الخطيب التبريزى لديوان أبى تمام : ٢ / ٦٨ مطبوع مع الديوان .

(٣) حصاد الهشيم : ١٩٧ ، ١٩٨ بتصرف .

الاستعارة تعود بنا إلى طور الطفولة

والاستعارة حين تخيل الجماد حيا ناطقا ، يخاطبنا ونخاطبه ، ويأنس بنا ونأنس به ، فإنها تعود بنا إلى طور الطفولة ، (كما يفعل الطفل عندما يخاطب دمية ، أو يتحدث إلى كرسيه ، أو منضدته ، معتقدا أنها تصغى إليه وتستمع إلى حديثه ، وتتجاوب معه) [1] .

ومن محاسن الاستعارة كما ذكر الإمام عبد القاهر أنك ترى بها (المعانى الخفية بادية جلية) [2] ، وهذا جوهر من محاسنها ؛ لأنها تحيل المعانى المستعصية عن الظهور ، ظاهرة مكشوفة ، فتصير ضاحية بارزة للعيان ، بعدما كانت حبيسة الجنان ...... ولاشك فى أن القدرة على تقريب البعيد ، وتوضيح الغامض ، واستنزال المعانى السامية من عليائها ، قدرة لا يستهان بها فى بناء المعارف ؛ لأنها تجعل عوالى الأفكار والخواطر ، ملكا مشاعاً للخاصة والعامة ، بعدما قضت دهراً حكرا على أذهان الخاصة ؛ وعلى هذا فالتشبيه والاستعارة من وسائل تقريب المعارف والعلوم ، وتيسير المعانى الصعبة حتى تكون فى متناول العقول ، فتعم المعرفة كل مكان ، وتلج كل جنان . وهذا جهد كبير يضع سالكيه من صناع البيان فى الصفوف المتقدمة من بناة المعارف .

صور البيان وسائل لتيسير العلوم

تذليل المعانى العصية فى شعر البحترى موضوع دراسة بيانية جديدة

وقد استولى البحترى فى تذليل المعانى العصيَّة ، وتقريب المعانى البعيدة ، على النصيب الأكبر ؛ قال الإمام عبد القاهر : (إنك لا تكاد تجد شاعرا يعطيك فى المعانى الدقيقة من التسهيل والتقريب ، ورد البعيد الغريب إلى المألوف القريب ، ما يعطى البحترى ، ولا يبلغ فى هذا الباب مبلغه ؛ فإنه ليروض لك المُهْرَ الأرِنَ رياضةَ الماهر ، حتى يُعْنِقَ من تحتك إعناق القَارحِ المُذَلَّل ،

---

(1) التصوير البيانى د . حفنى شرف : ٢١٨ .

(2) أسرار البلاغة : ٤٣ ت . شاكر .

وينـــزع من شِمَاسِ الصعب الجامح ، حتى يلين لك لين المنقاد الطيِّــع) [1] ، ثم استشهد الإمام لذلك بطرف من شعر البحترى ، وهذا عند البحترى فى حاجــة إلى دراسة بيانية تكشف عن هذا النمط عنده ، وما هى الطرق التى اتبعها حــتى ذلت له المعانى التى هى كالمهر الأرن ، وفى أى معانى الشعر وأغراضه كثر ذلـك عنده وفى أيها قلّ ، إلى لطائف أخرى يمكن أن تجود بها هذه الدراسة .

ســت فضـــائل أخرى للاستعارة

وهناك ست فضائل أخرى للاستعارة رصدها الإمام عبد القاهر ، وهى :

الفضيلة الأولى : ابتكار المعانى الحسان :

فصل الإمام هذه الفضيلة فى قوله عن الاستعارة إنهـــا (أَهْـدَى إلى أن تُهدِيَ إليك أبداً عَذَارى قد تُخيِّر لها الجمالُ ، وعُنِيَ بها الكمال) [2] ، أى أنهـــا تبتكر معانى جديدة لم تحم حولها العقول ، فهى أُنُفٌ عَـــذَارى ، قـــدم العقـــل مهورهن من كدِّه ......

وتشبيه عذارى المعانى بعذارى النساء مما يستملح ويســـتطاب ، ومنـــه قول أبى تمام لجعفر الخيَّاط :

إليكَ بها ، عَذْرَاءَ ، زُفَّتْ ، كأنها
عَرُوسٌ ، عليها حلْيُها يَتَكَسَّرُ
تُزَفُّ إليكُمْ يــا ابنَ نَصْرٍ ، كأنَّها
حِلِيلَةُ كِسْرَى يومَ آوَاهُ قَيْصَرُ [3]

ومنه تشبيه (شوقى) مدائحه النبوية بالعرائس الحسان فى قوله :

---

[1] أسرار البلاغة : ١٤٦ ت . شاكر . (وفرس قارح : أقامت أربعين يوما من حَمْلها أو أكثر حتى شَعَّرَ ولدُها . والقارح : الناقة أول ما تَحْمِلُ) لسان العرب : قرح .

[2] المصدر السابق : ٤٢ .

[3] ديوان أبى تمام : ٢ / ٢١٧ .

لى فى مَدِيحِكَ ، يا رَسُولُ ، عَرَائسٌ
ثُيِّمْنَ فيكَ ، وشَاقَهُنَّ جَلاَءُ
هُنَّ الحِسَانُ ، فإنْ قَبِلْتَ ، تَكَرُّمـــــاً
فمُهُو رُهُنَّ ، شَفَاعةٌ حَسْنَاءُ (١)

وفى هذا احتفاء بالمعانى الحسان ، والقصائد الغر الجياد ، وإكرامـــها ؛ جعلها الإمام عبد القاهر (عذارى قد تخير لها الجمال ، وعنى بها الكمـــال) ، وجعلها أبو تمام عذراء مزفوفة حليلة كسرى ، وهـــل تكـــون المـــرأة أجمـــل ولا أحسن منها حين تكون (عروساً) قد نالت ما ترجو ، وظفِرت بما تصبـــو ، فهى فى يوم دهرها ، وساعة عمرها ؛ فكذلك المعنى الكريم ، يتـــبرج فى أبهـــى صوره ، وآنق حلله ، ويزف زفاف العروس .

والفضيلة الثانية : إمتاع البصر والبصيرة :

قال الإمام عن الاستعارة إنها أهدى إلى (أن تُخرِجَ لك مـــن بحرهـــا جواهرَ ، إن باهتها الجواهر مدَّتْ فى الشرف والفضيلة باعا لا يَقْصُرُ ، وأبْـدَتْ من الأوصاف الجليلة محاسنَ لا تُنْكَرُ ، وردَّتْ تلك بصُفْرةِ الخَجَل ، ووَكَلَتْـــها إلى نِسْبَتِها من الحَجَر) (٢) .

وفى هذا النص يعقد الإمام مفاضلة بين جواهر الاستعارة المستخرجة من أثمار العقول والقرائح ، وجواهر الذهب ، من حيث طولُ البا ع ، والاستحواذُ على النصيب الأوفر من المحاسن ، ففاقت جواهرُ الاستعارة ، وردَّتْ جواهـــرَ الذهب (بصفرة الخجل ، ووكلتها إلى نسبتها من الحجر) ، وأصبـــح الـــذى يقارن بينهما كأنما يقارن بين جواهر وأحجار !!

(١) الشوقيات : ١ / ٣٨ .

(٢) أسرار البلاغة : ٤٢ ت . شاكر .

ومرد ذلك الفضل عند النظر ، إلى أن قصارى ما يفعله الذهب أن يبلغ فى الزينة الغاية ، وأن تتعشق الأنظار منظره ، بخلاف جواهر الاستعارة فإنها تمتع البصر والبصيرة ، وتغذى القلوب بجواهر الحسن ، كما تغذى الأبصار بجودة سبكها ، وإتقان رصفها ، فالحسن فى الذهب حسن منظر ، لا غير ، والحسن فى الاستعارة حسن منظر وحسن مخبر ، فاجتمع لها الحسن من جهتيه .

والفضيلة الثالثة : إثارة المعانى من معادنها :

ذكر الإمام عبد القاهر أن الاستعارة أهدى إلى (أن تُثِيرَ من مَعْدِنِها تِبْراً لم ترَ مثلَه ، ثم تصوغ فيها صياغات تُعطِّلُ الحُلِيَّ ، وتُرِيك الحَلْيَ الحقيقيّ) [1] .

لما فاضل الإمام – آنفا – بين الاستعارة والذهب ، ووازن أصلها بأصله ، فاضل هنا بين الصور الناشئة عن هذين الأصلين ...... لينبه على قاعدة مهمة فى باب الموازنة بين المعانى ، وهى ضرورة أن يوازن الأصل بالأصل ، والصورة بالصورة ، فلا تكون الموازنة صحيحة إذا وازنت أصل المعنى بفرع شبيهه ، أو وازنت الأصل بالأصل ، وأغفلت الفروع الناشئة عنهما .

الإمام يصف الطريق إلى استخراج المعانى

وقول الإمام (أن تثير من معدنها تبراً لم تر مثله) يصف الطريق إلى استخراج المعانى ، وكيف تتغازر المعانى النابتة من أصل واحد ، وتتكاثر الصور النامية من جذر واحد ، وأنه لا طريق إلى ذلك إلا (بإثارة معدن الكلام) ، أى تحريك رأس الفكرة ، وتقليبها على صورها الممكنة ، حتى تستخرج هذه (الإثارة) فكرا جديدا ، هو من ولائدها وبناتها ؛ لأنه نبع من مشكاتها ، وخرج من أُرُومتها وصُلبها . وهذه الإثارة هى ثمرة كد العقل وعكوفه على تشقيق المعانى ورصد صورها ، حتى يبدو المعنى وهو يحمل فوق ظهره آلاف

---

(1) المصدر السابق .

الصور ، كالشجرة تحمل أغصانها ، وتميس على أخرى لا أغصان لها ، فهي وحيدة في مهب الريح ، لا تحتمي بغصن ، أما هذه فمحمية بأغصانها ، مهيبة بقوة أبنائها الواقفين حولها حرسا شديدا وشهبا .

وإثارة المعاني أشبه بإثارة الأرض بالحرث ، لتُغرس فيها بذور جديدة ، تكون مدداً للحياة ، وكلما حسنت هذه الإثارة وعمَّت حتى أبانت عن كل موضع صالح لأن تغرس فيه نبتة ، أو تبذر فيه حبة ، كان أعود بالخير ، وكذلك إثارة المعاني ، كلما كثرت وعظمت حتى كشفت كل ركن منها وزاوية صالحة لأن تكون فرعا للمعنى وإضاءة من أنواره ، كان أرفع لشأن البيان وأفخم .

وقد اشترط الإمام في هذه الصور الولائد التي هي فروع المعنى ، أن تخرج في أبهى صورة من الصياغة ؛ ولذا قال (ثم تصوغ فيها صياغات تُعطِّل الحُلِيَّ ، وتُريك الحَلْيَ الحقيقي) فاشترط أن يفوق المبين عن هذه الصور بلطف صنعته وجودة قريحته صائغ الذهب ، فيسبق شكلَه شكلُه ، وسِوَارُه سوارَه ، وقلادتُه قلادتَه ، بل إن صنعة المبين في ذلك تعطل صنعة الصائغ وتصيبها بالبوار ، وتجعلها بجوارها كالمرأة العاطلة (أي التي لا تتزين بالذهب) بجوار الجميلة الحالية (أي المتزينة بالحلي) .

والفضيلة الرابعة : أُنْسُ الدِّين والدنيا إليها :

قال الإمام عبد القاهر عن الاستعارة إنها أهدى إلى أن (تأتيك على الجملة بعقائلَ يأنَسُ إليها الدِّينُ والدنيا ، وفضائلَ لها من الشرف الرُّتبةُ العُليا) [1] .

---

(1) أسرار البلاغة : ٤٢ ت . شاكر .

وهذه الفضيلة تكشف عن أثر الاستعارة فى (الدين والدنيـــا) ؛ لأن البيان لابد له من أثر ، ولابد له من فِعْل ، إيجابا أو سلبا ، أما هذا الذى هـــو ثرثرة وشقشقة لسان ، فليس ببيان ؛ لأنه لا أثر له ولا قيمة .

وفى هذه الفضيلة دعوة إلى ضرورة أن ينظر الدارس إلى (الأغـــراض والمقاصد) هل حدث لها بالألفاظ التى تبين عنها أُنْسٌ ؟ هــل قــامت بينــهما مودة ؟ ويقرب الإمام ذلك حين يقيس الأنس الــذى يكــون بــين الألفـاظ وأغراضها على الأنس الذى يكون بين العقائل الشريفات المخدرات من النسـاء وأزواجهن . وإيثاره لفظ (العقائل) يدل على أنهــن عــاقلات حكيمــات ، لا طائشات حمقاوات ينفر منهن الرجال .

ولا أعرف معنى لأُنس الديــن والدنيــا بعقــائل الاســتعارة ، إلا أن الاستعارة تظهر مقاصدهما ، وتجعلها سافرة ، محبوبة ، وتغرى على التعلق بهما ، وإنفاذ حكم الله فيهما ...... وكأن الاستعارة رُسُلٌ ترغب فى الدين والدنيـــا ، وتعين عليهما ، وتوثق علاقة الإنسان بهما ... لأن الاستعارة – وهى من قمـــم البيان الشامخة – حين تتأنق معادنها وصورها فى إبراز مقاصد الدين وجواهـــر أحكامه ، ورقائق مواعظه ، ولطائف حكمه ، ونفائس تشريعه ، وأمره ونهيــه ، وحثه وزجره ، تجعل بينك وبين هذه المقاصد العظائم أنسا ، فتســكن النفــس إليها ... وهكذا المقصد الحسن والغاية النبيلة ، إذا كانت الوسيلة الدالة عليــها نبيلة ، كانت أحرى بالقبول .. وهل هناك مقاصد أحسن ، ولا غايات أنبل من مقاصد الدين وغاياته ؟

الإمام يدعونا إلى أن نتخير للأشياء الحسنة المعارض التى تُظْهِر حسنها ، ولو اخترنا المعارض السيئة لتكون دليلا على الأشياء الحسنة ، لكنا كالصَّادين عن منابع الحسن ، المضيعين لجواهره بهذا التقصير الفاحش والغبن البين !!

وصف جيد للعلاقة بين اللفظ والمعنى

ووصف العلاقة بين اللفظ والمعنى بأن المعنى يأنس إلى اللفظ ؛ لأن اللفظ يحسن التقرب إليه ، من جيد الوصف ، والاستعارة فى ذلك حائزة على قدر كبير ؛ لأنها وهى فى سبيلها لتبليغ رسالة المعنى ، تلجأ إلى القياس والتنظير ، فتطرح للمعنى شبها قريبا ، ثم تطوى ما بين الشبيهين من مسافات حتى يكونا كالشئ الواحد .

والفضيلة الخامسة : تجديد البيان ،

خص الإمام عبد القاهر هذه الفضيلة والتى تليها بفقرتين مستقلتين ، واستأنف لهما كلاما جديدا ، فقال فى هذه : (ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تُبْرِزُ هذا البيان أبدا فى صورة مُستَجدَّةٍ تزيد قدرَه نُبلاً ، وتُوجبُ له بعد الفضل فضلا ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبتَ بها فوائد ، حتى تراها مكررةً فى مواضع ، ولها فى كل واحد من تلك المواضع شأنٌ مفرد ، وشَرفٌ منفرد ، وفضيلةٌ مرموقة ، وخِلابةٌ موموقة) [1] .

ووصف الإمام هذا الفضيلة بأنها (جامعة) ؛ لأنها قائمة فى الاستعارة المفيدة بجميع أقسامها ،لا يشذ عنها شئ ، ولا تتخلف فى أىّ استعارة .. وتسم هذه الفضيلة الاستعارة بأنها طريقة مفضَّلة من طرق (تجديد البيان) ، أى تجديد المعانى والألفاظ جميعا ، فتجديدها للمعانى بأن تتبرج كل آن فى حلى سيراء ، وترفل فى برود محبَّرة ،لا تستوفى العيون أفانينها وبدائعها ، كما قال ابن زيدون :

([1]) أسرار البلاغة : ٤٢ ت . شاكر .

حُسْنٌ ، أفانِينُ ، لم نَسْتَوفِ أعْيُنُنا

غاياتِه بافانينٍ من النَّظَرِ (١)

فلا تمل النفوس من ورود المعانى عليها – وإن كانت معادة مكـوورة – لأنها تتقلب فى مسارحها ومفاتنها ، وتَقْرِى العيونَ ببدائع حُلاَها ، كأنها وقعـت على أبكار المعانى .

وتجديدها للألفاظ بأن تكسبها فوائد جديدة ، فإذا باللفظ يتوارى خلفه معنى غير معناه ، وهكذا حيث نقَّلته براعة المتكلم طوى وراءه فى كل موضـع معنى جديدا ، فتراه مكررا فى مواضع كثيرة ، ولكن له فى كل موضع عطـاء متجدد (وشأن مفرد ، وشرف منفرد ، وفضيلة مرموقة ، وخلابة موموقـة) كما قال الإمام

هذا طرف من تجديد الاستعارة للبيان ، ولو أغلقـت أبـواب هـذا التجديد لجمدت الألفاظ وتحجرت على معانيها ، وماتت المعانى بموت الألفـاظ ودورانها فى حلقات مفرغة ......

فلا سبيل إلى تجديد المعانى بدون تجديد الألفاظ وإحيائها ، وبعـث مـا أمتناه من لغتنا وأمتنا معه جواهر معانيه ، ورحم الله عليا الجارم شاعر العروبة ، حين صور ذلك – وأجاد – فقال :

كم لَفْظَةٍ جُهِدَتْ مما نُكَرِّرُها

حتى لقد لَهَثَتْ من شدةِ التَّعَبِ

ولَفْظَةٍ سُجِنَتْ فى جَوفِ مُظْلِمَةٍ

لم تَنْظُرِ الشمسُ منها عينَ مُرْتَقِبِ

---

(١) ديوان ابن زيدون : ص ٨ .

كانما قد تولّى القَارظانِ بها

فلم يَؤُوبا إلى الدنيا ولم تؤُبِ [١]

والأبيات دعوة مخلصة إلى إحياء اللغة وبعثها، وتجديد الفكر والمعانى بها، حتى لا تكون ألسنتنا لسانا واحدا يدور فى أفواه شتى، ولا تكون عقولنا عقلاً واحدا ركب فى أدمغة كثيرة، (وقد نطق شعر الجارم بهذه الرغبة العارمة فى استحياء الألفاظ الغريبة التى يتحاشاها الأدباء والشعراء فى زماننا هذا ؛ زهادة فيها، أو جهلا بها، أو استسهالا للألفاظ القريبة السهلة المستهلكة) [٢] .

وأبيات الجارم تثير فينا دعوة أخرى إلى التجديد فى الكتب والمؤلفات، حتى لا يكون بعضها صورا مكرورة للبعض الآخر .. وهذا لا يعنى إلغاء الشواهد المألوفة المشهورة ووأدها، بحجة أن هذا ليس زمانها، وأنها كانت فى زمان غير هذا الزمان ؛ فإن هذا لا يقوله منصف ؛ فهذه الشواهد مهمة جدا ؛ لأنها صارت مفاتيح لأبواب العلوم ومسائلها، ورموزا تطوى وراءها ما فى هذه الأبواب والمسائل من دقائق، ولكن ينبغى أن يضاف الطارف إلى التليد، ويضم جهد الخلف إلى موروث السلف، فيضيف كل كاتب إلى هذه الشواهد ثمرة قراءاته، ونور بصيرته، ومذخور ثقافته ؛ وبهذا تتباين الكتب، وتتجدد المعرفة فى قلوبنا، وبين أيدينا .

---

(١) ديوان على الجارم : ٢ / ٣٣٣ ط . دار الشروق ط . ثانية ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م (والقارظان : اللذان يجمعان القَرَظَ ، شجرٌ له ورق وثمر ، وهما أجود ما تُدْبَغ به الأُهُبُ فى أرض العرب . ومن أمثالهم " لا يكون ذلك حتى يؤوب القارظان " ، وهما رجلان : أحدهما من عَنَزَةَ ، والآخر عامرُ بن تميم بن يَقدُمَ بن عَنَزَةَ ، خرجا ينتحيان القَرَظَ ويجتنيانه ، فلم يرجعا ، فضُرب بهما المثل للمفقود الذى يُؤيَسُ منه) [لسان العرب : قرظ بتصرف] .

(٢) مستقبل الثقافة العربية د . محمود الطناحى ، رحمه الله / : ص ٦٦ ط . دار الهلال العدد ٥٨١ .

والفضيلة السادسة : الإيجاز .

قال الإمام عبد القاهر عن الاستعارة : (ومن خصائصها التى تُذكَر بها ، وهى عنوان مناقبها ، أنها تعطيك الكثيرَ من المعانى باليسير من اللفظ ، حتى تُخْرِجَ من الصَّدَفة الواحدة عِدَّةً من الدُّرر ، وتَجْنِىَ من الغُصْنِ الواحد أنواعا من الثمر) [1] .

وقد عنى الإمام بهذه الفضيلة ، فأفردها – كسابقتها – بالذكر ، وجعلها من الخصائص المعلومة التى تلازم الاستعارة ؛ لأنها (عنوان مناقبها) .

والاستعارة جامعة للإيجاز بنوعيه : إيجاز الحذف ، وإيجاز القِصَر ، أما إيجاز الحذف ، فذاك عمودها الذى قامت عليه ؛ فلا يدخل الكلام باب الاستعارة إلا إذا حذف منه أحد طرفى التشبيه ، سواء أكان كلمة أم جملة أن أكثر من جملة ، فتكون إيجازا بحذف كلمة فى الاستعارة التصريحية بنوعيها (الأصلية والتبعية) ، وفى الاستعارة المكنية ، حيث يحذف المشبه فى الأولى ، والمشبه به فى الثانية . وتكون إيجازا بحذف جملة أو أكثر فى الاستعارة التمثيلية ؛ لأن المحذوف فيها هيئة كاملة ، كما فى قولهم للمتردّد (أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى) ، فالمحذوف هو هيئة المشبه التى تصاغ فى جملة على تقدير : أنت متردد فى أمرك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، أو تصاغ فى أكثر من جملة على نحو ما قدرها الإمام عبد القاهر فقال : (قد جعلت تتردد فى أمرك ، فأنت كمن يقول : أخرج ولا أخرج ، فيقدم رجلا ويؤخر أخرى) [2] .

---

(1) أسرار البلاغة : ٤٣ ت . شاكر .

(2) دلائل الإعجاز : ٧٣ ت .شاكر .

وأما إيجاز القِصَر ، فذلك أن الاستعارة – كما قال الإمام – (تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ ... إلخ) ، وقد ركز الإمام على هذا النوع من الإيجاز فى الاستعارة ، ولم يذكر إيجاز الحذف ؛ لأنه معلوم مشهور .

وليس منشأ إيجاز القصر فى الاستعارة من أن فيها وضع اسم موضع اسم ، كوضع الظلمات والنور موضع الكفر والإيمان فى قوله سبحانه (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور) [1] ، ووضع المنية فى موضع السبع فى بيت أبي ذؤيب :

وإذا المَنِيَّةُ أنْشَبَتْ أظْفَارَها

أَلْفَيتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ

ولا وضع فعل موضع فعل ، كوضع (اصدع) موضع (اجهر) فى قوله عز وجل (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ) [2] ، ووضع (طار) موضع (أسرع) فى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من خير مَعَاشِ الناسِ لهم رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِه فى سبيلِ اللهِ يطيرُ على مَتْنِه ، كلما سَمِعَ هَيْعَةً أو فَزْعَةً طارَ عليه ، يبتغى القتلَ والموتَ مَظَانَّه ...) [3] ، ولكنَّ منشأ إيجاز القصر فيها ما يحمله اللفظ المستعار من معان وظلال هى من الكثرة والوفرة بحيث تخرج منه دررا ، وتجنى منه أنواعا شتى من الثمر ، وكأن هذا اللفظ لما حمل معناه الجديد استودع كنزا ثمينا ، وانبجست منه عين صافية عذبة . وعلى قدر ما يهتدى إليه المتذوق من هذه المعانى والظلال ، يكون إدراكه لحجم إيجاز

---

(1) سورة البقرة : ٢٥٧ .

(2) سورة الحجر : ٩٤ .

(3) رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الإمارة (فضل الجهاد والرباط) : جـ ١٣ ص ٣٤ ، ٣٥ ط . دار الريان للتراث ط . أولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

القصر فى الاستعارة ؛ ولذا يربو الإيجاز وتفيض أنهاره عند نفر من الدارسين ، وينحسر ويفيض عند من لا يناله من الغيث إلا قطرة ، ولا يحظى من الجمال إلا بنظرة ، ولا يذوق من أنهار المعانى إلا كحَسْوِ الطائر الفزِع !!

* * *

تحليل شواهد :

وهذه نماذج لبعض الاستعارات التى تختبئ وراءها أمثال تلك المعانى والظلال ، وتتحقق فيها الفضائل السابقة التى ذكرها الإمام عبد القاهر :

فمنها قوله عز وجل فى اليهود (وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ) [1] ، أى خالط قلوبهم حب العجل ، فاستعير (أشربوا) للدلالة على هذه المخالطة ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، ودلت الاستعارة على عمق هذا الحب الشاذ ، وتغلغله فى قلوبهم تغلغل الماء فى أعضاء الجسم ، كما أفادت أن حبهم العجل ، وعبادتهم إياه ، وحرصهم عليه كان أصل حياتهم وجوهر خصبها ونمائها ، وبدونه لا تقوم لهم حياة ، كما لا تقوم حياة بدون الماء ؛ وهذا يعنى سريان الفساد فى كل معتقداتهم ومسالك حياتهم [2] .

وبنيت الجملة على حذف مضاف ؛ إذ التقدير : " وأشربوا فى قلوبهم حب العجل " [3] ، فحذف المضاف مبالغة فى سريان الحب فى قلوبهم حتى كأنها لم تشرب حب العجل ، بل أشربت العجل ذاته . وهل رأيت (عجاجيل) تذوب فى القلوب وتحشر فيها حشرا ؟ وأى قلوب هذه المنكرة الشاذة ؟ وهل ينتظر

---

(1) سورة البقرة : ٩٣ .

(2) ينظر تفسير الرازى (مفاتيح الغيب) : ٢ / ٢٥٧ ط . دار الغد العربى ط . أولى .

(3) ينظر تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى : ص ٣٤ ت . د / على مقلد ط . دار مكتبة الحياة ١٩٨٦ م .

ممن وضع موضع عقله وتدبره (عجلا) إجابة لدعوة نبى ، أو أن يكـــون نبعـــا للخير ومشكاة للسلام والأمن فى دنيا الناس ؟

وهؤلاء اليهود حين سرى الحب فى قلوبهم مسرى الماء فى البـــدن ، لم يسم بهم كما يسمو بالمحبين ، بل أخلدهم إلى الأرض ؛ لأنه كان حبا شاذا غريبا ، خسيسا ، حب العجل إلههم الذى عبدوه من دون الله .. وهذا شأنهم أبداً ، إذا بلغوا الغاية فى شئ فإنه لا يكون إلا أخسَّ الأشياء وأكثرها شذوذا وبُعْداً عـــن الله جل جلاله ، وهكذا صورهم القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، فـــهم فى الحرص على (الحياة) بلغوا الغاية حتى كانوا (أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ) [1] ، ولكنه حرص الجبان على حياته ، لا حرص الشجعان : (لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلاَّ فِى قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ) [2] ، وهم فى العداوة بالغون الغاية ، ولكنها ليست عداوة أعداء الله وإنما عداوة أوليائه مـــن المؤمنـــين الموحديـــن (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) [3] .

ومن بديع الاستعارات الفياضة بالمعانى قوله سبحانه (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ) [4] استعير الفعل (انسلخ) لـــ (تركها) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعيـــة ،

---

(1) سورة البقرة : ٩٦ .

(2) سورة الحشر : ١٤ .

(3) سورة المائدة : ٨٢ .

(4) سورة الأعراف : ١٧٥ .

فأخرجت الاستعارة ترك الآيات والتفلت منها فى صورة محسوسة ، وهى صورة سلخ الشاة ونحوها [1] ، فزادت المعنى تقريرا والنفوس تنفيرا ممن هذه حاله .

ومن معانى الاستعارة أن هذا المفارق لآيات الله [2] كأنه قد ذبح نفسه ؛ لأن سلخ الشئ يكون بعد ذبحه ... ومن معانيها الدلالة على صعوبة هذا الترك ، ومدى المعاناة الشديدة التى يكابدها من ارتد عن الدين ؛ لأنه يغير فطرة الله ويحاربها ، فكأنه حين نزع ربقة الدين من عنقه نزع معها روحه ونزع جلده بيده ، وهى صورة نكراء مفزعة ؛ ولذا آثر النظم إسناد الفعل (انسلخ) إلى الضمير العائد على هذا التارك ، تفظيعا وتهويلاً بإظهاره فى صورة من يزاول سلخ نفسه بنفسه .

وتأمل تعقيب الله جل جلاله بقوله (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) [3] ، وما فى التعبير بـ (رفعناه بها) [4] من دلالة

---

(1) قال الشريف الرضى : (هذه استعارة ، والمراد بها : نزع ما ألبسناه من فخرها ، وطوّقناه من ذكرها ، وكان كالمنسلخ من ثيابه ، والمتعرى من جلبابه ؛ لأن تلك الآيات لما كانت بمنزلة الكرامات المفاضلة عليه ، فأغفل شكرها ، ولم يعرف قدرها ، حتى ابتز ملابسها ، وحرم نفائسها ؛ جاز لهذه العلة أن يقال : انسلخ منها) [تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى ، ص ٧٨] وقال القرطبى : (الانسلاخ : الخروج ، يقال : انسلخت الحية من جلدها : أى خرجت منه) [تفسير القرطبى ٤ / ٢٧٥٧] واخترت ما ذكر القرطبى من سلخ الحية ونحوها لأنه أدل على الصعوبة والمعاناة من سلخ الثياب .

(2) (هو بلعام بن باعوراء من بنى إسرائيل فى زمن موسى عليه السلام ، وكان فى مجلسه اثنتا عشرة ألف مِحْبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه ؛ ولذا قال الله عنه (آتيناه آياتنا) ولم يقل (آية) ، ثم صار بحيث كان أول من صنف كتابا " أن ليس للعالم صانع ") [تفسير القرطبى : ٤ / ٢٧٥٥ بتصرف] .

(3) الأعراف : ١٧٦ .

(4) ذكر القرطبى أن (رفعناه بها) بمعنى : قبضناه وأمتناه على العمل بالآيات قبل أن يعصى ، فرفعناه إلى الجنة [ينظر تفسير القرطبى ٤ / ٢٧٥٧] ، وأرجو أن يكون ما ذكرته وجها يمكن اعتباره فى فهم الآية ، والله أعلم .

على أن المؤمن الذى آتاه الله آياته فاستمسك بها يرفعه الله بإيمانه ليطل على الدنيا كلها من علو ، كأنما يحلق فى آفاق السماء ؛ لأنه ارتفع على شهواته وهواه ، وتعلق بالسماء ، فكافأه الله من جنس عمله ، فرفعه ، وأعلى قدره ، وأبقى فى العالمين ذكره ... أما الذى جرى وراء الشهوات والهوى ، فانحط إلى السفح ، فهو فى انحطاط وتسفلٍ حتى ينزع ربقة الدين من عنقه ، ولذا قال الله عنه (أخلد إلى الأرض واتبع هواه) ، فكأن اتباعه للهوى حطه من سماوات الرفعة إلى عالم الطين وأوحال المعاصى والعجز والذلة ...... وإسناد الفعل (رفعناه) إلى العظيم جل شأنه فيه تعظيم لشأن المستمسك بدينه ، بأن الله هو المتولى رفعه بنفسه . وإسناد (أخلد) و (اتبع) إلى ضمير التارك دينه ملائم لحاله ؛ لأنه لما تخلى عن ربه تخلّى الله عنه ووكله إلى نفسه ... ويا له من خذلان وحسرة !!

ومن شريف الاستعارة قوله تعالى فى الوصية بالوالدين (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) (١) ، حيث شبه الذل بطائر له جناح ثم حذف المشبه به ، ورمز له بالجناح على سبيل الاستعارة المكنية ، وقوله (اخفض) ترشيح للاستعارة ؛ لأنه من ملائمات المستعار منه .

وقد جعلت الاستعارة ذل الولد – أى رحمته بوالديه وعطفه – طائراً خفيض الجناح (٢) ، يستظل بسماء والديه ، ويَنْشَق نسيمها ، وينعم بخيرها وعطائها ، فإذا عقهما كان كأنما رفع جناحيه لينفذ من أقطار هذه السماء ، ويخرق ناموس الكون الذى أحكمه الله .

---

(١) سورة الإسراء : ٢٤ .

(٢) ينظر تلخيص البيان فى مجازات القرآن : ص ١٥٠ .

والاستعارة واردة فى سياق بلغ فيه الوالدان أو أحدهما الكبر ، فأويا إلى ظل الابن ورعايته ، قال تعالى (إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) (١) ، ومع بلوغهما عنده الكبر وعيشهما فى ظلاله ورعايته ، جعلت الاستعارة الابن هو الذى يعيش فى ظلالهما وتحت سمائهما ؛ لأنهما مهما كبرا وتنفس بهما العمر سماؤه التى تظله ، وتمده بالخير والسعادة .

ورغم تكرار الاستعارة بخفض الجناح فى القرآن الكريم ثلاث مرات ، إلا أن لفظ (الذل) لم يذكر إلا فى هذا الموضع ، واقتصر الموضعان الآخران على خفض الجناح فقط ، فقال تعالى مخاطبا رسوله الحبيب سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم : (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) (٢) ، (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (٣) ، ولفظ (الذل) لا يليق بمقام النبوة ؛ لأن خفض النبى صلى الله عليه وسلم جناحه للمؤمنين تواضع لهم ، وإيناس ولين يؤلفان القلوب برحمة من الله ؛ ولذا قال تعالى (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) (٤) ، وأما خفض الولد جناحه لوالديه فهو انكسار لهما وعدم تبجح بالطير فى سمائهما .

وقوله " من الرحمة " احتراس لطيف ، يفيد أن الذل للوالدين هو البر بهما ، (وليس هو الذل المسف الدنئ ، وإنما هو ذل سام نبيل) (٥) ..

---

(١) سورة الإسراء : ٢٣ .

(٢) سورة الحجر : ٨٨ .

(٣) سورة الشعراء : ٢١٥ .

(٤) سورة آل عمران : ١٥٩ .

(٥) التصوير البيانى د . محمد أبو موسى : ص ٢٨٧ .

والاستعارة فى آية الإسراء مكنية ، وفى الموضعين الآخرين تصريحية حيث استعير فيهما الجناح للجانب [1] .

ومن روائع الاستعارة فى البيان النبوى قوله صلى الله عليه وسلم :

(إن هذه القلوبَ تَصْدَأُ كما يَصْدَأُ الحديدُ . قيل ، يا رسولَ اللهِ ، فما جِلَاؤُهَا ؟ قال ، تِلَاوةُ القُرْآن) [2] . ففى هذا الحديث استعارتان قامتا على تشبيه ما يعترى القلوب من الغفلة بالصدء ، وتشبيه زوال هذه الغفلة عن طريق تلاوة القرآن بالجلاء الذى يزول به الصدء ، ثم حذف المشبه ، واستعير له المشبه به استعارة تصريحية تبعية فى الفعل (تصدأ) وأصلية فى (جلاؤها) .

ومن معانى الاستعارتين أن الحديد إذا صَدِئَ كان هشاً ضعيفاً ؛ وكذلك القلوب الغافلة هشة ضعيفة ، تخترق أستارَها معاولُ الشهوات ووساوس الشياطين ؛ لأنها لا تجد فيها مقاومة .

ومن معانيهما أن صدء المعادن غطاء يحجب أصلها وجوهرها ؛ وكذا صدء القلوب ، غطاء يحجب عنها الأنوار ، ويغطى معادنها ، ويعطل قواها الحية الحساسة بتراكمه طبقات بعضها فوق بعض ، حتى تبعد الشقة بين القلوب وخالقها جل جلاله .

وقوله (كما يصدأ الحديد) تشبيه صريح ، وقع بعد الاستعارة الأولى مؤكدا لها ، ودالاً على أن هذه القلوب قد توارت وغابت خلف أسوار الغفلة حتى طمست معالمها ، وطفئت أنوارها ، ولم يبق ثمة إلا الصدء ، فمن رام

---

(1) ينظر المصدر السابق .

(2) الحديث فى كنز العمال للمتقى الهندى : ١ / ٤٤٥ برقم ٢٤٤١ ت . بكرى حياتى وصفوة السقا . ط . مؤسسة الرسالة ط . خامسة ١٤٠٥ هـ / ١٩٥٧ م .

هدايتها فليزل عنها هذه الأسوار ، وليحررها من أغلال غفلتها ، لتكون أهـلاً لخطابه ، وطريق تحريرها (تلاوة القرآن) .

ومن رائق الاستعارة قول الإمام على - كرم الله وجهه - (من صـلوع الحق صرعه) [1] ، ففيه استعارة مكنية ، حيث شبه (الحق) بقوىّ فاتك يدخل حلبة المصارعة ، فيصرع كل من يغالبه ...... وفيها دليل على خطأ كـل مـن غالبه ، وألقى بنفسه بين يديه .

فضلا عما فى هذا الأثر الكريم من تصوير لطبيعة العلاقة بـين الحـق والباطل بأنها (مصارعة) أى مغالبة تعتمد على القوة .

وللشعراء فى الاستعارة تصرف واسع ، حيث بنوا فى واديها فأحسـنوا البناء ، ونختار من سابقيهم ومجوديهم فى هذا الفن شاعرين : قديم ، ومحـدث ، فنختار من الأقدمين أبا تمام ، ومن المحدثين محمود حسن إسماعيل .

فأما أبو تمام فله فى هذا الفن قدم راسخة ، ومعان دقيقة ، وقد أكثر منه فى شعره ، حتى قال أبو العلاء المعرى إن شعر أبى تمام معدن الاستعارة ، ومـن جيد استعاراته قوله يمدح المأمون :

ما زلتَ ترغبُ فى العُلَى حتى بَدَتْ ... للراغبـين زَهَادَةٌ فى العَسْجَدِ
لو يَعلمُ العافون كم لك فى النَّدى ... مـن لذَّةٍ وقريحةٍ لم تُحْمَدِ
وكانما نافسـتَ قَدْرَكَ حَظَّهُ ... وحَسَدْتَ نفسَك حين أن لم تُحْسَدِ
فإذا بَنَيتَ بجُود يومِكَ مَفْخراً ... عَصَفَتْ به أرْوَاحُ جُودِكَ فى غَدِ
وبَلَغْتَ مَجْهودَ الخلائقِ آخِذاً ... فيها بشأْوِ خلائقٍ لم تُجْهَدِ [2]

---

(1) مجمع الأمثال للميدانى : ٤ / ٥٣ ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ط . عيسى الحلبى .

(2) ديوان أبى تمام : ٢ / ٥٣ .

الاستعارة فى البيت الرابع ، ومهّد لها الشاعر بتشبيه قـوى فى البيـت الثالث ، كان هو المدخل إلى الاستعارة ، وذلك أن الممدوح لما بلغ غاية العُلى ، أخلد منافسيه إلى اليأس ، وزهدهم فى طلب المعالى ، فلم يبق له منافس ، حـتى جرد من نفسه منافساً ؛ لعلمه أن المنافسة فى كل شئ سر إتقانه وماء حياتـه ، فكانت هذه المنافسة بين الممدوح ونفسه هى المدخل إلى الاستعارة الذى يفسـر كيف كان الممدوح كل يوم هادما لما يبنيه من المفاخر ؛ لأنه فى كل يوم يعلـو ويرتقى ، ويبتكر المعالى ، على نحو ما قال الآخر :

وذبتِكُر المعالى كالمعانـــى كانكَ ناظمٌ فى المجدِ شِعرا

فصورت الاستعارة المكنية (المفاخر) بأنها قصور تبنى وتشيد ، فتسـحر العقول والأبصار ، وتقف شامخات تنبئ عن تفوق الممدوح ونبوغه ، وهكـذا أخرجت الاستعارة (المفاخر) إلى حيث تدرك بالحس وتراها العيون ... كمـا صور أبو تمام (الجود) على جهة الاستعارة المكنية بصورة متقابلة ، فهو عنـد الممدوح بان هادم أبداً ، يبنى قصور المفاخر ، ثم يهدمها ويعصـف بهـا ؛ لأن منافسة الممدوح لنفسه – حين انقطع أن يكون له منافس – تبتكر المفاخر أبدا ، فهى كل يوم فى تجديد ، وهكذا شأن النفس الكريمة فى كفاحـها فى الحيـاة ، لا ترضى بما ابتكرت من المعالى ، حتى تبتكر خيرا منه ، ولا رُقِىَّ للحياة الكريمة إلا بهذا ...

ومن جيد استعاراته قوله من قصيدة يمدح بها عمر بـن عبـد العزيـز الطائى ، من أهل حمص :

سَافِرْ بطَرْفِكَ فى أقْصَى مَكارِمِنا إنْ لم يَكُنْ لكَ فى تأسيسها سَفَرُ
هَلْ أوْرَقَ المجدُ إلا فى بنى أُدَدٍ أو اجْتُنِى منه لولا طَيِّئٌ ثَمَرُ ؟ (١)

(١) ديوان أبى تمام : ٢ / ١٩٠ . (وأُدَدٌ : أبو عدنان ، وهو أُدُّ بنُ طابخةَ بن إلياسَ بنِ مُضَر .. وأُدَدٌ : أبو قبيلة من اليمـن ، وهو أُدَدُ بنُ زيدِ بنِ كهلانَ بنِ سبأ بنِ حِمْيَرَ) [اللسان : أدد بتصرف] .

فهذه مكارم (طيئ) يتغنى بها الطائى ، فيصورها بأنها مملكة ممتدة واسعة ، على سبيل الاستعارة المكنية فى لفظ (مكارمنا) ، الدالة على سعة هذه المكارم وامتداد سلطانها فى شتى الجوانب ، فى سجايا النفوس ومروءتها وكرمها ، وفى تأسيس الفضائل ، ونحو ذلك مما يشمله لفظ المكارم ... ومكارم النفوس حين تتسع فتكون ممالك ، لا يمكن معرفة قدرها ومداها إلا بنظر ثاقب وفكر عميق ، يقطع آفاقها ويتجول فى رياضها الغناء ، فيقف على بدائع صورها ؛ ولذا استعار أبو تمام (السفر) لهذا النوع من النظر والفكر ،فقال (سافر بطرفك) ، وجعل (الطرف) مطية السفر ، ثم أضاف فى البيت الثانى استعارة مكنية جعلت (المجد) شجرا ، ولكنه عند غير (طيئ) عقيم ، لا ينتفع منه بظل ولا ثمر ، فله صورة المجد لا جوهره ، فلما انتسب إلى (طيئ) دبت فيه حياته وربيعه ، فأورقت أشجاره وأثمرت ، فعرف الناس معنى المجد الذى طالما افتقدوه ، فاستظلوا به واجتنوا ثماره .

فأثرى أبو تمام اللغة والفكر ، حين أرانا (المكارم) و (المجد) و (السفر) فى صورة ممتعة ، فجدد معانيها ، وآنس بها القلوب ، وكأن ما عرفناه منها قبل بيتى أبى تمام شئ آخر غيرها .

ومن جيد استعاراته أيضاً قوله يخاطب " المعتصم " ويحثه على أن يجعل الخلافة من بعده لولده " الواثق " :

ولقد عَلِمْتُ بانَّ ذلكَ مِعْصَمٌ

ما كنتَ تَتْرُكُهُ بغيرِ سِوَارِ [1]

([1]) ديوان أبى تمام : ٢ / ٢٠٩ .

قال الخطيب التبريزى : (جعل ابنه بمنزلة المعصم ، قال : فكما لا يُترَكُ المعصم عُطْلاً خاليا من الحَلْى ؛ فكذلك لا تُخْلِيه من الخلافة) [1] ، ففى البيت تشبيه واستعارة ، فالتشبيه فى قوله (ذلك معصم) : شبه ابنه الواثق بالمعصم - (وهو موضع السِّوار من اليد) [2] - دلالة على أنه قطعة منه ، فشرفه من شرفه ، وإسعاده من إسعاده ، كما أنه يده القوية ، وساعده الأشد .. فلما جعله معصما على التشبيه ، سوغ ذلك أن يستعير (السوار) للخلافة استعارة تصريحية أصلية ، تدل على ما للخلافة من بريق كبريق الذهب أبدع الصائغ نقشه فجعله سوارا فريدا تتهافت النفوس عليه وتتصارع ...... فالواثق معصم ، والخلافة سوار يزينه ، وحرمانه منها يدع المعصم عاطلا مما يزينه ، فما الخلافة إلا زينة للواثق يزدان بها ، فإذا جاءته زانته ، وعلقت بأحسن مواضعها ، ووقعت فى أحق مواقعها ، وإذا أخطأته لم تنقص من نبله وشرفه .

وأما محمود حسن إسماعيل [3] فللاستعارة فى شعره عالم رحب ، ولو نزعت من شعره ما بقى منه إلا أقله ، وكثرة الخيال الاستعارى عنده جعل شعره فوق قمم عوال من شوامخ الجبال ، لا يرتقى إلى مرامه منه إلا من عكف عليه وأرهف حسه ؛ ولذا اختبأت معانيه فى لفائف الخيال المحبب إلى متذوقى شعره وروّاد فنه الشجىّ وعالمه المسحور ؛ وبهذا السبيل أصبح طالب مراميه

---

(1) شرح التبريزى لديوان أبى تمام : ٢ / ٢٠٩ .

(2) لسان العرب (عصم) .

(3) " رائد من أكبر رواد مدرسة الشعر الوجدانى فى العصر الحديث ، وهو من الجيل الذى جاء بعد جيل شوقى وحافظ ومطران وزملائهم ، ذلك الجيل الذى نطلق عليه " جيل أبو لو " ، وهى المدرسة الشعرية التى أسسها فى مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين الرائد أحمد زكى أبو شادى ، وقد رحل محمود حسن إسماعيل عن دنيانا فى الخامس والعشرين من أبريل ١٩٧٧ م " [محمود حسن إسماعيل مدخل إلى عالمه الشعرى د . عبد العزيز الدسوقى : ص ٣ ، ٤ بتصرف د . دار المعارف . سلسلة " كتابك " رقم ٣١] .

كمن ينقب عن حلول لمعادلات فى علم الكيمياء ، ترهقه ولكنها تمتعه وتسعده ؛ ولعل هذا مما عناه الدكتور أحمد درويش حين عنون مقالاً له فى ذكرى الشاعر بـ (كيمياء التعبير والتصوير فى شعر محمود حسن إسماعيل) [1] ، وأكد فيه أن (" المزج الكيميائى " تقوم به الاستعارة) [2] ، وأن الامتزاج فى الاستعارة - أو الصهر الكيميائى ، كما يروق له أن يسميه - أقوى منه فى التشبيه ، ففى الاستعارة (تحس أن مدلولات الكلمات تتصادم ، وكأنها طيور فُزِّعت من مرقد آمن فى جوف ليل سحيق) [3] ... وهذا ونحوه مما قاله النقاد فى شعر هذا الشاعر الفذ ، مرده إلى عمق الخيال عنده ، وأنه يضرب به فى جذور بعيدة ، وأغوار تغوص فى الأعماق لتستل سر الحياة ، أو على حد قوله :

دَعُونى أُغَنِّى ..
فإنَّ الغناء طريقى إلى كل سرٍّ بعيدْ
خُلقتُ لأرتادَ رُوحَ الحياةِ ،
وأسئلَ أعماقَها للوجود
ومهما سرى قَبْلِىَ السائرونَ ،
فإنى على كل خَطوٍ جديد .. [4]

وتلك هى الغاية السميا للشاعر : أن يجعل غناءه نورا يكشف السر البعيد ، وألا يقف مع ظواهر الوجود ، بل يغوص فى سرائره ليرتاد " روح

---

(1) مقال منشور فى مجلة إبداع للدكتور أحمد درويش ، العدد السابع يوليو ١٩٩٢ : ص ٩١ .

(2) المصدر السابق : ص ٩٩ .

(3) المصدر السابق : ص ١٠٣ .

(4) ديوان محمود حسن إسماعيل (الأعمال الكاملة) : ٢ / ١١٠٩ نشر دار سعاد الصباح ط . أولى ١٩٩٣ م .

الحياة " فى كل شئ فى الحياة : فى الأرض والسماء ، والإنسان والحيوان ، والنبات والجماد ، فى الصامت والناطق ، والماء والنار ، والموت والحياة ، حتى فى زقزقة العصفور ، وصياح الديك الذى يلقى على " الكوخ " وعلى الكون كل صباح " أرجوزة " ولحنا غنائيا مطربا :

يُلْقِى عليه الدِّيكُ أرْجُوزَةً
غَنَّى بها إصْبَاحُهُ السَّافِرُ
كانه ينعىَ مماتَ الدُّجَى
ونَعْشُهُ فوق الرُّبَى سائِرُ
أو أنه يَشْدُو لعُرْسِ السَّمَا
ونُورُهِا ضَافِى السَّنَا طَافِرُ
أو أنه يُسْمِعُ رَكْبَ المَلاَ ،
كذا يُدِيلُ الأولَ الآخرُ ! [1]

أرأيت كيف شبه صياح الديك بالأرجوزة الخفيفة ، ثم استعار الأرجوزة لصياحه ؟ وكيف أبان عن إعجاب الإصباح بها ، فاتخذها وِرْدَه ونشيدَه اليوميّ ابتهاجا باستقبال الحياة ، وترحيبا بميلاد كل فجر جديد ...... ولا يخفى ما فى هذا التصوير من استعارة مكنية أنطقت " الإصباح " وجعلته مغنيا ، يتذوق الكلمات الفذة ، فلا يتركها تضيع حتى ولو خرجت من فم " ديك " !!

وفى الأبيات الثلاثة الأخرى تشبيهات متتابعة : شبه صياح الديك بالناعى الحزين ينعى ممات الدجى ، أو بالمطرب الشادى فرحا بعرس السماء

---

(1) المصدر السابق : ١ / ١٨ ، ١٩ .

وإشراق نورها بعدما غشاها الليل بظلامه ، أو بالواعظ الحكيم الذى اقتنص لحظة التحول فى الكون حين يزيل النهار بأنواره دولة الليل ويستولى على عرشه وسلطانه ، فقام مؤذنا بأن تداول الأيام بين الناس صورة من هذا التداول فى صفحات الكون .

ثم مزج هذه التشبيهات الثلاثة باستعارات تحيا فى جوفها وتستقى من مائها ،فهذا الدجى قد مات " ممات الدجى " وقام الديك ينعاه ، وهذه " الرُّبى " تحمل فوق أعناقها نعش الدجى ، أى تطارد فلوله فى أعالى الأفق كأنها تحملها على أعناقها لتلقيها وتزيلها عن عروشها التى استولى عليها الخيط الأبيض من الفجر .. وهذا كله من بدائع الاستعارة المكنية فى البيت الثانى ، خرجت من عباءة التشبيه ، وأشرقت أنوارها من فجره .

وأخيراً هذا هو النور الذى زُفَّ للسماء كما تزف العروس ، ترفل فى أبهى حللها ، فقام الديك شاديا لهذا العُرس العجيب : (أو أنه يشدو لعُرس السَّما) ، وهذا من باب الاستعارة التصريحية التى جعلت النهار عُرساً للسماء ، واستعارت العرس له ، للدلالة على عموم البهجة والسرور والأنس والإسعاد .

وهكذا اتكأت الأبيات الأربعة على فن التصوير البيانى الذى مزج التشبيه بالاستعارة ، والاستعارة بالتشبيه ، مع حسن الصنعة ، وجودة السبك ، والتأنق فى انتقاء الألفاظ ، وهذا غيض من فيض يقال فى تلك الأبيات ، وفى إبداع ذلك الشاعر الملهم ...

وهذه رائعته فى زهرة القطن (كنز الذهب الأبيض) – وما أكثر روائعه فى تصوير الطبيعة والبوح بمكتوم أسرارها – يقول فى مطلعها :

حِينَ ذَابَ الطَّلُ فـى كَاسَاتِها   لُؤْلُؤاً يُجْرِى على كَفِّ الشُّعَاعْ
لَثمَتْ خَدَّ الضُّحى وابتَسَمتْ   كابتسامِ الطفلِ فى عَهدِ الرَّضَاعْ [1]

والبيتان مزيج متداخل من التشبيه والاستعارة ، فى صور متعانقة يـأخذ بعضها بحجز بعض ، فهذا البيت الأول قام على تشبيه فى قلبه استعارة تصريحية ، فما أن تم التشبيه حتى جاء فى إثره استعارة أخرى مكنية ممتدة منه .. أما التشبيه فمع بساطته ، ومجيئه مفرداً بمفرد ، إلا أنه غنىّ بالدلالة على الصفـاء والنقـاء والنفاسة ؛ حيث شبه الطل الذائب المتساقط عل زهرة القطن باللؤلؤ : (حـين ذاب الطل .. لؤلؤاً) فدل التشبيه على شده البياض وصفائه ؛ كما دل على أن قيمة الطل فى حياة زهرة القطن كقيمة اللؤلؤ لأنه من سبل نضجـها وربحـها الوفير ...... وأما الاستعارة الواقعة فى قلب هذا التشبيه ففى قوله (فى كاساتها) ولو قال (فى زَهْرَاتها) لما اختل الوزن ، ولكن تختل الصورة التى تعطينا شـكل هذه الزهرات ، وما وراء هذا الشكل فى حسّ الشاعر من خيال خصب ، فـهى من حيث الشكل تشبه الكاسات ، ومن حيث الحسُّ الخيالى المترتب عليها فإنـه لما جعلها كاسات أودعها سائلا مذابا من اللؤلؤ ، وهذا تأكيد لكونها (كاسات) ومحو لصورة التشبيه ... وأما الاستعارة المكنية الواقعة فى إثر التشبيه ففى قولـه (كَفّ الشعاع) حيث جعل للشُّعاع كفّاً ، وبهذا ارتقى فى الخيال فجعل اللؤلؤ المذاب فى الكاسات لا يجرى على يد ساقٍ كما تدار الكؤوس وتجرى ، ولكـن أعطانا كفا خيالية من الشعاع أى من الضوء الصافى الرقيق الشفاف ، فقـوّى الخيال فى البيت وجعله يستوعبه كله ...

([1]) ديوان محمود حسن إسماعيل (الأعمال الكاملة) : ١ / ٢٣ .

والبيت الثانى مرتبط بالأول بناءً وتصويرا ، أما من حيث البناء التركيبى ، فإن ظرف الزمان (حين) الذى افتتحت به القصيدة ، متعلق بالفعل (لَثَمَتْ) ، وقُدِّم على متعلقه تشويقا إلى ذكر ما يحدث فى هذا الظرف الخيالى ، وفيه دلالة على دقة الصنعة ؛ لأن الفعل (لَثَمت) عُطِفت عليه أفعال كثيرة بعده ، فكان هو مفتاح أفعال وأوصاف كثيرة تحدث فى هذا الظرف استغرقت ثمانية أبيات بعده ، والسياق كما قال الشاعر :

حِين ذابَ الطَّلُّ فـى كاساتِها ... لُؤلُؤاً يَجْرِى علـى كَفِّ الشُّعاعْ
لَثَمَتْ خَدَّ الضُّحَـى وابتَسَمتْ ... كابتسامِ الطفلِ فى عَهدِ الرَّضاعْ
وبَدَتْ صفراءَ تحـكـى غادةً ... ذَبُلَتْ نَضْرَتُهـا يومَ الوَدَاعْ
تَخْفِقُ النسْمةُ فـى أهـدابِها ... خَفْقَةَ العاشقِ فى ليلِ الزِّماعْ [1]
فتراها فى الرُّبـى راقصـةً ... زانهـا الضـوءُ بزَهْوٍ والتِماعْ
ذاتَ كاسٍ أترَعتْ شمسُ الضحى ... ريقَها مـن خمرةِ النـورِ المُشاعْ
كلما خَفَّتْ لهـا ريح الصَّبا ... أهرقَتْ صَهْباءَها فـوقَ البقاعْ
فجَرَتْ فى كل حـوضٍ جدولاً ... سارياً حـول الرَّوابى واليَفَاعْ [2]
هامِساً يَشْدُو علـى أعْوادِها ... نغماً مستـعذَباً حُلْوَ السَّماعْ
يَنْهَلُ الفلاحُ مـن كَوثَرِهِ ... رِيقَةَ النحلِ ، وسَلْسَالَ الدُّمَاعْ [3]

فلما طالت المعطوفات وامتدت بأوصافها ، سارعَ إلى تقديم الظرف (حين) ، ليكون النغمة الأولى فى القصيدة .

([1]) الزِّماع : السفر (عن هامش الديوان) .

([2]) اليَفَاع : المنخفض أو المرتفع من الأرض (عن هامش الديوان) .

([3]) الدُّماع : ما يسيل من الكَرْم إبَّان قطفه (عن هامش الديوان) .

وأما ارتباط البيت الثانى بالأول من حيث التصوير ، فإن زهرة القطن لما رشفت رحيقها من اللؤلؤ المذاب على كف الشعاع ، كأنما أودعها ذلك قوة وشفافية وصفاء ، فجرّأها على لثم خد الضحى ؛ لأنها صارت شبيها له فى الصفاء ، فعانقته ولثمت خده .

والبيت مبنى على أربعة استعارات يمتد منها تشبيه بعدها ، فالشطر الأول (لثمت خد الضحى وابتسمت) مكون من أربع كلمات يمكن أن يكون فى كل كلمة منها استعارة ، فاللثم مستعار لاستمداد الزهرة من الضحى دفأه ونوره ، وهذه استعارة تصريحية تبعية فى الفعل (لثمت) ، ثم الضحى جُعِلَ له (خد) ، ووراء ذلك استعارة مكنية قامت على تشبيهه بالحسناء ، وفى إضافة الخد إلى الضحى استعارة ثالثة تخييلية ، والرابعة تصريحية تبعية فى (ابتسمت) حيث شبه تفتح الزهرة حين تستقبل أنوار الضحى بالابتسام ، واستعار الابتسام له ، فدل على شكل الزهرة حين تتفتح بشكل فم المبتسم ، كما أفاد الفرحة والسرور باستقبال الضحى ..

وبنى الشطر الثانى (كابتسام الطفل فى عهد الرضاع) على تشبيه الابتسام – وهو آخر صورة فى الشطر الأول ، جعلها مددا لصورة جديدة فى صدر الشطر الثانى – بابتسام الطفل ، ولاحظ الشاعر فى التشبيه طفولة زهرة القطن ، وأنها لا تزال ترضع رحيق الطل ، وتستدفئ بأنوار الضحى ؛ ولذا قيد الابتسام بكونه ابتسام (الطفل) ؛ ليكون أدل على نضارتها وقرب عهدها بنور الحياة ، كما قيده بكون الطفل (فى عهد الرضاع) ليراعى استمداد الزهرة من الطل والضحى ، واعتمادها على الطبيعة اعتماد الطفل واستمداده غذاءه من ثدى أمه .

وللشاعر تأملات روحية أبعد فيها المرمى ، وسبح فى آفاق عالية من الخيال ، فعَلَت صوره ، وترك الباحث عن معانيه فى لفائف الرموز حتى تكشف له الحجب .

وإليك أنموذجا من ديوانه "صوت من الله" الذى أفرده لهذه التأملات :

يقول فى قصيدة بعنوان " هو الله " (حين ركب الطائرة ، وفى أعلى مراقى الارتفاع ، تلاشى إحساس الشاعر بالأرض وعالمها ، وسمع كل ذرة حوله تردد ... هو الله ! فكان هذا النشيد :

علـــى أمـــواجِ هاتيـــكَ الغُيومِ
ومن أعلى المراقــــى فى السَّدِيمِ
فقَدتُ الأمــــسَ لا أدرى مَدَاهُ
ولا أدرى متـــى عَبَرتْ خُطَــاهُ
ولا ما قدمـــتْ ليـــدى يـداهُ
ولا مــــا كان من ماضى أساهُ
سوى هذا المضىِّ إلى النجومِ !!) [1]

فهذه المعانى المولودة فى جو السماء ، بين أمواج الغيوم ، وأعلى مراقى السَّديم ، رقت وراقت ، ووافقت مبانيها معانيها .

والصور البيانية هى أقطاب هذه المعانى ، وهى عمودها من أول بيت ، حيث نقلنا الشاعر من تحليق فى جو السماء إلى سباحة فى لجج البحار ، فشبه غيوم السماء بأمواج البحار ، وجعل الطائرة سباحا ماهرا يفرق طيات الغيوم وينفذ من ثناياها ، كما يفعل السابح الماهر بين لجج الأمواج العوالى وينفذ من

([1]) الأعمال الكاملة للشاعر : ٤ / ١٦٧٩ .

خلالها ...... وفى قوله (ومن أعلى المراقى فى السَّديم) صورة أخرى صعدت بنا إلى أعلى السَّديم (وهو الضباب الرقيق) [1] بسُلَّم ، ففتحت بابا لتخيُّل هذا السُّلم الضخم الذى تصعد عليه الطائرة إلى أعلى السديم ، وجعل السديم جرماً محسوساً يرتقى عليه ، وهذا كله من باب الاستعارة المكنية .

ثم وصف الشاعر إحساسه وهو فى جو السماء ، وكيف فقد الماضى :

فقدت الأمس لا أدرى مداه
ولا أدرى متى عَبَرتْ خُطاهُ
ولا ما قدمـــــتْ ليد يداهُ

فجعل (الأمس) شيئا محسوسا يُفْقَد،وجعل له خُطىً تعبرُ وتمر بالإنسان ، ثم جعل له يداً يُقدِّم بها ، وكأن عمره الذى تساقطت أوراقه ما هو إلا (عابر سبيل) قدم للشاعر شيئا بيديه ، ثم أسرع الخطى حتى غاب .. وهكذا أبان عن صغر الماضى أمام تعاظم سلطان الحاضر الذى هو فيه ، فى أمواج الغيوم ، وأعلى المراقى فى السديم،والاستعارة المكنية هى مطية الشاعر إلى التعبير عما أراد .

ولما مر الماضى فى شعوره مرور البرق الخاطف ، استغرق الشاعر فى وصف لحظته الحاضرة وميلاده الجديد فى الأفق الأعلى ، وجعل القصيدة كلها أوتاراً تضرب على هذا اللحن الجديد ، فقال :

فقد وُلِدَتْ حياتى مـن جديدِ
وفُكَّتْ من أسى الدنيا قُيودى
وشَبَّ على مَعارجِها نَشيدى
جديدَ الطيرِ ، والنغـمِ الوليدِ

([1]) لسان العرب : سدم .

جدَيدَ اللحنِ ، والوَتـــرِ العميدِ
يكادُ يُعانِقُ المجهـــولَ شَوقاً
ويَبْذُرُ فـــى ضِفافِ النفس أفْقاً
هو الخُلدُ الذى انسحرتْ جهاتُهُ
هو الله الـــذى انحجبتْ صِفاتُهُ

وجعلت الاستعارة استئنافه مرحلة جديدة فى حياتـه (ولادة) ، فقـال (وُلدِت حياتى من جديد) ، وليس فى الدلالة على تجديد الحياة ، ومحـو آثـار الماضى ومآسيه من النفوس ، واستقبال الحاضر بروح جديدة وصفحة بيضـاء ، أفضل ولا أنسب من اختيار لفظ (ولدت) ، وكأن المرء إذا رام تجديد حياتـه فعليه أن يعيدها إلى طفولتها الأولى ، ببراءتها ووداعتها وسائر معانيـها البكـر الأُنُف ، التى لم تدنسها يد ، ولم تعكر صفوها نازلة . وهذا شـئ مـن عطـاء التشبيه فى قوله صلى الله عليه وسلم : (من حجَّ هذا البيتَ فلم يَرْفُثْ ولم يَفْسُقْ رجعَ كيَومِ ولدَتْه أمُّه) [1] .

كما جعلت الاستعارة (أسى الدنيا) فى قوله (وفكت من أسـى الدنيـا قيودى) سجنا يكبل أهل الدنيا المحبوسين بين أسوارها بالقيود والأغلال ، فلمـا ارتقى الشاعر إلى أعلى مراقى السديم كان كأنه فُكَّ من هذه القيود ، وصـار حرا طليقا يشدو بالأناشيد ، ويغرد كما تغرد الطيور ، ولذا قال (وشب علـى معارجها نشيدى) ، فجعل للدنيا (معارج) ، وجعل نشيده الجديد يشب عليـها ويصعد ، وهذا كله من صنيع الاستعارة فى الأبيات ...

---

(1) رواه البخارى فى صحيحه (كتاب المحصر) باب قوله الله تعالى " ولا فُسُوقَ ولا جِـدَالَ فـى الحَجِّ) : ٦ / ٣٢ برقم ١٨٢٠ ط . دار الغد العربى .

كما مزج هذه الاستعارات بالتشبيه ، فشبه هذا النشيد الشاب الذى ارتقى معارج الدنيا ، بالطير الجديد مرة ، وبالنغم الوليد أخرى ، وباللحن الجديد مرة ثالثة ، وبالوتر العميد مرة رابعة ، فتتابعت التشبيهات الأربعة :

جديدَ الطيـر ، والنغمِ الوليدِ

جدَيد اللحنِ ، والوترِ العميدِ

وكلها صور غضة طرية تماثل الحياة المولودة من جديد ، والنفس المفكوكة من أسى الدنيا ، المحلقة فى آفاق الفضاء الرحيب .

ثم عاد إلى تيار الاستعارة ، وهى السلك الناظم لجواهر القصيدة ، فقال :

يكاد يُعانِقُ المجهـولَ شوقاً

ويُبْذُرُ فى ضِفاف النفس أفْقاً

فجعل (المجهول) حبيبا يعانقه شوقا إليه ، وهى استعارة مكنية تصور مدى الشوق إلى معرفة هذا المجهول ولقائه ، وكأن النفس حين تنعتق من قيودها ، وتسبح فى مسابح الحرية ، وتحلق فى آفاق الإبداع الجديد ، وتغرد هنالك تغريد الطير (الجديد) ، وتنأى بنفسها عن ذل التقليد والجمود ، وتفك قيودها منه فكاك الأسير السجين – كأنها حين تفعل ذلك ، تقترب من كشف (المجهول) ، وتزيل عنه الأستار حتى تعانقه فرحا بلذة الوصول ...... وهكذا شوق المبدع أو العالم إلى التجديد كشوق الأسير إلى أنوار الحرية ، أو التوق إلى لقاء المحبوب بعد طول البين والفراق .

وقوله (ويُبْذُرُ فى ضِفاف النفس أُفْقاً) مزيج من الاستعارات المتداخلة ، التى أُشْرِب بعضها ماء بعض ، وسُبكت سبكا واحدا ، على نحو ما مر آنفاً فى قصيدة " زهرة القطن " ، فى قوله (لَثَمَتْ خَدَّ الضحى وابتسمت) ، وتلك ظاهرة تستوقف من يدرس إبداع هذا الشاعر ... وهاهو ذا النشيد الوليد الحر

يهذب النفس ويغرس فيها بذور الفضائل ، فصور فِعْل هذا النشيد فى نفسه بفعل الفلاح فى أرضه ، وأخرجنا من أناشيد تهذب النفوس وتنبت فيها الفضائل ، إلى زارعٍ يبذر بذرة فى تربة خصبة ، على ضفاف نهر فياض ، ولذا استعار البذر ، واستعار للنفس نهراً لم يصرح إلا بصفة من صفاته ، وهى (ضفاف) ، وفى إضافة الضفاف إلى النفس استعارة أخرى تخييلية .. كما جعل المبذور فى النفس (أفقاً) ، (و الأُفْقُ : الغاية فى العلم والكرم وغيره من الخير .. وأفَقَ على أصحابه يأْفِقُ أفقاً : أَفَضلَ عليهم) [1] ، فكأن المبذور فى النفس هو غايات العلم والكرم والفضل ، على جهة الاستعارة التصريحية ؛ وبذا يكون الشاعر أودع كل كلمة معنى جديدا ، حين سقى الكلمات الأربع ماء الاستعارة ، فأحياها وجددها .

وبعد هذا الشوط من القصيدة الذى يقف التشبيه والاستعارة منه فى ذروة سنامه ، يجئ النغم الروحى الصوفى عاليا مدويا ، فهو القمة التى وصل إليها الشوط كله ، وهو الغاية التى تقطع إليها النفس كل سبيل ، وتنزع كل قيد ، وتعبر فوق جسور الماضى وخطاه ، وتنسى ما قدمت يداه ، وتسبح فوق أمواج الغيوم ، وتسمو إلى أعلى المراقى فى السَّديم ، لتترنم بهذا النشيد الروحى العذب ، بقلب طفل لم تدنسه أوزار الحياة ، ولم تشغله الشواغل ، وبنفس رواها النور ، وعانقها الشوق إلى اللقاء :

هو الخُلْدُ الذى انسَحَرتْ جهاتُهُ
هو الله الذى انحجبتْ صِفاتُهُ

إلى آخر القصيدة الممتعة التى تحتاج إلى نفسٍ صافية تحسن استقبال تلك المواجيد الروحية العالية ، ورتقى إلى مدارج هذه السبحات والتأملات الرامزة

* * *

---

(1) اللسان : (أفق) بتصرف .

مدخل إلى المجاز المرسل

المجاز المرسل رديف الاستعارة عند المتأخرين ، يشترك معها فى كونه لفظا مستعملا فى غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة مانعة ، ثم يفترقان فى نوع العلاقة ، فهى فى الاستعارة " المشابهة " ، وفى المجاز المرسل غيرها .

وحدة العلاقة فى الاستعارة غلبت كثرة العلائق فى المجاز المرسل

وكان مقتضى إطلاق العلاقات فى المجاز المرسل ، أن يكون أطول من الاستعارة باعا ، وأعظم اتساعا ؛ لأنها (مقيدة) بعلاقة واحدة ، وهو (مرسل) ، أى حر طليق يختار من العلائق ويصطفى ، وينعتق من أسوار (الحقيقة) بوسائل شتى ، وعلى أجنحة كثيرة ، ولا تنعتق الاستعارة من أسوارها إلا على جناح " المشابهة " . ولكن وحدة العلاقة فى الاستعارة غلبت كثرة العلائق فى المجاز المرسل ؛ لقوتها واتساعها وعالميتها فى كل لسان ولدى كل أمة ، وضيق المجاز المرسل وخصوصيته - غالبا - بلسان أمة واحدة لا يتعداها إلى غيرها ......

فكانت العلاقة الواحدة فى الاستعارة ، أقوى من ألف علاقة يسبح فى سمائها المجاز المرسل ؛ لأن كثرة الاستعمال فى حياة الناس هى الحكَم القوى .

الإمام عبد القاهر ينبه على ضعف العلاقة ى المجاز المرسل وقوتها فى الاستعارة

وقد نبه الإمام عبد القاهر على ضعف العلاقة فى المجاز المرسل - وهو عنده ضرب من " الاستعارة غير المفيدة " [1] - وقوتها فى الاستعارة ، وكان الإمام يسمى العلاقة " الملاحظة " ، كما يسميها " الاستناد " ، قال : (ومعنى

---

(1) تسمية هذا الضرب بالاستعارة غير المفيدة ، لا يعنى خلوه عن الفائدة ؛ لأن فيه فوائد بلا ريب ، ولكن الإمام لما وجد فوائده أقل وأضعف مما فى " الاستعارة المفيدة " ميزه عنها بهذه التسمية ، وكان يود لو ضَنَّ عليه باسم " الاستعارة " ، إلا أنه كره التشدد فى الخلاف ، لما وجد العلماء قد خلطوه بالاستعارة ، فعده منها ، ولكنه نبه على ضعفه بأن جعله (استعارة غير مفيدة) وجعله قصير الباع ، قليل الاتساع [ينظر أسرار البلاغة : ٣٠ ، ٤٠٤ ت . شاكر] .

" الملاحظة " : هو أنها [1] تستند فى الجملة إلى غير هذا الذى تريده بها الآن ؛ إلا أن هذا " الاستناد " يقوى ويضعف) [2] ، ثم ذكر أنه يقوى فى الاستعارة وكل ما طريقه التشبيه ، ويضعف فيما عدا ذلك ، كما فى إطلاق اليد على النعمة ، وهذا مجاز مرسل ، واستدل على ذلك بأنك لو استعرت " الأسد " للرجل الشجاع ، فقلت " رأيت أسدا " ، لا تجد لذلك وجها سوى المشابهة ، ولو حاولت أن تدفع تلك العلاقة (حاولت محالا) ، ولو حاولت أن تنكر أن "اليد" حين أطلقت على "النعمة" لا يراد بها ذلك لأمكنك فى ظاهر الحال ، وما خرجت إلى المحال ، ولا يمكن دفعك عما أنكرت إلا برفق وباعتبار خفىّ [3] .

المجاز المرسل يشترك فى فضائل المجاز ، ولكن على قدره

وعلى الرغم من غلبة الاستعارة وعلو كعبها فى فن البيان ، فإن المجاز المرسل ليس بعاطل من الفضائل ، فهو يشترك – على قدره – فى فضائل المجاز عامة من : " العالمية " و " العصمة من الإفراط والتفريط فى تأويل القرآن " و " فخامة المعنى ونباهته " و " الاتساع " وغيرها .

فأما عالمية المجاز المرسل ، فهى واردة محتملة ، وليست قاطعة واجبة كالاستعارة ؛ ولذا قال الإمام عن فروق المعانى فيه إنها (ربما وجدت فى غير لغة العرب ، وربما لم توجد) [4] .

وأما كون المجاز المرسل مما يعصم من الإفراط والتفريط فى تأويل القرآن ، فشواهده كثيرة ، ومنها قوله تعالى (وَاجْعَلْ لِى لِسَانَ صِدْقٍ فى الآخِرِينَ) [5]

---

(1) أى الكلمة الخارجة من الحقيقة إلى المجاز .

(2) أسرار البلاغة : ٣٥٢ ت . شاكر .

(3) ينظر المصدر السابق .

(4) المصدر السابق : ص ٣٠ .

(5) سورة الشعراء : ٨٤ .

أى : ذكرا حسنا . وقولــه (يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ) (١) وإنما أنزل سببه وهو الماء . وقولــــه (وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) (٢) أى كل إصبع (٣) والشواهد كثيرة .

وأما كون المجاز المرسل مما (يَفْخُمَ عليه المعنى، وتَحْدُث فيه النَّبَاهةُ) (٤) ؛ فذلك أن هذا المجاز يفرغ على المعنى حسّاً جديدا ، فيه قــدر مــن الغرابــة ، ومسحة من الخيال ، فنرى السماء لا تمطر ماءً ، وإنما تمطر (رزقا) ، كمـــا فى قوله تعالى (وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقاً) (٥) ، ونرى الظالمين أكلة أمــوال اليتامى لا يأكلون فى بطونهم طعاما ، وإنما يأكلون (نارا) كما فى قوله ســبحانه (إنَّ الذِينَ يَأكُلُونَ أمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إنَّما يَأكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نَاراً) (٦) ، ولو عُدِل عن التجوز فى هذه الشواهد الكريمة ، لعاد المعنى إلى الفقر بعد الغنى ، وسلبت منه الفخامة والنباهة ، وجاءك غفلا ساذجا ، ضاع منــه فى الشــاهد الأول قوة السببية بين المطر والرزق ، وأن المطر ما إن ينــزل من السماء حــتى يتبعه الرزق كظله ، وهذا ما سوّغ أن تختفى صورة (المطر) ، ليصــير النــازل (رزقا) محضا . وضاع من المعنى فى الشاهد الثانى الرهبة والفزع الماثلين فى أكــل (النار) فى البطون ، وأن آكل مال اليتامى ظلما آكل (نار) لا آكل (طعــام) . وقد وصف شيخنا الدكتور محمد أبو موسى ما فى المجاز المرسل من حسٍّ جديــد بالمعنى ، وخيال طريف سانح ، فأحسن الوصف وحرره (٧) .

---

(١) سورة الأعراف : ٢٦ .

(٢) سورة الأنفال : ١٢ .

(٣) ينظر البرهان فى علوم القرآن للإمام الزركشى : ٢ / ٢٥٩ ، ٢٩٩ ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ط . دار التراث .

(٤) دلائل الإعجاز : ٢٩٤ ت . شاكر .

(٥) سورة غافر : ١٣ .

(٦) سورة النساء : ١٠ .

(٧) ينظر التصوير البيانى د . محمد أبو موسى : ٣٥٤ .

ومما يكشف عن فخامة المعنى ونباهته فى هذا المجاز قوله تعالى : (إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) [1] ، عبر بالأعناق ، والمراد : الذوات ، من إطلاق الجزء على الكل ؛ لأن ظهور الخضوع فى الأعناق أبين وأوضح ، وهو دليل على خضوع الذوات كلها وانقيادها لهذه الآية القاهرة النازلة عليهم من السماء ، ولو قيل : " فظلوا لها خاضعين " ، لما أفاد ظهور الخضوع عليهم بتلك الصورة المحسوسة البادية فى (الأعناق) ، وعلى هذا جاء بيت الفرزدق :

وإذا الرجالُ رأوا يزيدَ رأيتَهمْ   خُضُعَ الرِّقابِ ، نواكِسَ الأبْصارِ

والسياق الذى ورد فيه هذا المجاز القرآنى يكشف عن مدى الروعة فى إيثار التعبير بة ، حيث قال تعالى : (طسم . تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ . لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) [2] : فلما كفروا بالكتاب المبين ، الظاهر التبيان ، الواضح البرهان ، ناسب ظهورَ كفرهم مع ظهور آياته ، ظهورُ أثر الخضوع والمذلة عليهم بارزا محسوساً فى خضوع الأعناق حين ينزل الله عليهم من السماء آية ملجئة ، فيكون ظهور خضوعهم ومذلتهم كفاء ظهور كفرهم بالكتاب المبين ، ولو قيل " فظلوا لها خاضعين " لتوارى خضوعهم واستتر ، ولم يكن كفأ لظهور كفرهم وتبجحهم .

وأما كون " الاتساع فى اللغة " من فضائل المجاز المرسل ، فهذا ظاهر من تسميتهم الشئ باسم ما يقاربه ، أو يصاحبه ، أو يشتد اختصاصه بـه ، إذا

---

(1) سورة الشعراء : ٤ .

(2) سورة الشعراء : ١ - ٤ .

انكشف المعنى وأمن الإبهام ، كما فى تسميتهم البعير " ظعينة " و " راوية " ، و المطر " سماء " إلى آخر ما كان من هذا الباب [1] ، وفى هذا التوسع إثراء للغة ، ولابد له بالإضافة إلى هذا من سر آخر ؛ (لأنه قد استقر فى نفوسنا أن العرب كانت لهم حكمة دقيقة فى لغتهم ، وأنهم لم يلجأوا فى التعبير إلى طريقة غير الطريقة المألوفة إلا وهم يريدون من وراء ذلك الإشارة إلى شئ لا تنهض به تلك الطريقة ...... وإذا جاز لنا أن نترخص فى كلام العرب فى هذا الشأن ، وأن نحمل بعضه على التوسع أو التفنن فى التعبير ، اعتبارا بأحوال الفتور ، فإنه لا يجوز لنا أن نحمل كلمة واحدة فى المصحف على هذا الأساس ؛ لأن كل كلمة فيه وقعت موقعا تقتضيها حكمة البيان ، وطوت وراءها من جليل المعنى وشريفه ما لا يمكن أن تفصح عنه كلمة أخرى) [2] .

وفى المجاز المرسل فضائل أخر ، كالإيجاز الذى هو من أكبر مقاصد البلاغة ، فنزول الرزق من السماء ، يطوى وراءه سلسلة من الحلقات المتصلة يطول الكلام بذكرها ، ولذا كان المجاز المرسل من وسائل الإيجاز فى اللغة ......

* * *

---

(1) ينظر البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د . محمد أبو موسى : ص ٢٠٣ نشر مكتبة وهبة ط . ثانية ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

(2) التصوير البيانى د . محمد أبو موسى : ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ بتصرف .

مدخل إلى الكناية

الكناية أصل من أصول علم البيان ، ومسلك من أدق مسالكه وألطفها وأخفاها .

الكناية لغة الخواص

هى اللسان الذى يخاطب الخواص ، الموثوق بفطانتهم ، المعوَّل على ذكائهم ، وقوة لمحهم ، ودقة فهمهم ، وغوصهم عن مراد البليغ وشوط قريحته (من كلام تَأْذَنُ له الآذان ، ولا يحجبه القلب ، وما ذلك إلا من البيان فى النفوس ، وخصائص البلاغة ، ونتائج البراعة ، ولطائف الصناعة) [1] .

حقيقة الكناية

قال الإمام عبد القاهر فى بيان حقيقتها : (والمراد بالكناية هاهنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه ورِدْفُه فى الوجود ، فيومئ به إليه ، ويجعله دليلا عليه ، مثال ذلك قولهم : " هو طويلُ النِّجاد " ، يريدون طويل القامة = " وكثيرُ رمادِ القِدْر " ، يعنون كثيرى القِرى = وفى المرأة : " نَؤُومُ الضُّحَى " ، والمراد أنها مترفة مخدومة ، لها من يكفيها أمرها ، فقد أرادوا فى هذا كله ، كما ترى ، معنىً ، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يَرْدَفَه فى الوجود ، وأن يكون إذا كان . أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النِّجاد ؟ وإذا كثر القِرى كثر رماد القِدْر ؟ وإذا كانت المرأة مترفةً لها من يكفيها أمرها ، رَدِفَ ذلك أن تنام إلى الضحى ؟) [2] .

([1]) الكناية والتعريض لأبى منصور الثعالبى (ت ٤٢٩ هـ) : ص ١ قدم له / على الخاقانى ، نشر مكتبة دار البيان / بغداد ، ودار صعب / بيروت .

([2]) دلائل الإعجاز : ٦٦ ت . شاكر .

الكناية تقوم على الخداع والمراوغة

وفى الكناية - كما هو بادٍ من حقيقتها - عنصر قوى التأثير فى النفس ، هو عنصر الخداع والمراوغة ، فلا تحوز الغايةَ منها إلا بعد شوط أو أشواط من كدح العقل ، وشحذ الهمة ، وإيقاظ البصيرة ؛ لأن الغاية المقصودة تتوارى خلف المعنى الظاهر وتلوذ به وتحتمى ؛ ضَنّاً منها أن تنالها أفهام قاصرة وعقول غافلة ، وتفكير سطحى ساذج ، فهذه وأمثالها من شأنها أن تسقط عند الأعتاب ؛ لأن غاية همها ومبلغ علمها الوقوف عند ظاهر المعنى لا تتجاوزه .

والكناية تراوغ عن مغزاها ، فتلقى دونه شَرَكاً يصطاد المغرورين بظواهر المعانى ، الواقفين عند حدودها ، فإذا ما صبر الذكىُّ الأريب ، ولم ينخدع بالظاهر ، ولم يقع فى شَرَكه ، بل مزقه ونفذ حتى وقف على المغزى ، فانقاد له وألقى عصاه .

الكناية مبنية على الستر

ولذا كان لهذا الفن من تسميته (الكناية) أوفى نصيب ؛ لأن (اشتقاقها من السَّتْر ، يقال : كَنَيتُ الشئَ ، إذا سترتَه ؛ وإنما أُجْرِىَ هذا الاسمُ على هذا النوع من الكلام ؛ لأنه يستر معنىً ويُظهِرُ غيره ، فلا جرم سميت " كناية " فالعرف متناول للعبارة كما ترى) [1] .

الكناية تدريب على الاستدلال والاستنباط والوصول من المعلوم إلى المجهول

وقد خصَّ الإمام عبد القاهر حركة العقل وكدحه فى باب الكناية ، فبيَّن أنه " استنباط " و " استدلال " عقلى ؛ لأن الكناية ينتقل فيها من "الدليل" وهو المعنى الظاهر للفظ ، إلى " المدلول عليه " ، وهو المعنى الثانى المراد أو المكنَّى عنه ؛ ولذا صرَّح الإمام بأن الكناية شئ يدل على شئ ، فهى دلالة واستدلال ، قال فى التعريف الماضى (أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردْفُه فى

(١) الطراز للعلوى : ص ١٧٣ وقاله ابن الأثير قبله بشئ من البسط : (ينظر المثل السائر : ٢ / ١٨٣) .

الوجود ، فيومئ به إليه ، ويجعله دليلا عليه) [1] ، وقال فى موضع آخر : (يدل اللفظ على معناه الذى يوجبه ظاهره ، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك) [2] ؛ فالكناية باب من الأبواب التى تدرب على الاستدلال والاستنباط ، وتنمى عمل العقول فى ذلك ، حتى تعتاد الوصول من المعلوم المذكور إلى المجهول المستور ؛ فإنها إذا ألفت ذلك أدمنته حتى تفتح لها أبواب النظر فى مجاهيل المعرفة ، وأحرى بها أن تصل ؛ لأن الحقائق المجهولة تستتر دائما خلف الحقائق المعلومة ، كما يستتر المعنى المكنى عنه وراء المعنى الظاهر . فالحقائق المجهولة موجودة ، بل وقريبة جداً ؛ لأنها (تالية ورديفة) للمعلوم ، وقد أحسن الإمام عبد القاهر حين عبر عن هذا المكنى عنه بأنه (تالٍ وردف فى الوجود) للمعنى المذكور المعلوم ؛ إذ (الرِّدْفُ : ما تَبِعَ الشئَ .. ورَدِفَ الرجلَ وأَرْدَفَهُ : ركب خلفه على الدابة) [3] ؛ فالشُّقَّةُ إلى كشف المجهول إذاً قريبة غير بعيدة ، ولكن تحتاج إلى من يزحزح المعلوم ويلتف حوله ويراوغه حتى يصل إلى المجهول الرابض خلفه .

ولاشك فى أن الاستدلال والاستنباط هما العماد فى بناء الحضارات ، ومظهر الرقى فى الفكر والثقافة ، والباب العالى للإبداع .

غموض الكناية يحفز العقول المتوثبة إلى المعرفة

وقد نبه العلوىّ إلى ما يتسم به هذا الفن من الدقة والغموض ، فقال : (اعلم أن الكناية واد من أودية البلاغة ، وركن من أركان المجاز ، وتختص بدقة وغموض) [4] ، واختصاصها بذلك يحفز العقول المتوثبة إلى معرفة هذه (الدقة)

(1) دلائل الإعجاز : ٦٦ ت . شاكر .

(2) المصدر السابق : ٢٦٢ .

(3) لسان العرب : (ردف) بتصرف .

(4) الطراز : ١٧٢ .

وتغلغل الفكر فى الوصول إليها والوقوف عليها . ولا تزال النفوس مولعة بكل ما هو غامض مستعصٍ ونافر شرود .

ولأجل ما تلتف به الكناية من الدقة والغموض (حصل الزلل لكثير من الفرق ، لسبب التأويلات ، كما عرض للباطنية فيما أتوا به من قبح التأويل وشنيعة ، ولطوائف من أهل البدع والضلالات . وما ذاك إلا من جهلهم بمجاريها ، وما يجوز استعماله منها وما لا يجوز ، فلا جرم كانت مختصة بمزيد الاعتناء ، لما يحصل فيها من الفوائد الكثيرة ، والنكت الغزيرة) [1] .

لطف الكناية فى سلوكها طريق (معنى المعنى)

ونبه الإمام عبد القاهر إلى أن الكناية إنما حسن مأخذُها ، ودق مسلكها ، ولطفت إشارتها ؛ لأن الدلالة فيها تكون من طريق (معنى المعنى) ؛ أى أننا فى الكناية أمام معنيين : الأول هو المعنى الظاهر الذى يسميه علماء الشعر والنقاد : (المِعْرَضَ والوَشْيَ والحَلْيَ) وأشباه ذلك ، والثانى هو المعنى المراد ، الذى استتر بالمعنى الأول واتخذه دليلا عليه ، ومعراجا إليه ، قال الإمام : (إن المِعْرَض وما فى معناه ، ليس هو اللفظ المنطوق به ، ولكن معنى اللفظ الذى دللت به على المعنى الثانى ، كمعنى قوله :

وما يَكُ فىَّ من عَيبٍ فإنّى ... جَبَانُ الكَلْبِ مَهْزُولُ الفَصِيلِ

الذى هو دليل على أنه مضياف ، فالمعانى الأول المفهومة من أنفس الألفاظ هى المَعَارِضُ والوَشْيُ والحَلْيُ وأشباه ذلك ، والمعانى الثوانى التى يُومَأ إليها بتلك المعانى ، هى التى تُكْسَى تلك المعارض ، وتُزَيَّنُ بذلك الوَشْيِ والحَلْى) [2] .

* * *

---

(1) المصدر السابق .

(2) دلائل الإعجاز : ٢٦٣ ، ٢٦٤ ت . شاكر بتصرف .

وكان ذكر الإمام عبد القاهر فضائل الكناية ومحاسنها عندما قسَّمها قسمين ، الأول : (كناية فى نفس الصفة) ، وهى التى أطلق عليها بعده (كناية عن صفة) ، والثانى : (كناية فى إثبات الصفة) ، وهى التى أطلق عليها بعده (كناية عن نسبة) [1] ، قال : (هذا فن من القول دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، وهو أنا نراهم كما يصنعون فى نفس الصفة بأن يذهبوا بها مذهبَ الكناية والتعريض ، كذلك يذهبون فى إثبات الصفة هذا المذهب . وإذا فعلوا ذلك ، بَدَتْ هناك محاسنُ تملأُ الطَّرْفَ ، ودقائقُ تُعْجِزُ الوصفَ ، ورأيت هنالك شعرا شاعرا ، وسحرا ساحرا ، وبلاغةً لا يكْمُلُ لها إلا الشاعرُ المُفْلِقُ ، والخطيبُ المِصْقَعُ . وكما أن الصفة إذا لم تأتك مصرحا بذكرها ، مكشوفا عن وجهها ، مدلولا عليها بغيرها ، كان ذلك أفخمَ لشأنها ، وألطفَ لمكانها ، كذلك إثبات الصفة للشئ تثبتها له ، إذا لم تُلْقِه إلى السامع صريحا ، وجئت إليه

---

(1) لم أقف فى كتابى الإمام على ذكر للقسم الثالث ، وهو ما سمى بعده (الكناية عن موصوف) ، مع أنه استشهد فى (دلائل الإعجاز) بقول الله تعالى : (وَحَمَلْنَاه عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) [القمر ١٣] ، وهو كناية عن موصوف ، هو (السفينة) ، إلا أنه استشهد به على قلة وقوع اللفظة الغريبة فى القرآن الكريم [ينظر دلائل الإعجاز : ٣٩٧ ت . شاكر] .

وجرى الرازى (ت ٦٠٦ هـ) على تقسيم الإمام دون زيادة [ينظر نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز : ١٩٠] ، مع أن الزمخشرى (٤٦٧ – ٥٣٨ هـ) ذكر القسم الثالث (الكناية عن موصوف) وإن لم يسمه بهذا الاسم ، فقال فى قوله تعالى (ولَاَيأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وأَرْجُلِهِنَّ) [الممتحنة : ١٢] : (كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها : هو ولدى منك ، كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذى تلصقه بزوجها كذبا ، لأن بطنها الذى تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذى تلده به بين الرجلين) [الكشاف ٤ / ٩٤ ، ٩٥] وفى قوله تعالى (وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ) [القمر ١٣] قال : (أراد السفينة ، وهو من الصفات التى تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها ، وتؤدى مؤداها ، بحيث لا يفصل بينها وبينها ...... وهذا من فصيح الكلام وبديعه) [الكشاف : ٤ / ٣٨ بتصرف ، وينظر البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى : ص ٥٥٠] .

من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة ، كان له من الفضل والمزيَّـــة ، ومن الحسن والرونق ما لا يقلُّ قليلُه ، ولا يُجْهَلُ موضعُ الفضيلةِ فيه) [١] .

وأقف فى هذا المدخل الذى ذكره الإمام عند أربعة أمور :

الأول : (تحرير القول فى دقة المسلك ولطف المأخذ فى الكناية) :

فدقة المسلك فيها تعنى أن السالك إلى المعنى المراد يسلك طريقاً دقيقـــاً جدا وضيقا جدا ، فما الذى جعله دقيقاً ضيقا ؟ لاشك أن الذى ضيق الطريـــق إليه مزاحمة المعنى الظاهر الذى يملأ الطريق حتى يكاد يسده ... ومزاحمة المعـــنى الظاهر للمعنى الثانى (المراد) مما يستوقف الذهن ؛ لأن الثانى نَصَبَ الأول دليـــلا عليه ، والشأن فى الدليل أن يقود إلى المدلول عليـــه ، ويجتـــهد فى الدلالـــة ، ويخلص ، ويَصْدُق ؛ لأن (الرائد لا يكذب قومه) ...

والمعنى الظاهر معذور ؛ لأنه دلَّ ، واجتهد ، وأخلـــص ، وصَـــدَق ، ولكن النظر القاصر ، والفكر المضعوف ، هو الذى وقف بأصحابه عند حـــدود المعنى الظاهر ، فاكتفوا به ، واستغنوا ، فلم يصلوا ؛ لأنهم اكتفوا بالدليل عـــن المدلول عليه ، وشغلوا أنفسهم بزينة المِعْرَض عن جوهر المعروض ، وأعجبـــهم وهم فى الطريق إلى الغاية روعة الطريق ، فانشغلوا بجماله عن الغاية التى راموا ، فضلُّوا !!

والوصف بـــ (لطف المأخذ) يناسب الوصف الســـابق ؛ لأن هـــذه المزاحمة التى تبدو للناظر ، فتضيِّق الطريق ، تحتاج منا لكى ننفذ إلى المعنى المـــراد إلى نوع من (التخفِّى) ، حتى تفلت أنوار العقل من المعنى الظاهر فتبصر المعـــنى الثانى ، وتتسل إليه ، وقد أحسن الإمام اختيار هذا الوصف ؛ لأن (اللطيـــف)

---

(١) دلائل الإعجاز : ٣٠٦ ت . شاكر .

دقيق جداً ، مع أنه موجود محقق ، قال الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢ هـ) : (ويعبر باللطافة واللطف عن الحركة الخفيفة ، وعن تعاطي الأمور الدقيقة ، وقد يعبر باللطائف عما لا الحاسة تدركه) [1] .

والثاني : (وصف أثر الكناية في المتلقي) :

حدد الإمام هذا الأثر في قوله (بدت هناك محاسن تملأ الطرف ، ودقائق تعجز الوصف ، ورأيت هنالك شعرا شاعرا ، وسحرا ساحرا ، وبلاغة لا يَكْمُلُ لها إلا الشاعر المُفْلِقُ ، والخطيب المِصْقَع) ، وكون الكناية (تبدى محاسن تملأ الطرف) فيه أنها تبرز المعنى بروزاً محسوسا يملأ العين بمحاسنه ، فكأننا نشاهد محاسن المعنى إذا جاء في أسلوب الكناية ونراها رأى العين ، فإذا رأيناها كفانا ذلك الحسن وأغنانا ؛ لأنه (يملأ) عيوننا ، أي لا نتطلع بعده إلى مزيد بيان ، لأنه لم يترك موضعا للمزيد .

هذا إذا نظر الطرف إلى محاسن الكناية جملةً ، فإذا غاص في البحث عن الدقائق واللطائف الكامنة في الصنعة ، ورأى من عجبها ما رأى ، لم يجد وصفا يفي بحق ما رأى ؛ ولذا قال الإمام (ودقائق تعجز الوصف) ؛ وهذا جمع للكناية الحسن في جملتها وتفاصيلها ... ومن وقف على حسنها في الحالين عرف عجائب قدرها في فن البيان ، وأن الشعر معها لم يبق شعراً ، صامتا لا ينطق بل صار (شعر شاعرا) لفرط ما استودع من لطائف البيان ، وودائع الجنان ، ودقة الصنعة ، بحيث تصير اللغة معها (سحرا ساحرا) .

---

[1] المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني : (لطف) ص ٤٥٤ ط . دار المعرفة ط . أولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .

وهنا يجب أن نتساءل : هل الكناية تغير حقائق الأشياء على غرار ما تصنع الاستعارة حين تنطق الجماد وتبعث الحياة والحسَّ فيما لا حياة فيه ولا حسَّ ، فيكون تجسيد السماحة والمروءة والندى فى القبة المضروبة على ابن الحشرج نظير تشخيص (الشَّمال) المتصرفة فى حركة الريح فى قول لبيد :

وغَداةَ ريحٍ قد كَشَفْتُ وقِرَّةٍ إذ أصبَحتْ بيدِ الشَّمالِ زِمَامُها ؟

وقد أجاب ابن الأثير والعلوى عن ذلك فى تقسيمهما الكناية إلى مفردة ومركبة ، فذكرا أن من (الكنايات ما يتضح التمثيل فيه ، وتكون الشبهية بين الكناية والمكنى عنه شديدة المناسبة ، ومنها ما يكون دون ذلك فى الشبهية .. وأن الكناية المركبة واضحة الشبهية عن المفردة ... ألا ترى إلى قولهم " فلان نقى الثوب " ، وقولهم " اللمس " كناية عن الجماع ؛ فإن نقاء الثوب أشد مناسبة وأوضح شبها ؛ لأنا إذا قلنا نقاء الثوب من الدنس كنزاهة العرض من العيوب ، اتضحت المشابهة ، ووجدت المناسبة بين الكناية والمكنى عنه شديدة الملاءمة ، وإذا قلت اللمس كالجماع ، لم يكن بتلك الدرجة فى قوة المشابهة)[1] .

والثالث : (وصف أثر الكناية فى المعنى) :

ذكر الإمام أن الصفة إذا جاءتك على طريق الكناية (كان ذلك أفخم لشأنها ، وألطف لمكانها) ، من أن تأتيك (مصرحا بذكرها ، مكشوفا عن وجهها) . وقول الإمام (مكشوفا عن وجهها) يعنى أن الصفة تأتيك سافرة متبرجة غير محتجبة بحجاب ، فتغدو كالكلأ المباح ، ولعل الزمخشرى نظر إلى هذه الكلمة حين وصف الكلام الخالى من المجاز بأنه كلام (عُرْيان)[2] ، أى لا يستتر بستار .

---

(1) المثل السائر ٢ / ١٨٨ بتصرف وينظر الطراز : ص ٢٠١ .
(2) الكشاف : ٣ / ٥٥٢ .

وقد وصف الإمام المعنى فى الكناية عن صفة بـ (فخامة الشأن) ووصفه بذلك أيضاً فى الكناية عن نسبة فقال إنه (خرج إلى الجزالة والفخامة) ، ولو جاء بدونها (لما كان إلا كلاما غُفْلاً ، وحديثا ساذجاً) [1] .. ووجه الفخامة فى الكناية أن المعنى المكنى عنه لم يواجهك صراحة ، وإنما أرسل رسولين يُعْلِمان بقَدْرِه وجلاله وسموه ، رسولاً من اللفظ ، ورسولاً من المعنى الظاهر له ، واتخذ المعنى المكنى عنه هذين الرسولين حاشية وبطانة تزفه إليك ، وتمهّد له بما يليق بحقه .

والرابع : أن الإمام عبد القاهر رصد فى هذا المدخل فضائل الكناية ، على سبيل الإجمال ، ثم فصلها بقوله بعده : (وتفسير هذه الجملة وشرحها : أنهم يرومون وصف الرجل ومدحه ......) [2] ، فجاء حديثه كله ابتداء من هذه الفقرة فى صفحة ٣٠٦ إلى آخر حديثه عن الكناية فى صفحة ٣١٤ [ت . شاكر] ، تفسيرا وشرحاً لما أجمله فى هذا المدخل من فضائل الكناية ، وقد شاع هذا المنهج فى حديث الإمام عن الاستعارة والمجاز ، كما سار عليه أيضاً فى الحذف والتقديم والتأخير ، وغيرهما .

* * *

وجهة مهمة فى درس الكناية :

وللإمام عبد القاهر وجهة مهمة فى درس الكناية ؛ حيث إنه أقام تأصيله لها على " منهج الموازنة " بين الشواهد المتحدة فى تناول المعنى ، وهو مسلك ثرى فى الكشف عن جوهر المعنى وخصائصه ، وما فيه من دق الصنعة ، ولطف التناول ، وقد أورد فيه الإمام سبع موازنات شعرية ، تدور فى قسمين :

---

(1) دلائل الإعجاز : ٣٠٧ ت . شاكر .

(2) دلائل الإعجاز : ٣٠٦ ت . شاكر .

القسم الأول : (ما يتناسب من الكناية) :

قال الإمام : (وكما أن من شأن الكناية الواقعة فى نفس الصفحة أن تجئ على صور مختلفة ، كذلك من شأنها إذا وقعت فى طريق إثبات الصفة أن تجئ على هذا الحدّ ، ثم يكون فى ذلك ما يتناسب ، كما كان ذلك فى الكناية عن الصفة نفسها .

(تفسير هذا : أنك تنظر إلى قول يزيدَ بن الحَكَم يمدح به يَزيدَ بن المُهَلَّب ، وهو فى حَبْس الحَجَّاج :

أصبحَ فى قَيْدِكَ السَّمَاحةُ والمَجْـ

ـدُ وفضلُ الصلاحِ والحَسَبُ

فتراه نظيراً لبيت " زياد " ، وتعلم أن مكان " القيد " هاهنا هو مكان " القبة " هناك) [1] .

ومن هذا يظهر أن مقصد الإمام بـ (ما يتناسب) هو اتحاد الكنايتين أو الكنايات = بحيث تكون من نوع واحد ، كأن تكون كناية عن صفة أو كناية فى الإثبات = فى الدلالة على معنى واحد ، كما فى اتحاد بيت زياد الأعجم :

إنَّ السَّماحةَ والمُروءةَ والنَّدى

فى قُبَّةٍ ضُرِبَتْ على ابنِ الحَشْرَجِ

وبيت يزيد بن الحكم : (أصبح فى قيدك السماحة ...) ، فالبيتان كناية عن إثبات تلك المعانى للممدوح ، وهذا يفتح بابا للنظر والتذوق ، فالأول جعل الصفات المذكورة (فى قبة) الممدوح ، والثانى جعلها (فى قيده) ، وكلاهما راعى

---

(١) المصدر السابق : ٣٠٨ .

مقامه ، فالأول راعى ما خصه به الممدوح من كرم وعطاء فجعل معانى مديحه (فى القبة) المضروبة على الممدوح ، فكأنما جمع له جنس السماحة والمروءة والندى ، وأودعها هذه القبة ، فلا توجد خارجها ... (واختار لفظ القبة دون الخيمة مع كونها بمعناها ، للإشارة إلى أنه من الأكابر ؛ لأن القبة خيمة خاصة ، لا يتخذها إلا ذو مكانة من الرؤساء والعظماء . واختار " ضُرِبتْ " على " نُصِبتْ " ؛ لأن الضرب فى الخيمة ونحوها أشهر . وقيد الفعل بـ (على) للدلالة على تحقق اجتماع هذه الخصال فيه ؛ لأنه لو قال : ضربت له ، لم يلزم كونه فيها ، فلا يتحقق الجزم بكونها فيه)[1] ... والثانى راعى أن ممدوحه فى (حبس الحجَّاج) فآثر أن تكون معانى مديحه (فى قيد) الممدوح ، و (القيد) من ملائمات (الحبس) ، كما جعل جنس السماحة والمجد وفضل الصلاح والحسب كأنها مقيدة معه فى قيده ، فلا وجود لها إلا فيه ، فهو قيد من جنس غريب لم يعهده الناس ؛ لأنهم لم يعهدوا مقيَّداً حبيساً مثل الممدوح . وقد فتح الإمام باب النظر فى مثل هذه اللطائف ، التى هى جوهر العمل البلاغى ، بكلمته الموجزة : (تعلم أن كان " القيد " هاهنا هو مكان " القبة " هناك " .

والقسم الثانى : (ما لا يتناسب من الكناية) :

وهذا القسم عكس القسم الأول ، وقال عنه الإمام : (واعلم أنه ليس كل ما جاء كناية فى إثبات الصفة يصلح أن يحكم عليه بالتناسب .

---

(1) شواهد المطول المسمَّى بعقود الدرر فى حل أبيات المطول والمختصر لحسين بن شهاب العاملى : ٥١ أ " شواهد الحقيقة والمجاز " مخطوط بالمكتبة الأزهرية برقم ٢٥٤٦ ، ١١٥٤ ، نقلاً عن الشواهد الشعرية فى كتاب دلائل الإعجاز د / نجاح أحمد الظهار ٢ / ٧٤٦ ط . بالمملكة العربية السعودية ط . أولى ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

(معنى هذا أن جعلهم الجود والكرم والمجد يمرض بمرض الممدوح كما قال البحترى :

ظَلِلْنَا نَعُودُ الجُودَ مِنْ وَعْكِكَ الذى وَجَدْتَ ، وقُلْنا اعتَلَّ عُضوٌ مِنَ المَجْدِ

وإن كان يكون القصد منه إثبات الجود والمجد للممدوح ؛ فإنه لا يصح أن يقال إنه نظيرٌ لبيت " زياد " كما قلنا ذاك فى بيت أبى نواس :

ولكن يَصِيرُ الجُودُ حيث يَصِيرُ

وغيرِه مما ذكرنا أنه نظير له . كما أنه لا يجوز أن يجعل قوله :

وكَلْبُكَ أرْأَفُ بالزَّائِرِينَ

مثلاً ، نظيراً لقوله :

مَهْزُولُ الفَصِيلِ .

وإن كان الغرضُ منهما جميعا الوصفَ بالقِرى والضيافة ، وكانا جميعا كنايتين عن معنى واحد ؛ لأن تعاقب الكنايات على المعنى الواحد لا يوجب تناسبها ؛ لأنه فى عَرُوضٍ أن تتفق الأشعار الكثيرة فى كونها مدحا بالشجاعة مثلا أو بالجود أو ما أشبه ذلك) [1] .

أصل من أصول الموازنة بين المعانى

وفى هذه الفقرة أصل من أصول الموازنة ، حاصله أنها لا تصلح إذا كان الاتفاق بين المثالين فى المعنى العام على الإجمال ، فلا يوازن بين بيتين اتحدا فى مطلق المدح بالقرى والضيافة ؛ حتى يشتركا فى الطريق الموصل إلى هذا المعنى ، وإلا لصح أن يوازن بين بيتين لمجرد اشتراكهما فى مطلق المدح بالجود .

فالموازنة تصح وتحسن فى مثل بيت زياد الأعجم وبيت يزيد بن الحكم ؛ لأنهما من واد واحد ، اتفقا فى المعنى والطريق الموصل إليه .

---

[1] دلائل الإعجاز : ٣١١ ، ٣١٢ ت . شاكر .

ولا تصح بين قول الشاعر :

وكَلْبُكَ أرْأفُ بالزائرينَ   من الأمِّ بالإبنةِ الزّائِرْ

وبين : (مهزول الفصيل) من قول الآخر :

وما يَكُ فيَّ من عَيبٍ فإني   جَبانُ الكَلْبِ مَهْزُولُ الفَصِيلِ

لأنهما وإن اشتركا فى المدح بالقرى وكرم الضيافة ، إلا أن لكل منهما طريقا مختلفا .. وإنما يوازن قوله (مهزول الفصيل) مع قول الآخر (لا أُمْتِعُ العُوذَ بالفِصَالِ) ، ويوازن قوله (جبان الكلب) مع قول الآخر (وكلبك أرأف بالزائرين) ؛ لأن الرحم بين المعنيين فى كل موازنة قريبة ،والطريق إليهما واحد .

ومنهج الموازنات الذى أقام عليه الإمام دراسة (ما يتناسب من الكناية وما لا يتناسب) منهج خصب جدا ، ورافد كبير لتربية الذوق البلاغى ، والحسّ المرهف . ولا تزال موازنات الإمام فى هذا الباب فى حاجة إلى دراسة توليها فضل تأمل ونظر ، وتنثر كثيرا من أسرارها ؛ لأن الإمام لم يسلك فيها مسلك التفصيل ، بل ساقها خالية إلا من بعض تعليقات خفيفة بكلمات قليلة تفتح الباب .

وقد أغرانا الإمام فى الفقرة الأخيرة من هذا الباب بأن نفتح هذا اللون من الموازنات لنثرى به الدرس البلاغى ؛ لأنه (ليس لشُعَب هذا الأصل وفروعه وأمثلته وصوره وطرقه ومسالكه حَدٌّ ونهاية) [1] ، أى أن هذا الباب إذا فتح وُجِد أنه واسع لا إلى نهاية .. وهذا هو الشأن فى (الموازنات) والنظر فى أمر المعانى والفروق بينها وطرق الصناعة فيها ، وهو باب لم نوله حقه من العناية فى درس الكناية ، ولا فى غيره من دروس البلاغة .

---

(1) دلائل الإعجاز : ٣١٣ ت . شاكر .

صور الكناية :

أثبت الإمام أن للكناية صورا مختلفة ، فقال (وكما أن من شأن الكناية الواقعة فى نفس الصفة أن تجئ على صور مختلفة ، كذلك من شأنها إذا وقعت فى طريق إثبات الصفة أن تجئ على هذا الحد) [1] ، ولكن : ماذا يقصد بالصور المختلفة فى كلتا الكنايتين ؟ أيقصد تفاوت درجات كل منهما من حيث إن فيها اللطيف والألطف ، على نحو ما ذكر السكاكى فى قوله عن الكناية فى الإثبات : (وهى أيضا تتفاوت فى اللطف ، فتارة تكون لطيفة ، وأخرى ألطف) [2] ، وجعل من اللطيف بيت زياد الأعجم (إن السماحة والمروءة والندى ...) ؟ وهل يحتمل أن يكون قصد الإمام بالصور تفاوت كل كناية من حيث القرب والبعد بحسب قله الوسائط وكثرتها على نحو ما قسم السكاكى كل كناية إلى قريبة وبعيدة ؟ أم أنه يقصد بالصور المختلفة غزارة المعانى التى تأتى عليها كلتا الكنايتين تبعا لأغراض المتكلمين ، وعلوّ طبقتهم فى البيان ؟

الأقوب هو الفرض الأخير ؛ لأن الإمام كان فى مثل ذلك معنياً بأمر المعانى ؛ ولأن الصور المختلفة – على هذا الفرض – تكون من الكثرة والاختلاف بحيث تصعب الإحاطة بها ، لأنها تتفاوت بتفاوت المعنى والغرض وطريقة الصنعة وبلاغة المتكلم ، وهذا يفتح بابا واسعا من الثراء والإمتاع بعجائب هذه اللغة الشريفة .

ومما يقطع بصحة هذا الفرض أن الإمام أورد فى ثنايا الموازنات صوراً للكناية الواقعة فى إثبات الصفة فقال : (ومما هو إثبات للصفة عن طريق الكناية

---

(1) المصدر السابق : ٣٠٨ .

(2) مفتاح العلوم : ٤٠٧ .

والتعريض ، قولهم : " المجدبين ثوبيه ، والكرم فى برديـــه ") [1] ، وأورد مـــن صورها أيضاً قول زهير :

هَنَّاكَ رَبُّكَ ما أعْطَاكَ من حَسَنٍ

وحَيْثُمَا يَكُ أمْرٌ صَالحٌ فَكُنِ

وقول الكميت :

يَصِيرُ أبـــــانٌ قَرِينَ السَّمَا

حِ والمَكْرُمَاتِ مَعاً حَيْثُ صَارَا

وأورد شواهد أخرى ، أو لنقل – على ســبيل القطــع – " صــوراً أخرى " من الكناية فى الإثبات .

* * *

---

(1) دلائل الإعجاز : ٣٠٩ ت . شاكر .

مدخل إلى التعريض

التعريض درس موجز فى كتب البلاغة

التعريض آخر فنون علم البيان عند المتأخرين ، لم يذكره السكاكى إلا فى ثلاث فقرات من كتابه : الأولى والثانية تدوران حول ما سماه (الكناية العُرْضِيَّة) ، ومثل لها بقولك (فى عُرْضِ من يؤذى المؤمنين : المؤمن هو الذى يصلى ويزكى ولا يؤذى أخاه المسلم ، ويتوصل بذلك إلى نفى الإيمان عن المؤذى ، وكقوله علت كلمته فى عُرْضِ المنافقين : " هُدىً لِلْمُتَّقِينَ . الذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ " [1] إذا فسر الغيب بالغيبة ، بمعنى : يؤمنون مع الغيبة عن حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ، أو عن جماعة المسلمين ، على معنى : هدى للذين يؤمنون عن إخلاص ، لا للذين يؤمنون عن نفاق) [2] ، وفى الفقرة الثالثة ذكر أن التعريض تارة يكون على سبيل الكناية وأخرى على سبيل المجاز [3] .

ولو جمع ما ذكره السكاكى عن التعريض يكاد يكون (صفحة) واحدة فى كتابه ، ثم جاء الخطيب ، فلم يخرج عن هذه الصفحة [4] ، التى بسطها شراح التخليص فى إحدى عشرة صفحة [5] .

ولم يفرد الإمام عبد القاهر للتعريض حديثا مستقلا ، بل ساقه مع الكناية من غير أن يخصه بذكر أو بتعريف مستقل أو بمثال مفرد ، وكان يقرنه

---

(1) سورة البقرة : ٢ ، ٣ .

(2) مفتاح العلوم : ٤١٢ .

(3) ينظر مفتاح العلوم : ٤١٢ وذكر شيخنا الدكتور / إبراهيم الخولى أن أبا يعقوب وقع فى اضطراب وتناقض ؛ لأنه يرى أن المجاز والكناية لا يجتمعان ، ثم نراه هنا يجعل التعريض تارة على سبيل الكناية ، وأخرى على سبيل المجاز ، وهو خلط بيِّن (ينظر التعريض فى القرآن الكريم د. إبراهيم عبد الله الخولى : ١ / ١٤ مطابع جمعية التنمية الفكرية ط . أولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) .

(4) ينظر الإيضاح مع البغية : ٣ / ١٦٨ ، ١٧٠ .

(5) ينظر شروح التلخيص : ٤ / ٢٦٤ - ٢٧٤ .

بالكناية فى مثل قوله (ومما هو إثبات للصفة على طريق الكناية والتعريض قولهم : " المجدبين ثوبيه ، والكرم فى بُرديه " [1] ، وقوله : (فكَنّى وعَرّض) [2] .

التعريض قرين الكناية

والتعريض قرين الكناية فيما وقفت عليه من كتب البلاغيين ، فقلما يفرده أحد ببحث مفرد ، ولذا نراهم – فى الأغلب الأعم – يضعونه بجوار الكناية فى البحث ، فيقولون " الكناية والتعريض " ، ثم نراهم يفيضون فى الحديث عن الكناية وأقسامها ،فإذا ما انتهوا إلى التعريض أوجزوا غاية الإيجاز .

وقد أفرده بالتأليف البلاغى فى عصرنا شيخنا العلامة الدكتور / إبراهيم عبد الله الخولى ، فى كتابه الفائق (التعريض فى القرآن الكريم) الذى فتح به (نافذة أوسع يطل منها قارئ كتاب الله على دلالات وإيحاءات ...... لم يكن ليتنبه لها من قبل ! واثرى مناهج التفسير بهذه الإطلالة ، التى استشرفت أفقا عاليا من آفاق الدلالة القرآنية) [3] .

* * *

حقيقة التعريض

ولما كان فنا (الكناية والتعريض) قرينين ، حتى ليتوهم أنهما مترادفان ، كان ذلك مدخل كثير من البلاغيين إلى تعريف التعريض وبيان الفرق بينه وبين الكناية على نحو ما صنع ابن الأثير والعلوى [4] . قال ابن الأثير : (وأما التعريض : فهو اللفظ الدال على الشئ من طريق المفهوم ، لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى ، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلته ومعروفه بغير طلب : " والله إنى لمحتاج ، وليس فى يدى شئ ، وأنا عُرْيان ، والبرد قد آذانى " ؛ فإن هذا

---

(1) دلائل الإعجاز : ص ٣٠٩ ت . شاكر .

(2) المصدر السابق : ٢٦٣ .

(3) التعريض فى القرآن الكريم : ١٧٢ بتصرف .

(4) ينظر المثل السائر ٢ / ١٨٦ والطراز ١٨٧ .

وأشباهه تعويض بالطلب ، وليس هذا اللفظ موضوعاً فى مقابلة الطلب ، لا حقيقة ولا مجازا ، إنما دل عليه من طريق المفهوم ، بخلاف دلالة اللمس على الجماع ، وعليه ورد التعريض فى خطبة النكاح ، كقولك للمرأة : " إنكِ لخَلِيَّةٌ وإنى لعَزَبٌ " ، فإن هذا وأمثاله لا يدل على طلب النكاح حقيقة ولا مجازا) (١) .

الفرق بين الكناية والتعريض

والتعريض ، وإن كان صنو الكناية وقرينها ، إلا أن لكل منهما سبيله الخاص فى التعبير عن المعانى ، فالكناية تتخذ من معنى اللفظ دليلا ومعبرا يتوصل منه إلى المعنى المراد ، عن طريق اللزوم والاستدلال . والتعريض لا يتكئ على اللفظ فدلالته ليست ناشئة منه ، وإنما دلالته ناشئة معه بمعونة السياق والقرائن ، فالمعنى التعريضى ليس مفاداً من العبارة لا من طريق الحقيقة ولا المجاز ولا الكناية ، ويمكن أن نوجز دلالة التعريض على معناه بأنها دلالة استتباعية ، تفهم عن اللفظ لا به (٢) .

* * *

التعريض أخفى من الكناية

وإذا كانت الكناية فيها لطف وخفاء ، وفيها لذلك دعوة وحث على التفكير والتأمل ؛ فإن التعريض نظير الكناية فى ذلك ، بل أشد منها فيه ؛ ولذا قال ابن الأثير : (والتعريض أخفى من الكناية ؛ لأن دلالة الكناية لفظية وضعية من جهة المجاز (٣) ، ودلالة التعريض من جهة المفهوم ، لا بالوضع الحقيقى ولا المجازى) (٤) .

---

(١) المثل السائر ٢ / ١٨٦ .

(٢) ينظر التعريض فى القرآن الكريم : ١ / ٥٢ .

(٣) هذا رأى ابن الأثير ، وكون الكناية من الحقيقة أو المجاز مسألة خلافية ، فيها تفصيل كثير ، يراجع فى الطراز : ١٧٧ وغيره .

(٤) المثل السائر : ٢ / ١٨٦ .

وهذا الخفاء ملازم للتعريض لا ينفك عنه ، وإن تفاوتت درجاته ، (يخف حينا ، فيشف عن المعنى ، حتى يوشك أن يبوح به . ويشتد حينا ، حتى يكاد يحيل الكلام – من حيث معناه التعريضى – إلى لُغز أو أُحْجيَّة ، ويقتضينا فى فهمه ما يقتضيناه فك المُعَمَّى سواء بسواء) [١] .

* * *

الاستدلال هو عمل العقل فى الكناية والتعريض

وعمل العقل فى التعريض كعمله فى الكناية ، فهو فى كليهما "استدلال" و " استنباط " يتوصل العقل من الدليل إلى المدلول عليه ، وقد مر ذلك فى الكناية ، ومضى كلام الإمام عبد القاهر فى كونها استدلالا واستنباطا [٢] ، ونستشهد هنا فى التعريض بقول الزمخشرى : (والتعريض أن تذكر شيئا تدل به [٣] على شئ لم تذكره ، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : "جئت لأسلم عليك ، ولأنظر إلى وجهك الكريم ، ولذا قالوا :

وحَسْبُكَ بالتسليمِ مِنِّى تَقَاضِيَا

وكأنه إمالة الكلام إلى عُرْضٍ يدل على الغرض ،ويسمى التلويح ؛ لأنه يلوح منه ما يريده) [٤] ، فعمل العقل فى الكناية والتعريض جميعا هو (الاستدلال) ، إلا أن الدليل فى الكناية يكون (مذكوراً) ومصرحاً به ، وهو المعنى الظاهر للفظ المكنى به نحو كثرة الرماد الذى يستدل به على الكرم وكثرة

---

(١) التعريض فى القرآن الكريم : ١ / ٥٨ .

(٢) ينظر ص ١١٩ .

(٣) هذا التعريف الذى ذكره الزمخشرى للتعريض لا يصدُق عليه ؛ لأن الدليل على المعنى التعريضى ليس هو اللفظ المذكور ، بل ما يفهم عنه بمعونة السياق والقرائن ، وإنما يصدق تعريف الزمخشرى على الكناية ؛ لأن الدليل فيها على المراد هو معنى اللفظ المذكور .

(٤) الكشاف : ١ / ٣٧٣ .

الضيافة ، أما الدليل فى التعريض فلا يكون مذكورا ، بل يفهم من السياق و (فحوى الكلام) وعُرْضِه ، أى جانبه ؛ ولذا سُمِّى (تعريضا) ؛ قال ابن الأثير : (وإنما سمى التعريض تعريضا لأن المعنى يفهم من عُرْضِه ، أى من جانبه) [1] .

الاستدلال فى التعريض ألطف وأدق وأخفى

ومن أجل ذلك كان طريق (الاستدلال) فى التعريض ألطف وأخفى وأدق ، وفرح المتلقي بالوصول إلى المعنى التعريضي أكبر ؛ لأنه كلما اشتد الخفاء ، ثم ظهر فجر المعنى ، كان ذلك أجلب للفرح والسعادة ؛ ولذلك قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالى : (والتعريض أيضا يميل النفوس الفاضلة ، والأذهان الذكية ، إلى استنباط معانيه ، فيفيد فرحُ التفطن لمعناه رغبةً فى العلم به ، ليعلم أن ذلك لا يعزب عن فطنته) [2] ، وقال الزمخشرى : (ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعانى) [3] .

* * *

---

(1) المثل السائر : ٢ / ١٨٦ .

(2) إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى : ١ / ٥٧ ط الحلبى .

(3) الكشاف : ٢ / ٥٧٧ .

فهرس المراجع

١- إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى ط . الحلبى .

٢- الأدب المقارن د . محمد غنيمى هلال ط . دار العودة ط . ثالثة ١٩٨٧ م .

٣- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ت . محمود شاكر ط . المدنى ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .

- طبعة أخرى بتعليق الشيخ محمد رشيد رضا ، نشر المكتبة التوفيقة .

٤- إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز فى ضوء البيان القرآنى د . محمود توفيق محمد سعد . مطبعة الأمانة ط . أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

٥- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى ط . دار الفكر العربى ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .

٦- أمالى المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ط . عيسى الحلبى ط . أولى ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .

٧- الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى نشره أحمد أمين وأحمد الزين ط . المكتبة العصرية .

٨- الإيضاح للخطيب القزوينى مع البغية للشيخ عبد المتعال الصعيدى ط . مكتبة الآداب ط . خامسة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

٩- البرهان فى علوم القرآن للزركشى ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ط . دار التراث .

١٠- البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د . محمد أبو موسى . نشر مكتبة وهبة ط . ثانية ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

١١- بيان إعجاز القرآن للخطابى ، ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القـــرآن ت . محمد خلف الله و د / محمد زغلـــول ســـلام ط . دار المعـــارف ط . ثانية ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٨ م .

١٢- البيان والتبيين للجاحظ ت . عبد السلام هـــارون . نشـــر الخـــانجى ط . خامسة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

١٣- التصوير البيانى د . حفنى شرف . نشر مكتبـــة الشـباب ط . ثانيـــة ١٩٧٣ م .

١٤- التصوير البيانى د . محمد أبو موسى . نشر مكتبـــة وهبـــة ط . ثانيـــة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

١٥- التعريض فى القرآن الكريم د . إبراهيم الخولى . مطابع جمعية التنميـــة الفكرية ط . أولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

١٦- تفسير الرازى (مفاتيح الغيـــب) نشـــر دار الغـــد العـــربى ط . أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .

١٧- تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) ط . دار الريان .

١٨- تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى ت . د / على مقلـــد ط . مكتبة الحياة ١٩٨٦ م .

١٩- تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ، هذبه عبد القادر بـــدران ط .دار المسيرة ط . ثانية ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

٢٠- حاشية السيد الشريف على المطول (مطبوعة مع المطول) .

٢١- حصاد الهشيم لإبراهيم عبد القادر المازنى ط . الشعب .

٢٢- الخصائص لابن جنى ت . محمد على النجار ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ط . ثالثة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

٢٣- خلاصة اليومية والشذور للعقاد ط . نهضة مصر ١٩٩٥ م .

٢٤- دراسات فى علم البيان والتشبيه القرآنى د . صبّاح دراز ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .

٢٥- دراسة فى البلاغة والشعر د . محمد أبو موسى نشر مكتبة وهبة ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .

٢٦- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ت . محمود شاكر ط . المدنى . نشر الخانجى .

٢٧- ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ت . محمد عبده عزام ط . دار المعارف ط . رابعة .

٢٨- ديوان أحمد شوقى (الشوقيات) ط . دار الكتب العلمية .

٢٩- ديوان البحترى ت . الصيرفى ط . دار المعارف .

٣٠- ديوان ابن زيدون ت . محمد سيد كيلانى ط . مصطفى الحلبى ط . ثالثة ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

٣١- ديوان الحماسة لأبى تمام بشرح المرزوقى . نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون . ط . دار الجيل ط . أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .

٣٢- ديوان صدى الأيام د . محمد رجب البيومى ، مطبعة السعادة ط . ثانية ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

٣٣- ديوان على الجارم ط . دار الشروق ط . ثانية ١٤١٠ هـ/١٩٩٠م .

٣٤- الديوان فى الأدب والنقد للعقاد والمازنى ط . الهيئة المصريــــة العامــة للكتاب ٢٠٠٠ م .

٣٥- ديوان محمود حسن إسماعيل (الأعمال الكاملة) نشر دار سعاد الصبـاح ط . أولى ١٩٩٣ م .

٣٦- ديوان امرئ القيس بشرح السندوبى ط . المكتبة الثقافية ط . ســـابعة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

– طبعة أخرى ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ط . دار المعارف ط .ثانية .

٣٧- ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ، صححه د . كرنكو ط . مكتبــة المقدس ١٣٥٢ هـ .

٣٨- الرسالة للإمام الشافعى ت . أحمد محمد شـاكر . نشـر دار الكتـب العلمية .

٣٩- شروح التلخيص للتفتازانى والمغربى والســبكى والدســوقى ط . دار السرور .

٤٠- الشواهد الشعرية فى كتاب دلائل الإعجاز د . نجاح أحمـــد الظـهار ط . السعودية ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

٤١- صحيح البخارى مع فتح البارى لابن حجر ط . دار الغد العربى ط . أولى .

٤٢- صحيح مسلم بشرح النووى . نشر دار الريـــان للـــتراث ط . أولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

٤٣- الطراز العلوى راجعه محمد شاهين ط . دار الكتب العلميـــة ط . أولى ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م . (طبعة كاملة فى مجلد واحد) .

٤٤- عبد القاهر الجرجاني د . أحمد بـدوى ط . وزارة الإرشـاد القومـى (سلسلة أعلام العرب) .
٤٥- العمدة لابن رشيق ت . محمد محيى الدين عبد الحميد ط . دار الجيـل ط . خامسة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
٤٦- غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لعلى بـن ظـافر الأزدى ت . د / محمد زغلول سلام ، د / مصطفى الصاوى الجويـنى ط . دار المعارف .
٤٧- الفقه على المذاهب الأربعة ط . وزارة الأوقاف ط . ثامنة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
٤٨- الكامل لأبى العباس المبرد ت . د / محمد الدالى ط . مؤسسة الرسـالة ط . ثانية ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .
٤٩- كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ت . على محمد البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم ط . المكتبة العصرية ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
٥٠- الكشاف للزمخشرى ط . مصطفى الحلبى ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .
٥١- الكناية والتعريض لأبى منصور الثعالبى . قدم له / على الخاقانى . نشـر دار البيان بغداد ، ودار صعب / بيروت .
٥٢- كنـز العمال للمتقى الهندى ت . بكرى حيـاتى وصفـوة السـقا / ط . مؤسسة الرسالة ط . خامسة ١٤٠٥ هـ / ١٩٥٧ م .
٥٣- اللزوميات لأبى العلاء المعرى ط . دار صادر .
٥٤- لسان العرب لابن منظور ط . دار المعارف .

٥٥- المثل السائر لابن الأثير ت . محمد محيى الدين عبد الحميد ط . المكتبة العصرية ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .
- طبعة أخرى ت . د / أحمد الحوفى ، د / بدوى طبانة ط . نهضة مصر .
٥٦- مجمع الأمثال للميدانى ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ط . عيسى الحلبى .
٥٧- محمود حسن إسماعيل مدخل إلى عالمه الشعرى د . عبد العزيز الدسوقى ط . دار المعارف ، سلسلة كتابك .
٥٨- مختار الصحاح لرازى ط . مصطفى الحلبى ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م .
٥٩- المختار للشيخ عبد العزيز البشرى ط . دار المعارف ط . رابعة .
٦٠- مدخل إلى كتابى عبد القاهر د . محمد أبو موسى . نشر مكتبة وهبة ط . أولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .
٦١- مستقبل الثقافة العربية د . محمود الطناحى ط . دار الهلال العدد ٥٨١ .
٦٢- المطول للتفتازانى . مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠ هـ نشر المكتبة الأزهرية .
٦٣- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسى ت . محمد محيى الدين عبد الحميد ط . عالم الكتب ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٧ .
٦٤- مفتاح العلوم للسكاكى ، تعليق نعيم زرزور ط . دار المعرفة ط . أولى ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
٦٥- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ط . دار المعرفة ط . أولى ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .
٦٦- مقدمة ابن خلدون . مطبعة شقرون .
٦٧- مناقب الشافعى للبيهقى ، اختصار البنجرى ط . مجلس البنجرى ط . أولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .

٦٨- منهاج البلغاء لحازم القرطاجنى ت . محمد الحبيب ابن الخوجة ط . دار الكتب الشرقية تونس ١٩٦٦ م .

٦٩- النظرات للمنفلوطى ط . مكتبة نهضة مصر .

٧٠- النكت فى إعجاز القرآن للرمانى ، ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ط . دار المعارف .

٧١- نمط صعب ونمط مخيف للأستاذ محمود شاكر ط . المدنى ط . أولى ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

٧٢- نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى ت . أحمد السقا / ط . المكتب الثقافى ط . أولى ١٩٨٩ م .

٧٣- الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى ت . محمد أبو الفضل إبراهيم ط . عيسى الحلبى .

دوريات

- حولية كلية الآداب جامعة الكويت ، الحولية الحادية عشرة ١٤١٠ هـ / ١٩٨٩ م . بعنوان (النظرية الاستبدالية للاستعارة) د . يوسف مسلم أبو العدوس .

- جريدة الأهرام بتاريخ : ٦ جمادى الأولى ١٤٢١ هـ / ٦ أغسطس ٢٠٠٠ م .

- ٢٠٠٠/١١/١٧ م .

- ٢٦ رمضان ١٤٢١ هـ / ٢٢ ديسمبر م .

- مجلة إبداع : العدد السابع ، يوليو ١٩٩٢ م .

- مجلة الأزهر : عدد ربيع الأول ١٤٢١ هـ / يونيه ٢٠٠٠ م .

فهرس الموضوعات

مقدمة .... ١٠٣ ، ١٠٥

علم البيان

١٠٧ - ١٥٢

واسطة العقد فى علوم البلاغة : ١٠٧ / علم البيان باب الخيال ١٠٧ / أسبق فنون البلاغة إلى التدوين ١٠٧ .

الغرض من دراسة علم البيان : ١٠٧ - ١٣١ .

إشارة إلى جهد المتأخرين ١٠٧ / الحلقة المفقودة بين القواعد والملكة ١٠٨ / السبيل إلى الموهبة ١٠٩ / قواعد البلاغة تنمى الموهبة ولاتنشئها ١١٠ / فوق بين الموهبة وما يدل عليها ١١٠ / المنفلوطى والبشرى يجليان هذه الفكرة ١١٠ / صعوبة إدراك الفروق بين طرق المعانى ١١١ / الطرق المختلفة لا تؤدى إلى معنى واحد إلا بتسامح ١١١ / استيفاء النظر فى علم المعانى شرط لصحته فى علم البيان ١١٢ / أصل من أصول الإبداع ١١٢ / قيمة الخيال فيما وراءه من جواهر المعانى ١١٣ / المتأخرون استنبطوا غرض علم البيان من الإمام عبد القاهر ١١٤ / والإمام عبد القاهر استنبط جذور هذا الغرض من كلام الجاحظ ١١٥ / أربعة طرق للبحث عن أمر المعانى فى علم البيان ١١٥ / الطريق الأول : كيف تختلف وتتفق ١١٥ / الإجمال والتفصيل فى التشبيه مما تختلف فيه المعانى وتتفق ١١٦ / لكل منهما موقع لا يسد الآخر مسده : ١١٧ / تطبيق ذلك على بيتى عنترة وامرئ القيس ١١٧ / الطريق الثانى : تفصيل أجناس المعانى وأنواعها ١٢٢ / الطريق الثالث : تتبع خاص المعانى ومشاعها ١٢٧ / الطريق الرابع : معرفة مناصب المعانى من العقل ١٢٨ / وضوح الدلالة

لا يعنى السطحية ١٣٠ / شراح التلخيص نظروا إلى وضوح الدلالة على المعنى بالنسبة للمخاطب ١٣١ .

المعانى أمام صنعة البيان قسمان : ١٣٢ - ١٣٦ .

ربط أقدار المعانى بأقدار الناس والجواهر ١٣٢ / القسم الأول : المعنى الشريف ١٣٣ / القسم الثانى : المعنى غير الشريف ١٣٤ / ماذا يعنى الإمام بالمعنى الشريف والمعنى الخسيس ؟ ١٣٥ / دراسة علم البيان على نحو ما وصف الإمام أمر صعب جداً : ١٣٦ .

صور البيان أقطاب تدور عليها المعانى : ١٣٧ - ١٤٣ .

استهلال الإمام الدرس البلاغى بمسائل البيان واستهلال المتأخرين بمسائل المعانى ١٣٧ / البلاغة فى كتابى الإمام تسبح فى فلك النظم ١٣٧ / منهجان أصيلان فى الفكر ١٣٨ / منهج السكاكى أبر بالنشىء والمتعلمين ومنهج عبد القاهر أبر بالباحثين المؤهلين ١٤٠ / كيف تكون صور البيان أقطابا تدور عليها المعانى ١٤١ / نمط من البحث فى الصور البيانية لم نوفه حقه ١٤٢ / صعوبة تطبيق هذا النمط ١٤٢ / محاسن الكلام ليست رهينة بفنون علم البيان ١٤٣ .

تحقيق المنهج فى دراسة علم البيان : ١٤٣ - ١٤٦ .

منهج فى التفكير العلمى ١٤٣ / آفات مهلكات تصيب عقول الباحثين ١٤٤ / طلب التحقيق هو أول طريق المعرفة ١٤٥ / إطالة سفر الخاطر هو طريق المعرفة الطويل ١٤٥ / النبع الذى تدفقت منه بلاغة الإمام ١٤٥ .

ابن الأثير ينبه على دقائق فى أمر المعانى : ١٤٦ - ١٥٢ .

علم البيان صناعة معنوية لها ضربان ١٤٧ / الضرب الأول : الابتداع ١٤٧ / باب لم ينل حظه من خدمة الدارسين ١٤٨ / شجاعة القلب والهجوم على

مكامن أبكار المعانى ١٤٨ / فتوح المعانى أصعب من فتوح المغانى ١٤٨ / نوابغ الأفكار محمية بحجب الخواطر ١٤٩ / مقام يَزْلَق بمعارف الأفهام ١٥٠ / الضرب الثانى : الاحتذاء ١٥٠ / فى زوايا الأفكار خبايا ، وفى أبكار الخواطر سبايا ١٥٠ / حفظ المعانى مرهون بصياغة الألفاظ ١٥١ .

مدخل إلى التشبيه

١٥٣ - ١٨٣

التشبيه جامع لفرقة المعانى ١٥٣ / نظرة فى تعريف التشبيه ١٥٣ / التشبيه يذلل عصىَّ المعانى ١٥٤ / شواهد تبين عن قدرته على جمع أقطار المعانى ١٥٤ / حمى لا يجرؤ التشبيه على القرب منه ١٥٩ .

من فضائل التشبيه : ١٥٩ - ١٨٣ .

التشبيه أكثر كلام الناس لأنه من المعانى المركوزة فى الفطرة : ١٥٩ / دعوة للباحث إلى ألا يحجر فكره على لسان أمته ١٦٢ / الكشف عن المجهول من أسباب كثرة التشبيه عند الأمم ١٦٣ / ومنها حب المحاكاة منذ الطفولة ١٦٣ / ومنها متعة التوافق والتآلف ١٦٤ / التشبيه ودقة ملاحظة الأشياء ١٦٤ .

مواضع فضل التشبيه عند الإمام عبد القاهر : ١٦٥ - ١٧٨ .

الموضع الأول : ١٦٥ / التمثيل يمنح المعانى واحدا من أمرين ١٦٦ / منهج عملى فى التدريب على التذوق ١٦٧ / تعليقات الشيخ محمد رشيد رضا تفك أطرافا من مبهمات كتابى الإمام ١٧٣ / الموضع الثانى : ١٧٤ / تشابه كلام الإمام فى صنيع التمثيل فى هذا الموضع وكلامه فى صنيع الاستعارة ١٧٤ /

الموضع الثالث : مستخرج الشبه اللطيف مستحق للمــدح ١٧٦ / صعوبــة الابتكار والتجديد فى التشبيه ١٧٧ .

التشبيهات العقم كما ذكرها ابن رشيق ١٧٨ . موضوع بحث بلاغى جاد .

الزمخشرى ووصف جامع لصنيع التمثيل : ١٨٠ - ١٨١

التشبيه وإبراز خبيآت المعانى ١٨٠ / التشبيه وإنقاذ الحقائق من الأباطيل ١٨١ / سطوة التشبيه ١٨١ .

التشبيه يزيد الحياة حياة : ١٨١ / إذا قال الشاعر "كأن" فقد ظهر فضلــه أو جهله ١٨٣ / التشبيه مقتل من مقاتل البلاغة ١٨٣ .

مدخل إلى المجاز

٢٠١ - ١٨٤

عالمية الحقيقة والمجاز : ١٨٤ - ١٩٢ :

فوضى المصطلحات المعاصرة وتحطيم ثوابت العلوم ١٨٥ / طرف مما أصــاب مصطلح " النقل " فى الاستعارة من فوضى ١٨٥ / كتابا عبد القــاهر أسسـا قواعد النظر فى علم بلاغة الألسنة عامة ١٨٦ / الثلاثة الأعلام وخدمة كتـابى عبد القاهر ١٨٦ / مزيد تفصيل فى عالمية المجاز ١٨٧ / الإمام يضع أصلين مـن أصول " الأدب المقارن " ١٨٧ / الأصل الأول : سرقة معانى الاستعارة مــن أدب إلى أدب ١٨٨ / الإمام لم يبتكر هذا الأصل وإنما وسع دائرته وتجاوز بــه حدود اللغة ١٨٩ / الأصل الثانى : ترجمة الاستعارة من لغة إلى أخرى ١٩٠ .

(العصمة من الإفراط والتفريط فى تاويل القرآن) : ١٩٢ - ١٩٥

المعركة حول قضية المجاز فى القرآن الكريم ١٩٢ / مدخل الإمام إلى دراســتها ١٩٢ / فضيلتان للعناية بالمجاز ١٩٣ / الأولى : يربأ بالعاقل عن الخبط بلا علـم

١٩٣ / إنكار المجاز "خيانة" لأمانة "العقل" ١٩٣ / الثانية : حاجة طالب الدين إليه ١٩٤/ تلبيس إبليس على من أنكر المجاز ١٩٤ / عظم الآفة فى الجهل بالمجاز ١٩٥ .

فخامة المعنى ونباهته : ١٩٥ - ١٩٩ :

على الكاتب أن يحرك عقل القارئ حتى لا تتناوشه الغفلة ١٩٨ / وجه فى تفسير فخامة المعنى فى المجاز ١٩٨ .

الاتساع فى اللغة : ١٩٩ - ٢٠٠ :

الحقائق اللغوية ألفاظ قارّة ، والمجازات ألفاظ ذوات أسفار ١٩٩

من فضائل المجاز الإيجاز والتشويق : ٢٠١ .

مدخل إلى الاستعارة

٢٠٢ - ٢٣٧

الاستعارة تتنكر للتشبيه مع أنها امتداد له وقائمة عليه ٢٠٢ / الاستعارة توجب فضل بيان عن الحقيقة ٢٠٣ / عجز العبارة عن الوفاء بوصف الاستعارة ٢٠٣ / سحر الاستعارة ٢٠٤ / الاستعارة تعود بنا إلى طور الطفولة ٢٠٦ / صور البيان وسائل لتيسير العلوم ٢٠٦ / تذليل المعانى العصية فى شعر البحترى موضوع دراسة بيانية جديدة ٢٠٦ .

الإمام عبد القاهر يرصد ست فضائل للاستعارة : ٢٠٧ - ٢١٧ :

الأولى : ابتكار المعانى الحسان ٢٠٧ / الثانية : إمتاع البصر والبصيرة ٢٠٨ / الثالثة : إثارة المعانى من معادنها ٢٠٩ / وصف الطريق إلى استخراج المعانى ٢٠٩ / الرابعة : أنس الدين والدنيا إليها ٢١٠ / وصف جيد للعلاقة بين اللفظ والمعنى ٢١٢ / الخامسة : تجديد البيان ٢١٢ / السادسة : الإيجاز ٢١٥

تحليل شواهد ، ٢١٧ - ٢٣٧ :

شواهد من الذكر الحكيم ٢١٧ / شاهد من البيان النبوى ٢٢٢ / شاهد من كلام الإمام على كرم الله وجهه ٢٢٣ / شواهد من شعر أبي تمام ٢٢٣ / شواهد من شعر محمود حسن إسماعيل ٢٢٦ - ٢٣٧ .

مدخل إلى المجاز المرسل

٢٣٨ - ٢٤٢

وحدة العلاقة فى الاستعارة غلبت كثرة العلائق فى المجاز المرسل ٢٣٨ / الإمام ينبه على ضعف العلاقة فيه وقوتها فى الاستعارة ٢٣٨ / المجاز المرسل يشترك فى فضائل المجاز ولكن على قدره : ٢٣٩ .

مدخل إلى الكناية

٢٤٣ - ٢٥٧

الكناية لغة الخواص ٢٤٣ / حقيقة الكناية ٢٤٣ / قيامها على الخداع والمراوغة ٢٤٤ / مبنية على الستر ٢٤٤ / تدريب على الاستدلال والاستنباط ٢٤٤ / غموضها يحفز إلى المعرفة ٢٤٥ / لطفها فى سلوكها طريق "معنى المعنى" ٢٤٦ / أربعة أمور فى مدخل الإمام عبد القاهر ٢٤٨ / الأول : تحرير القول فى دقة المسلك ولطف المأخذ ٢٤٨ / الثانى : وصف أثرها فى المتلقى ٢٤٩ / الثالث : وصف أثرها فى المعنى ٢٥٠ / الرابع : منهج الإمام فى مقدمات فصوله ٢٥١ / وجهة مهمة فى درس الكناية ٢٥١ / من أصول الموازنة ٢٥٤ / ضرورة إحياء منهج الموازنة ٢٥٥ / صور الكناية ٢٥٦ .

مدخل إلى التعريض

٢٥٨ – ٢٦٢

التعريض درس موجز فى كتب البلاغة ٢٥٨ / التعريض قرين الكنايــة ٢٥٩ / حقيقته ٢٥٩ / الفرق بينه وبين الكناية ٢٦٠ / التعريض أخفى مــن الكنايــة ٢٦٠ / الاستدلال هو عمل العقل فى الكناية والتعريض ٢٦١ / الاســتدلال فى التعريض ألطف وأدق وأخفى ٢٦٢ .

فهرس المراجع

٢٦٣ – ٢٦٩ .

فهرس الموضوعات

٢٧٠ – ٢٧٦ .